الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسنطينة — قسم التاريخ

الرقم الترتيبي:...../2003.

رقم تسجيل الطالب:.....

زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي

-دراسة موازنة-

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية

شعبة التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب: دوادي فرادي — تحت إشراف أ.د/ عبد العزيز فيلالي

أعضاء اللجنة	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس:	أ.د/ بوبة مجاني	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري قسنطينة
المقرر:	أ.د/ عبد العزيز فيلالي	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري قسنطينة
الأعضاء:	د/ محمد لمين بلغيث	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر
	د/ إسماعيل سامعي	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

السنة الجامعية: 1424-1425هـ/2003-2004م

نوقشت يوم:13 ذو القعدة 1424هـ الموافق لـ:06 جانفي 2004م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يرْفَعِ اللهُ الذينَ عَامَنُوا وَالذينَ أُوتُوا العلْمَ دَرَجَات﴾

قرآن كريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ الإهـــــــــــــداء ﴾

-إلى شهداء الحق الذين قضوا نحبهم وما بدّلوا تبديلاً وأخص منهم عمي عليّ.

-إلى روح شيخي ووليّ نعمتي وأستاذي المرحوم: محمد الغزالي.

-إلى روح والدي الكريم عبد الله فرادي الذي أسأل الله له الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

-إلى التي رعتني ولازالت ترعاني بدعائها وبقربها والتي أدعو الله أن يديمها لي نعمة وفضلا منه أمي الحبيبة الحاجة "آمنة بيراز".

-إلى الزوجة الكريمة وردة العابد.

-إلى قرّة العين بناتي شهرة؛ بشرى وشورى خلود.

-إلى كل إخواني وأخواتي وجميع أفراد عائلاتهم.

إلى كل هؤلاء أهدي باكورة جهودي العلمية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ شكر وتقدير ﴾

لا يسع طالب العلم وهو في مثل هذا المقام إلاّ أن يتوجه بالشكر إلى ذي المنة ﷻ أولاً وأخيرا وهو القائل" لإن شكرتم لأزيدنكم"؛ ثم بعد ذلك أتوجه بالشكر والامتنان إلى ذوي الفضل عليّ في هذا الميدان وأخص منهم:

- فضيلة الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله وما قدمه لي من توجيهات وإرشادات في بداية مشواري العلمي.
- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بجميع أساتذتها ومسيريها الذين تعاقبوا عليها وأخص بالذكر منهم المرحوم الدكتور أحمد عروة.
- معهد الحضارة الإسلامية بجميع أساتذته وجميع طاقمه الإداري وأخص بالذكر أستاذي خليفة حماش والأستاذ الدكتور عمر عبد الرحمن الماحي.
- الدكتور محمد عدالة الذي قبل الإشراف على هذا البحث ورعاه وهو فكرة.
- الدكتور عبد العزيز فيلالي الذي تابع معي أشواط هذا البحث رغم أشغاله الكثيرة وما يتطلب البحث من صبر وحلم وأناة.
- مكتبة الدكتور أحمد عروة بالجامعة بجميع طاقمها وأخص بالذكر: نبيل عكنوش وعبد الكريم بن اعميرة.
- إلى كل من قرأ وراجع صفحات هذا البحث وهي مسودة ونبهني إلى أخطائي فيها.
- إلى أعضاء لجنة القراءة والمناقشة السادة الأساتذة المحترمين على ما بذلوه وما يبذلونه من جهد في القراءة والمراجعة والتصحيح والتوجيه.

لكل هؤلاء مني جزيل الشكر والتقدير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- مُقَدِّمَة :

إنّ الناظر في المؤلفات التي ألّفت حول التاريخ الإسلامي للأمة، وما كان فيه من أحداث ليجد أن معظم هذه المؤلفات تكاد تقتصر على سرد الأحداث السياسية وما تعلق بها من فتن ودسائس وحروب.

أما الأعمال الحضارية والإنسانية والتي اشتركت في إنجازها الدولة الإسلامية مع الهيئات الإدارية والأفراد القائمين عليها فقد أهملت ولا تكاد تذكر إلا عرضا.

والدارس للفترة الزمنية الممتدة من بعد الخلافة الراشدة وما كان فيها من نتاج للأفكار الدينية والنظريات السياسية الممزوجة بروح التعصب تارة وبروح الحقد تارة أخرى ليجد أن الكثير من الأحكام الصادرة أو الشهادات المسجلة في كتب التاريخ أو الأدب ما هي إلاّ شعارات جوفاء جاءت لطمس حقيقة أو رفع خَسِيسَةٍ أو توجيه رأي العامة لغاية غير مبررة وبخاصة في العهد الأموي الذي شهد الكثير من الأحداث وظهور الكثير من الأحزاب والنظريات.

يقول الدكتور شلبي تحت عنوان: تاريخ يحتاج إلى إنصاف:" بسم الله العلي العظيم نبدأ دراستنا لتاريخ الدولة الأموية وللحركات الفكرية والثورية في عهدها، ونحن ندرك الصعوبات التي تقابل الباحث وهو مقدم على دراسة تاريخ هذه الحقبة، فلقد تحالفت ظروف كثيرة على الحطّ من شأن الأمويين بقصد أو بدون قصد، وتكاد المراجع التي بين أيدينا تخلو خلواً تاماً من كلمة مدح أو ثناء على أكثر خلفاء هذه الدولة، أما عبارات القذف والطعن فقد أسهبت فيها كتب كثيرة واقتصدت كتب أخرى، وكان أيسرها ما اكتفى باللوم والتقريع"(1). وأقرّ هذه الحقيقة كذلك كل من ماهر حمادة(2) ومحمود شاكر(3) لما كتبا عن الدولة الأموية.

1/ د/ أحمد شلبي: الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها، الطبعة السابعة، القاهرة مكتبة النهضة المصرية،1984، ج2 ص17.

2/ د/ محمد ماهر حمادة: دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره(العصر الأموي)، الطبعة الأولى، بيروت مؤسسة الرسالة،1988،ص 20.

3/ د/ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الطبعة التاسعة، بيروت المكتب الإسلامي،1991، ج3 ص14.

2- دواعي اختيار الموضوع:

لابد من تأكيد حقيقة وهي أنّه في مثل هذه الدراسة لا يمكن الفصل بين الجانب الحضاري والجانب السياسي فهما مجتمعان معا لذلك فقد اجتمعت جملة من الدواعي والبواعث في اختياري لمثل هذا الموضوع أجملها كالآتي:

- اقتصار المؤلفات التاريخية على سرد الأحداث بما لا يليق والموروث الحضاري للأمة على أنها فتن ودسائس وحروب.
- الإهمال شبه الكلي –إما عن قصد أو عن غير قصد- للتطور الذي شهدته العقلية العربية بعد أسلمتها وما صاحبها من نضج سياسي رفيع كان له الأثر الكبير في الأعمال الحضارية والتي تم تشييدها على طول فترة الخلافة الإسلامية وبخاصة زمن الفترة الأموية.
- كما أني لا أعدُّ نفسي من الماهرين ولا من المبدعين في الكتابة التاريخية غير أن افتقار أمتنا إلى الماهرين في الدراسات الإنسانية عموما والدراسات التاريخية خصوصا، أصحاب الأقلام النزيهة والنفوس الطاهرة والعقول النيِّرة ما أوجب عليّ تحمل نصيبي الشرعي كأحد أبناء هذه الأمة وكذا المسؤولية الملقاة على كاهلي كطالب علم في هذا التخصص وقد أصاب الأمة الوهن وشُنَّت عليها الغارات من هذا الجانب بالخصوص، لأن حصوننا الثقافية[على تعبير الشيخ الغزالي رحمه الله] مهدّدة أمام الغزو الثقافي الجاهلي، ومثل هذه الدراسات هي أسلحة فتاكة بأيدي أعدائنا.
- التوجيه اللامتناهي في مرحلة الليسانس من قبل المرحوم الشيخ محمد الغزالي للكتابة التاريخية ونفض الغبار عن تاريخنا للاستفادة منه، لما رأى عزوفا كبيرا من طلبة الجامعة عن معهد الحضارة الإسلامية سابقا وبخاصة تخصص التاريخ الإسلامي، وكان دائما يقول للطلبة: من يكتب لكم تاريخ أمتكم إذا لم تكتبوه أنتم، ويقول لهم: لقد اتجه الصليبيون إلى الدراسات الاستشراقية حتى أنهم كتبوا لنا تاريخنا وبثوا فينا سمومهم مستفيدين من معرفتهم للثغرات القائمة في بنياننا النفسي والفكري، وقادوا حملاتهم من خلال معرفتهم لنقاط الضعف والقوة فينا.

الحملة المسعورة ضد الخلافة الأموية في كتب التاريخ إذا ما علمنا أن هذه الفترة فترة مظلومة، وكتبت أحداثها في زمن لاحق وبأقلام مغرضة-إلا القلة منهم-. وفي هذا يقول أحمد شلبي:"والعجيب أن أغلب المؤرخين المحدثين من مسلمين أو مستشرقين تلقوا ما كتبه المؤرخون الأول على أنه حقائق فجاءت أكثر الدراسات الحديثة بعيدة عن الإنصاف" ثم يتبع قائلاً:" وجدير بتاريخ الأمويين أن يكتب من جديد وأن تتخذ أسسه من الواقع أي من حضارة الأمويين التي لا تزال تنطق بها دمشق وغيرها من العواصم الإسلامية ومدن الأندلس، ومن صنوف التفكير التي أنتجها العقل الأموي كالبريد والسكة وتعريب الدواوين وتنظيم الجيوش وغيرها ومن انتصارات الأمويين التي سجلت زحفا للإسلام لا يزال واضح الجانب"(1)

3- إشكالية البحث:

لكل بحث علمي مهما كان حجمه وفي أي تخصص شروط ومتطلبات، وتأتي على رأس هذه الشروط والمتطلبات الإشكالية، فلا يخلو بحث منها،وأفضل الإشكاليات ما كانت حقيقية نابعة من الواقع أو فرضتها ظروف معينة.

وللمتمعِّن في كتب التاريخ والأدب ومادوّن حول الفترة الأموية ليجد أنها اقتصرت على السرد التاريخي للأحداث وأي أحداث فهي فتن ودسائس وحروب.

زد على ذلك أن الفاعلين في تلك الأحداث وأخص بالذكر منهم زياد والحجاج إنما كانوا ظلمة وقتلة وسفاكين للدماء، فلا يرتاح بال الواحد منهما إلا وهو يشرب نخبا على أريكة مصنوعة من جماجم الأبرياء ومسبوكة بسبائك سواء كانت من دماء المستضعفين أو من دماء أتقياء هذه الأمة وأنقيائها.

فهل حقيقة هو ذا التاريخ في هذه الحقبة الزمنية وهذه هي أحداثه؟ وهل كانت هذه هي حقيقة زياد والحجاج أم أن الحقيقة غير ذلك؟ وللواحد أن يسأل إذا كان التاريخ في ذاك الزمان قد كانت أحداثه على هذا النحو فأين هو دور الأمة ودور علمائها وكذا دور المسؤولين فيها؟ وأين هي الأعمال الحضارية التي سادت تلك الفترة والإصلاحات التي

1/ د/ أحمد شلبي: المرجع السابق، ص19.

أُدْخِلت على الكثير من المستويات(السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، العسكري...) والتي حُفظت متناثرة بين طيَّات الكتب والدفاتر وبخاصة تلك التي كانت زمن زياد والحجاج؟ وللإجابة على هذه الإشكالية كانت هذه الخطة التي ستذكر تبعاً.

4- منهجي في بحث الموضوع:

اعتمدت كما هو معلوم عند الباحثين في العلوم الإنسانية، على المنهج التاريخي في جمع وترتيب المادة العلمية والذي يتطلب ما بين الفينة والأخرى الاعتماد على المنهج الوصفي في بعض الأحيان وفي أخرى على المنهج الاستقرائي، ثم في أحايين أخرى على المنهج المقارن والموازنة ويبقى تطبيق هذا المنهج أو ذاك بحسب ما تقتضيه المصلحة العلمية للبحث.

5- خطة الموضوع:

جاءت خطة هذا البحث ممثلة في مقدمة وتمهيد عام وثلاثة فصول وملاحق، فأما المقدمة فقد اشتملت على دواعي اختيار البحث، الإشكالية، منهج البحث، الخطة الصعوبات التي واجهت إنجاز البحث وأخيراً عرض ونقد للمصادر والمراجع.

أما التمهيد العام فقد تحدثت فيه عن الملامح العامة التي سبقت العصر الأموي ومهدت له وكذا العصر الأموي نفسه وبخاصة منها السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية وأخيرا الدينية.

أما الفصل الأول فتحدثت فيه عن زياد من مولده ونسبه ونشأته إلى وفاته وما اتصف به من مميزات؛ والعوامل المساعدة على ظهوره على مسرح الأحداث وتعامله مع السلطة المركزية صاحبة القرار؛ وسياسته في التسيير في الجانب الإداري والاقتصادي.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للحجاج، من مولده ونسبه ونشأته إلى وفاته وكيفية تعامله مع السلطة المركزية وطموحاته في الدولة الأموية مع إبراز سياسته في التسيير في الجانب الإداري والاقتصادي.

وجاء الفصل الثالث محتويا على دراسة موازنة بين زياد والحجاج في الجوانب التي شملتها الدراسة؛ أما الخاتمة فقد جعلتها وعاءًا شملت النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث؛ ثم الملاحق ثم أردفت كل ذلك بفهرس عام.

6- الصعوبات:

لقد واجهت وأنا أعد هذا البحث جملة من الصعوبات أجملها على النحو التالي:

- صعوبات ذاتية نابعة من داخل الإنسان وهو يحاول إخراج أول عمل أكاديمي علمي رصين يكون باكورة أعماله ونقطة انطلاقه.
- ثاني هذه الصعوبات الاستقرار النهائي لموضوع الرسالة حيث أنه تم على مراحل عدة وعناوين كثيرة حتى استقر على هذا النحو.
- كثرة المصادر والمراجع التي كتبت عن الفترة المدروسة وعن الشخصيتين، ولكن مع كثرتها وكثرة المادة الخبرية فيها إلا أنها تحتاج إلى تدقيق وتحقيق ولا تفي بالغرض العلمي المطلوب في مثل هذه الدراسة لما فيها من تشابه وتشابك.
- عدم التفرغ الكلي للبحث بحسب وظيفتي الإدارية بالجامعة وانتقالي من مصلحة إلى أخرى بحسب حاجة الجامعة إلى ذلك، مما جعل أمر البحث يطول والنفس تسأم ولولا لطف الله وعنايته لما تم.
- ومن الصعوبات التي هي بمكان نقص التأطير وتنقل المؤطرين على البحث بداية من الموضوع الأول مع أ.د/ أبو القاسم سعد الله ثم د/أمين بدوي ثم د/محمد عدالة إلى أن منَّ الله علينا بالأستاذ الدكتور: عبد العزيز فيلالي والذي لم يبخل بتوجيهاته القيّمة والثمينة لإخراج هذا البحث على الشكل الذي هو عليه، فلهم جميعاً مني كل الشكر والعرفان.

7- مصادر ومراجع البحث:

أ / المصادر:

أ-1/ وتأتي على رأس المصادر كتب التاريخ الإسلامي العام، سواء ما كان منها عاماً منذ بدأ الخليقة أو خاصاً بفترة زمنية محدودة. وقد أفدت منها رغم أن معظم المادة العلمية التي كانت قريبة من البحث أو تمس أحد جوانبه ولو من بعيد، كانت متناثرة في كمٍّ هائل من المعلومات والتناقضات في بعض الأحيان؛ وفي تخريج الكثير من الحوادث التاريخية وزمن وقوعها وقد ساعدتني في المقارنة بين تلك الروايات والترجيح بينها وكذا الرأي الأقرب إلى السداد وقد أفدت منها في كتابة البحث عامة في جميع مباحثه ولاتصاف هذه المصادر

بالصفات المشتركة السابقة ما أغناني عن إفراد كل مصدر والتحدث عنه، وقد أجملتها وأذكر منها: سيرة ابن هشام أو مختصر سيرته[ت213 هـ]، تاريخ خليفة[ت240هـ]، المعارف لابن قتيبة [ت276 هـ]، فتوح البلدان وأنساب الأشراف للبلاذري[ت279 هـ]، تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر[ت571 هـ]،مختصر تاريخ دمشق لابن منظور[ت711هـ]، المقدمة والعبر لابن خلدون[ت808هـ].

أما بعض المصادر القيمة والتي أفدت منها بالشيء الكثير هي كذلك غير أنه جاء في بعض أحداثها روايات متضاربة أو متناقضة في بعض الأحيان، وقد نقلها أصحابها من باب الأمانة تاركين لمن بعدهم التمحيص والحكم، أذكر منها: تاريخ الطبري[310هـ] والكامل لابن الأثير [630هـ]. هذا الأخير الذي جعلته عمدة في تخريج خطبة زياد. أما كتاب تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي[ت911 هـ]، فقد رجعت إليه لتخريج بعض الحوادث الخاصة بالفصل الثاني غير أنه شنّع فيه وبخاصة فترة الحجاج، فما يذكره إلاّ ويتبعه بالدعاء عليه.

أ-2/ ومن بين المصادر المعتمدة كذلك كتب الحوليات أو ما يسمى بمصادر السير والطبقات وقد أفدت منها في تخريج بعض أسماء الأعلام وبعض النصوص التاريخية في البحث وبخاصة في المبحث الأول لكل فصل وأذكر منها على حسب ترتيب أسماء مؤلفيها: البخاري[ت256 هـ] التاريخ الكبير. ابن حجر العسقلاني [ت852 هـ] الإصابة، تهذيب التهذيب ولسان الميزان. ابن خلكان [ت681 هـ] وفيات الأعيان. ابن سعد [ت230 هـ] الطبقات الكبرى. ابن عبد البر[ت463 هـ] الاستيعاب.الذهبي[ت748 هـ] تاريخ الإسلام، سير أعلام النبلاء، ميزان الاعتدال، والعبر.

أ-3/ أما مصادر الرحلة والجغرافية فقد اقتصرت على كتاب مروج الذهب للمسعودي [ت346 هـ] في تخريج بعض الأخبار وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي[ت626هـ] لتخريج بعض المناطق والأعلام.

أ-4/ بالنسبة للمصادر الأدبية فقد كانت قليلة في عددها غير أنها وفّت بالغرض المطلوب من تخريج لبعض الأحداث والروايات التاريخية وكذا شرح بعض المصطلحات اللغوية الصعبة، وقد اقتصر البحث على ثلاثة مصادر هي: كتاب الحيوان للجاحظ[ت256 هـ] والعقد الفريد لابن عبد ربه[ت327 هـ]، ولسان العرب لابن منظور[ت711 هـ].

أ-5/ كما استفدت من بعض المصادر مثل صحيح البخاري في تخريج بعض الأحاديث الواردة في البحث وأما كتاب الأموال لابن سلاّم[ت224 هـ] وكتاب الأحكام السلطانية للماوردي [ت450 هـ] فقد استعنت بهما في المبحث الرابع للفصل الثاني بالخصوص.

ب/ المراجع:

اعتمدت على مراجع حديثة كثيرة، لها صلة بالبحث المدروس من قريب أو من بعيد غير أن دراسة منفردة مثل البحث المدروس فلم اعثر عليها. وإنما جاءت تلك المراجع مركزة على الجانب السياسي موضحة له ومبينة لبعض الوقائع التي كانت لها أثار سلبية في حياة الأفراد والأمة للفترة المدروسة. فجاءت جل تلك الدراسات عبارة عن تكرار تحمل بين طياتها أفكارا حاقدة أو مضللة إلا القلة القليلة منها؛ وقد تم تخريج قول بعض المؤرخين في وصف تاريخ الدولة الأموية على أنه تاريخ مظلوم وقد تظافرت في ذلك الكثير من الأسباب وقد تم بيان ذلك حيث وجب التبيين.

ب-1/ المراجع التاريخية: إن هناك مراجع أفدت منها بالشيء الكثير لتميُّزِها بالطرح الموضوعي في معالجة الحادثة التاريخية الواقعة زمن الفترة الأموية وبالخصوص حول زياد والحجاج؛ أذكر منها: التاريخ الإسلامي العام لمحمود شاكر، التاريخ الإسلامي العام لعلي إبراهيم حسن، الدولة الأموية للدكتور أحمد شلبي، كتاب دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره وكذا الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الراشدي والأموي وكلاهما لمحمد ماهر حماده، وكتاب تجديد الدولة الأموية لشحادة الناطور. أما كتاب الموالي ونظام الولاء لمحمود المقداد فقد أفدت منه في الرد لبعض الشبهات التي دارت زمن الدولة الأموية وبخاصة زمن الحجاج. وفقه السيرة النبوية لمحمد سعيد رمضان البوطي على أساس الافادة منه في تخريج بعض المعارك والمواقع الإسلامية.

أما الكتب التي تناولت الجوانب التاريخية والحضارية للفترة المدروسة فقد اقتصرت على بعضها ومنها الحضارة العربية الإسلامية للخربوطلي، والحضارة العربية الإسلامية لشوقي أبو خليل، والحضارة الإسلامية في القرون الوسطى لأحمد إبراهيم أحمد.

أما الكتب التي جاءت مادتها العلمية عامة وفائدتها قليلة فأذكر منها: ضحى الإسلام لأحمد أمين، عبد الملك بن مروان وقتيبة بن مسلم الباهلي لبسام العسلي، المائة الأعظم في تاريخ

الإسلام لحسن أحمد أمين، تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول لشكري فيصل، وكتاب تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن.

ب-2/المراجع الأدبية:وقد تم التركيز على مرجعين أساسيين هما تاريخ الأدب العربي للزيات، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ.

ب-3/ الموسوعات: الرجوع إلى مثل هذه التآليف مهم جدا لما تحتويه من مادة علمية غزيرة وإن كانت في الغالب تكون إما مقتضبة أو سطحية منها: دائرة المعارف للبستاني وموسوعة العراق السياسية لعبد الرزاق محمد أسود، الموسوعة العسكرية للهيثم الأيوبي وموسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي.

ب-4/ اعتمدت على كتاب: الأعلام للزركلي وجعلته بمثابة العمود الفقري في تخريج الكثير من الأعلام والشخصيات التي وردت في البحث.

ب-5/ المراجع المترجمة: كان الاعتماد عليها قليلا لوفرة المادة التاريخية في مراجع التاريخ والأدب المؤلفة باللغة العربية، لكن هذا لا ينفي أهميتها وتأثيرها حتى في المؤلفين الذين كتبوا التاريخ بنظرة المستشرقين. ومن المراجع المترجمة المعتمدة في البحث: السياسة العربية لفان فلوتن، تاريخ الدولة العربية لفلهوزن يوليوس، تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، وأخيرا كتاب الإسلام في مجده الأول لموريس لمبار.

ب-6/ مراجع لم تكن أساسية في البحث غير أنه تم الرجوع إليها للاستئناس بها وبما جاء فيها لتوضيح فكرة أو لتدعيم قول أو لترجيح رأي ومن هذه المراجع: كتاب الإسلام وفلسفة الحكم لمحمد عمارة، وكتاب قذائف الحق لمحمد الغزالي.

ج/الرسائل الجامعية: رسالة ماجستير لإحسان صدقي العمد بعنوان: الحجاج بن يوسف الثقفي والذي أجاد وأفاض في الكتابة عن الحجاج ورد الشبهات عنه ما أمكنه ذلك.

د/ المراجع الأجنبية:

د1/ الأمويون: لهرمان زوتنبارغ، فقد أفدت منه في تخريج بعض ما كتبه عن زياد وبخاصة في المبحث الأول والثاني من الفصل الأول.

د2/ وجوه عظيمة في الإسلام: لعمار دهينة، أفدت منه في تخريج ما له صلة بالمبحث الأول في كل من الفصل الأول والثاني.

التمهيد العام:

﴿الملامح العامة للعصر الأموي﴾

- مقدمة.
- الملامح السياسية.
- الملامح الاجتماعية والاقتصادية.
- الملامح الدينية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

تمتد الفترة التي هي مادة هذا البحث من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الخامسة والتسعين منه(1-95هـ) [620-715م] أي ما يقارب القرن من الزمن.

عاش زياد بن أبيه منها ثلاث وخمسين سنة من(1-53هـ)[620-673م] وقدّر لهذه الشخصية أن تعايش دولة الرسول ﷺ وهو في مرحلة الصبى ثم دولة الخلفاء الراشدين وهو شاب يافع، ثم الدولة الأموية وهو في مرحلة النضج العقلي، وخلال هذه الفترة كلها شارك مشاركة فعالة في دواليب الحكم، و تحمّل خلالها أعباء الحكم في الدولة وكان فيها بمثابة الوزير وخاصة في الفترة الأخيرة من حياته والتي قضاها مع مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

كما شاءت الأقدار أن يعيش الحجاج بن يوسف الثقفي، والذي امتد عمره إلى أكثر من خمسين سنة (42-95هـ)[662-715م] قضاها في الدولة الأموية، مع المؤسس الثاني للدولة الأموية عبد الملك بن مروان ومع ابنه الوليد، والتي امتازت فترة حكمهما ببلوغ الدولة أوج قوتها و اتساعها.

وتمثلت قوة الدولة في التنظيم الجديد لهياكلها ومؤسساتها مما ساعد على توسيع رقعتها إلى بلاد ما وراء النهر وبلغت حدود الصين.

أ –الملامح السياسية :

إن الهدف من الإلمام بالملامح السياسية لهذه الفترة إنما يساعدنا على دراسة الوضعية التي كانت قائمة كحقيقة في مجتمع الرجلين، وتفاعل زياد والحجاج مع هذا الواقع وهذه الحقيقة الاجتماعية ثم القرارات التي صدرت من الرجلين وهما في سدة الحكم يديران دواليبه .

العصبية القبلية:

وأول هذه الملامح بقاء النعرة الجاهلية المتمثلة في العصبية القبلية ولو بالشيء القليل غير أنها بقيت تؤثر في مجرى الحياة السياسية في اتخاذ القرارات والأحكام سواء في حياة الناس اليومية أو حتى في حياة الطبقة الحاكمة .هذه النعرة التي سببت للعرب قبل الإسلام خلافات كثيرة وسنوات عديدة من الحرب والسجال وكانت إحدى صفات الحكم

العربي السياسي. (1)

وخير مثال على بقاء النخوة الجاهلية في نفوس أفراد المجتمع حركة حروب الردة والتي كان أساسها طلب الجاه والرئاسة والسيادة، فكيف لقريش وهي القبيلة صاحبة الجاه والسلطان في الجاهلية يزيد منصبها وسؤددها بخروج نبي منها ولا يكون هذا في غيرها من القبائل.وحركة الفتنة الكبرى التي ذهب ضحيتها الخليفة الصالح عثمان بن عفان ﷺ ما كانت أن تقوم لولا بقاء أدران الجاهلية في نفوس أصحابها من الجند الذين حاصروه في بيته وقتلوه في آخر المطاف بتحريض وتأليب من عبد الله بن سبأ(2).

لكن بعض من كتب من غير هذه الزاوية عن بني أمية من مستشرقين وأتباعهم يرون أن الدولة الأموية هي التي أيقظت هذه النعرة واستعملتها في سياسة الناس بتفضيل عرب الشمال حينا وعرب الجنوب أحياناً أخرى وهي سياسة فرق تسد التي استعملها بعض الخلفاء بين المضرية واليمنية للبقاء في الحكم والاستمرار فيه.

قيام دولة الرسول ﷺ

وثاني هذه الملامح السياسية، قيام الدولة الجديدة التي جاءت وتممت ما كان سائدا في الجاهلية من الجانب الأخلاقي من جهة، وأحدثت انقلابا كبيرا في موازين التوحيد والعبودية في نفوس الناس من جهة ثانية، هذه الدولة هي دولة الرسول ﷺ والتي كان مقرها المدينة المنورة . فأول ما يلاحظ على هذه الدولة أنها صهرت جميع الفوارق الاجتماعية وجعلت المجتمع كوحدة واحدة لا تتجزأ وذلك بتعميق مفهوم الاخوة والمساواة بين أفراده ورد أصل المفاضلة على أساس التقوى والعمل الصالح لقوله تعالى :" إنما المؤمنون اخوة" (3) وقوله تعالى :" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ،إن الله عليم خبير."(4)

وقد حولت هذه الدولة طموحات أفرادها بعد أن كانت ضيقة ومحدودة لا تتعدى السطو والاعتداء وقطع الطريق في الجاهلية إلى الارتقاء بهذه الطموحات إلى ابعد من البعد المكاني والزماني بعد أن طبقت تعاليم الدين الإسلامي .

1/ أحمد أمين: فجر الإسلام، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الكتاب العربي، ص79.

2/ د/محمد سعيد رمضان البوطي:فقه السيرة النبوية، الطبعة11، دمشق دار الفكر، 1411هـ /1991م.ص 370

3/ سورة الحجرات: الآية 10 .

4/ سورة الحجرات الآية 13.

وكان الرسولﷺ هو مصدر القرارات وإليه تنتهي لأنه كان المبلغ عن ربه، وكان يدير الدولة بمساعدة من يراه كفؤا لذلك من صحابته.

وقد بذل الرسول الكريم ﷺ كل جهده لتبليغ الإسلام بكل الوسائل الشرعية التي كانت متاحة آنذاك فاتسعت حدود الدولة من المدينة المنورة إلى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، غير أن النفوس المريضة والقلوب العليلة والتي غلب عليها الران و لم تسلم حقيقة الإسلام كانت موجودة في المجتمع وقد أنبهم القرآن الكريم على ذلك وفضحهم وبدأت تظهر بوادر شرهم في حياتهﷺ وظهرت بوادر تمرد الأعراب وارتدادهم على الإسلام بظهور مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهم. وقد انقضت مدة هذه الدولة بوفاته ﷺ والذي صادف يوم الاثنين12 ربيع الأول11هـ[631م] .

قيام دولة الخلافة الراشدة

وثالث الملامح السياسية، قيام الدولة الراشدة، وتعتبر الخلافة الراشدة امتدادا لدولة الرسول ﷺ رغم ما صاحبها من فتن واضطرابات واختلاف في وجهات النظر.

وأول هذه الخلافات،ما وقع في أمر من يشغل منصب الخليفة، غير انه سرعان ما حلت المشكلة في سقيفة بني ساعدة بتعيين أبي بكر رضي الله عنه (1) الذي بايعه الناس على المنشط والمكره فبادر بإرسال الجيوش لتأديب المرتدين ومانعي الزكاة وليحافظ على وحدة المسلمين و لمّ شملهم. وكانت وفاته في جمادى الأولى 13هـ [633م]ودامت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام.

وقد ساعده على حمل وزر الخلافة جمع من الصحابة توسم فيهم خيرا، فكانوا له بحق خير المعينين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه(2). هذا الرجل الذي وطد دعائم

.....

1/ أبو بكر الصديق بن أبي قحافة رضي الله عنه خليفة رسول الله هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابنة عم أبيه، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر. كان أبيض نحيفا خفيف العارضين معروق الوجه ناتئ الجبهة. صحب النبيﷺ سنة قبل البعثة وهو أول من أسلم من الرجال واستمر معه وشهد المشاهد كلها معه إلى أن مات ﷺ .وكانت وفاته يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة.ابن حجر: الإصابة، تحقيق طه محمد الزيلي، الطبعة الأولى القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية 1396هـ/1976م، ج6 ص155-161 بتصرف.

2/ عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي أبو حفص أمير المؤمنين وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية أخت أبي جهل ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وكان إليه السفارة في الجاهلية وكان إسلامه فتحا على المسلمين كان طويلا جسيما أصلع أبيض شديد الحمرة وسماه الرسول ﷺ بالفاروق. ابن حجر:المصدر السابق، ج7 ص71 76بتصرف.

الدولة الراشدة بعد وفاة أبي بكر،باتباعه نفس السياسة السابقة، وزاد على ذلك،ببعث الجيوش للفتوحات مما ساعد على اتساع رقعة الدولة.وفي عهده :"ازدادت صورة الدولة وضوحا ووضعت لها قواعد تتعلق باستعمال العمال ومراقبتهم وتنظيم الخدمة العسكرية وما تبعه من وضع ديوان للجند ونظام للعطاء"(1) وقد دام حكم عمر رضي الله عنه عشر سنوات وخلفه بعد وفاته الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه(2) الذي شهدت فترة حكمه الكثير من الانتقادات اللاذعة والتي كان سببها الفهم القاصر، والمصلحة الشخصية. (3)

هذه الانتقادات ما فتأت أن تتحول إلى خصومات كلامية ثم بعدها إلى تحكيم السيف، مما فتح على الأمة باب الفتنة والتي حصدت الكثير من رقاب المسلمين وكان أولهم الخليفة نفسه، وقد انجرت عن هذه الفتنة نتائج وخيمة كان لها الأثر الكبير والبعيد في مسيرة حركة المجتمع الإسلامي عامة والعربي خاصة في القديم والحديث منها:

1-انشقاق عصا وحدة المسلمين والأثر باق إلى يومنا هذا.

2- التحاكم في اغلب الأحيان بين المسلمين إلى السلاح والقوة بدل الحوار وسياسة اللين.

3- هروب المعارضة والتجاؤها إلى منطقة بعيدة من مركز الخلافة لتجميع قواها وكان العراق خير مكان لذلك.

4-ظهور الأحزاب والفرق الإسلامية مما زاد في تشتت وحدة المسلمين قديما وحديثا ومما زاد في تأجج نار الفتنة وتضلع الأحقاد في النفوس.

5- زوال الخلافة الراشدة ومبدأ الشورى، وظهور الرأي المستبد والحكم الأحادي في الدولة الإسلامية.

.....

1/ إحسان صدقي العمد:الحجاج بن يوسف الثقفي حياته وآراؤه السياسية،الطبعة الثانية بيروت دار الثقافة ،1986، ص36.

2/ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أمير المؤمنين أبو عبد الله وأبو عمر أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس أسلمت وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح وكان ربعة حسن الوجه رقيق البشرة عظيم اللحية بعيد ما بين منكبيه بشره رسول الله ﷺ بالجنة لقب بذي النورين لزواجه من بنتي الرسول ﷺ رقية ثم لما ماتت تزوج من أختها أم كلثوم. بويع له بالخلافة يوم السبت غرة محرم سنة أربع وعشرين وقتل على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وإثنين وعشرين يوما فيكون ذلك في ثاني وعشرين ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من يوم جمعة ودفن بالبقيع وكان له من العمر إثنين وثمانين سنة وأشهر.ابن حجر: المصدر السابق، ج6 ص391-393بتصرف.

3/ أوخذ ﷺ في18 مظلمة على رواية الكذابين والدجالين في زمانه، ذكرها ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم ص61-62 ثم جاء على كل مظلمة مكذوبة وردها بالدليل والحجة بداية من ص63 إلى ص147، وقال في بداية رده ص63: هذا كله باطل سنداً ومتناً. العواصم من القواصم: تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية،جدة الدار السعودية للنشر1387هـ.

ثم جاءت خلافة الإمام علي رضي الله عنه أين زادت الأوضاع تأزما، وزادت فرقة المسلمين وظهرت الفرق الإسلامية بين مؤيد ومعارض، وبين سنة وشيعة وخوارج وغيرهم.

عام الجماعة وقيام الدولة الأموية

وحتى يحفظ الله دماء المسلمين ويصلح بينهم هدى الله الحسن بن علي -رضي الله عنهما- إلى التنازل عن الخلافة لمعاوية في جمادى الأولى عام41 هـ. [661م]

أخذ معاوية رضي الله عنه البيعة من الناس،و استمالهم بالرغبة حينا وبالرهبة حينا آخر وليس ذلك بغريب من معاوية وهو الذي عرف بدهائه وبعد نظره وحدة ذكائه وفطنته،إلا أن ذلك لم يمنع من وقوع حوادث زادت من تباعد الهوة بين المسلمين نتيجة لبعض مواقف الأحزاب المعارضة وبخاصة الخوارج والشيعة وكذا بعض القرارات الصادرة من مركز الخلافة مثال ذلك انتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق، إستلحاق معاوية لزياد بنسبه، ولاية العهد ومقتل الحسين بن علي، وحصار الكعبة وضربها بالمنجنيق وغيرها.

وظلت الأوضاع هذه على حالها بين مد وجزر بين مركز الخلافة والرعية إلى مجيء عمر بن عبد العزيز أين خفت حدتها وكادت تزول هذه الملامح والأعراض المرضية في المجتمع لو قدر لعمر أن يعيش اكثر من ذلك ويحكم مدة أطول. وبقيت هذه الأمراض تنخر في جسد الدولة الأموية حتى أهكت قواها ثم قضت عليها عام 132 هـ. [752م]

وقد اجتهد الخلفاء الأمويون قدر طاقتهم لتوحيد الأمة ما وجدوا لذلك سبيلا وبالمقابل حاولوا الحفاظ على دولتهم واستعانوا على ذلك بالعديد من الرجال كان من بينهم زياد والحجاج .

ب -الملامح الاجتماعية و الاقتصادية:

امتازت الفترة التي امتدت طوال القرن الأول بزخم من الأحداث والوقائع شاركت فيها العديد من الأجناس البشرية بتفاعلاتها المختلفة، إلا أن الجنس الذي غلب ذكره في التاريخ لهذه الفترة هو الجنس العربي الذي تجددت حياته بالدين الإسلامي والذي أعطاه دفعا جديدا في الحياة بسبب المبادئ الجديدة التي جاء بها ورسخها في نفوس اتباعه.

ولقد عاش العرب في الجزيرة العربية شتاتا على شكل قبائل، فمنها من نزل الحضر ومنها من بقي في البدو، و لم تقم للعرب قائمة و لم تكن لهم دولة موفورة الجـــاه مهابـــة الجانب، حتى جاء الإسلام أين جمع شتاتهم وألّف بينهم وكوّن منهم هداة أمم بعـــد أن كانوا رعاة إبل وغنم.

فبعد أن كان العربي يجرد سيفه لقطع الطريق والاعتداء، أصبح السيف لا يجرد- بعد أن اعتنق الإسلام – إلا لإعلاء الدين أو للدفاع عن حياضه، فكانت حركـــة الفتـــوح الإسلامية من أهم العوامل التي جمعت قبائل العرب تحت راية واحدة وهـــدف واحـــد القصد منها نشر الدين وتبليغه.

وقد واكب حركة الفتح خروج العرب من مركز الخلافة، ومع مرور الزمن واستمرار هذه الحركة احتك العرب بغيرهم من الأجناس والحضارات الأخرى وتبعا لواجب التبليغ لتعاليم الدين فقد اضطر الكثير منهم إلى الاستيطان في المدن والأقاليم المفتوحة.

زد على ذلك وفاة الكثير من الفاتحين العرب أثناء الفتوحات مما انقص العدد الكمي والنوعي للعرب والذين كانوا يمثلون الركيزة الأساسية في الطبقة التكوينية في المجتمع.

بالإضافة إلى هذا فان الفاتحين العرب قد أهلكتهم الحروب التي لم تنقطع عنهم والذيـــن كانوا قادتها ووقودها مما جعلهم يبحثون عن حياة الدعة والقعود ولو لفترات متقطعـــــة وتركوا المبادرة لغيرهم من الأجناس فخلّف هذا في نفوسهم أثرا سلبيا حـــدى بهـــم إلى القعود والتقاعس عن أداء الواجب في بعض الجهات من الدولة الإسلامية ممـــا اضطـــر حكـــام تلك المناطق وبخاصة منطقة العراق إلى استعمـــال لغـــة الســـيف والـــترهيب لبعثهم من جديد.

وبتقاعسهم هذا تركوا الطريق أمام جنس ثان كان له الأثر البين في حركة المجتمع ألا وهم الموالي –ومن نتائج هذا الأثر سقوط الدولة الأموية- ويقصد بالموالي المسلمين مـــن غير العرب، والذين كانت لهم علاقة طيبـــة ووطيدة بالإسلام والفاتحين العرب.

ولقد قدم الموالي للدولة الإسلامية وللإسلام من الخدمات ما يعجز اللسان عن وصفه والقلم عن تدوينه.فقد كان الكثير منهم يشتغل بالتجارة والمهن والزراعة مما ساعد علـــى إيجاد نوع من التوازن في المجتمع من الناحية الاقتصادية.

وكانوا يتمركزون في المدن وحولها، هذا التمركز شجعهم على المساهمة الفعالة والبناءة وجعلهم يندمجون في المجتمع دون عقدة نقص، ولقد اهتم البعض من الموالي بعلوم اللغة والفقه حتى نبغوا فيها واصبحوا أعلاما فيما بعد فترة زياد والحجاج.

وكانوا يمثلون:"عصب الدولة الاقتصادي الذي تعتمد عليه في الزراعة والتجارة وجباية الضرائب والقيام بالأعمال اليدوية الضرورية للمجتمع"(1)

وقد اتضح دورهم الكبير في المجتمع حتى أن بعض القائمين على تسيير الدولة قد اتخذوا إجراءات إستعجالية للحفاظ على هذا الدور الذي يقومون به فمنعوا هجرة الموالي من الريف إلى المدينة للحفاظ على الزراعة وتأمين القوت.

والمتتبع لفترة حكم بني أمية،يجد أن بعض ولاتها قد مارسوا نوعا من سياسة التهميش والتقزيم تجاه الموالي رغم الدور الريادي الذي يقومون به في المجتمع، وهذا التهميش أدى إلى حقد طائفة من الموالي على الحكم الأموي وجعلهم يشجعون الثورة ضدهم ويشاركون في الثورات التي قامت ضد الأمويين ما سمحت لهم الفرصة.

ولقد هزت الدولة الأموية أزمة اقتصادية كبرى كادت تعصف بها لولا التدبير المحكم والمستعجل الذي قام به الخليفة وشجعه على ذلك واليه الحجاج والمتمثل في سك العملة وتعريبها بعد أن ساءت الأحوال بين الدولة الأموية والدولة الرومية.

بالإضافة إلى ذلك النفقات الكبيرة التي كانت تنفقها الدولة على تجهيز الجيوش الفاتحة للأقاليم أو الجيوش التي تحمي الثغور والحدود والتي تعرف بالصوائف والشواتي.

وقد شارك عنصر آخر من الأجناس في حركة المجتمع إلا أن مشاركته كانت محدودة جدا واقتصر دوره في الجانب الاقتصادي -ديوان الحساب- وهم قلة قليلة وهم اليهود والنصارى الذين بقوا على دينهم وكفل لهم الإسلام حقوقهم غير منقوصة في الدولة، فقد شغلوا المراتب الحساسة إذ كانوا هم المقيدون لسجلات الوارد والصادر لبيت مال المسلمين وعطاء الجيوش والنفقات.

.....

1/ د/إحسان صدقي:الحجاج بن يوسف ،ص 57

ج- الملامح الدينية:

عاش المسلمون في بداية الدعوة الإسلامية اخوة متحابين بعد أن آخى الرسـول ﷺ بين الأوس والخزرج ونزع من قلوبهم أدران الجاهلية، وتدفـق النـاس إلى الدخـول في الإسلام أفواجا بعدها، ولما لم يكن الإسلام للعرب وحدهم بل للناس جميعا فقد دخل فيه أهل الديانات والملل والنحل الأخرى لما علموا من تعاليمه الطاهرة، فقد دخلوه بقلـوب صافية نقية حتى خلد ذكرهم القرآن، غير أن البعض منهم قد دخله وهم في ريب منـه وقد كشف عيوبهم القرآن وشهّر بهم وخاصة صنف المنافقين منهم.

كما حذر القرآن من اليهود والنصارى-وهم أهل الكتاب- بعد أن حرّفوا كتبـهم وعاثوا في الأرض فسادا.

إلا أن الإسلام —كما سبق الذكر- قد حفظ لرعاياه جميع حقوقهم سواء المسـلم منهم أو الذمي، ومع مرور الزمن وبعد الناس عن الدعائم التي أرسـاها الرسـول ﷺ في المجتمع قد خلف انشقا قات نتجت عن الاجتهادات البشرية التي كانت وليدة ظـروف جديدة طرأت على أحوال المجتمع، وكلما مرت السنون زادت الخلافات وتباعدت الهـوة بين أفهام المسلمين مما أدى إلى ظهور أحزاب وطوائف دينية وكذا مدارس فقهية تـأثرت كل واحدة منها برأي متزعمها .

ومن أهم الفرق والأحزاب الدينية التي ظهرت: الشيعة والخوارج.

فالشيعة وهم الذين شايعوا وبايعوا الإمام عليّ رضي الله عنه وكانوا لـه منتصريـن، وبـدأ ظهورهم على مسرح الأحداث بعد مقتل الخليفة عثمان و لم يلبث الشيعة قطبا واحـدا إلا يسيرا، فما إن جاءت وقعة صفين حتى انقسموا إلى شيعة موالين لعلي وإلى فريق معـلوض لعلي، خرجوا عليه، فسموا بالخوارج، بعد أن رفضوا القرار الذي توصل إليه واقتنع بـه الإمام عليّ.

ولقد لعب كل من الشيعة والخوارج دورا مهما في زعزعة الدولة الأموية كل علـى حسب مستواه، فالشيعة وإن لم يخوضوا حربا شعواء على الدولة الأموية إلا انهم سـاهموا بتقاعسهم وعدم نصرتهم في زعزعة الدولة، وعلى العكس من ذلك نجد الخوارج الذيـن

أشعلوها حربا شعواء وشكلوا خطرا عظيما وخاصة زمن الحجاج، وبقوا يدبرون المقالب ما سمحت لهم الظروف، وقد كانوا هم أحد الأسباب الممهدة لقيام الدولة العباسية.

هذا من جانب المسلمين، أما عن أهل الذمة فقد نعموا-كما سبق ذكره-بالحياة الرغيدة بما حفظ لهم الإسلام من حقوق، وتمتعوا بحرية أداء طقوسهم الدينية والحماية التامة من الدولة الأموية لهم مقابل ما يدفعونه من جزية.رغم أن البعض منهم قد تعرض لبعض الضغوطات والمعاملات السيئة إلا أن ذلك كان ظرفيا و لم يكن لسياسة عامة منتهجة.(1)

وتبعا لكل هذه الأحداث والوقائع، وهذه التفاعلات سواء الإيجابية منها أو السلبية، قد أثرت في المسار العام للأحداث وأثرت في شخصية زياد بن أبيه وكذا الحجاج بن يوسف الثقفي لأنهما ابنا بيئتهما يؤثران ويتأثران.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1/ د/إحسان صدقي: المرجع السابق، ص61-62.

الفصل الأول:

﴿زيـــــاد بن أبيـــــــه﴾

المبحث الأول:

* الأصل والمنشأ وعوامل ظهوره ووفاته *

1. نسبه ومولده.
2. نشأته وعوامل ظهوره.
3. وفاته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1: نسبه ومولده:

أ- نسبه :

اختلف المؤرخون في أصل زياد اختلافا بيّنا، ويعود أصل هذا الاختلاف إلى الغموض الذي يكتنف نسبه من جهة أبيه؛(1) لذا سمي في العديد من المصادر والمراجع بزياد بن أبيه(2).فقد نسب زياد إلى عبيد تارة ونسب إلى أمه سمية تارة ثانية ونسب إلى أبي سفيان تارة ثالثة.

فإذا حمل نسب زياد إلى عبيد، فهو زياد بن عبيد بن أسد بن علاج الرومي غلام الحرث ابن كلدة الطبيب الثقفي.(3)

وإذا صح نسب زياد من هذا الجانب، فهو ثقفي المولد والنشأة، وقد اختلفت في ذلك الروايات بحسب اختلاف رواتها .

فقد روى ابن كثير (4):" أن سمية أم زياد كانت لدهقان زندورد بكسكر(5) فمرض الدهقان فدعا الحرث بن كلدة الطبيب الثقفي، فعالجه فبرئ فوهبه سمية فولدت عند الحرث أبا بكرة واسمه نفيع و لم يقربه، ثم ولدت نافعا فلم يقربه أيضا، فلما نزل أبو بكرة إلى النبي "ﷺ"حين حصر الطائف قال الحرث لنافع: أنت ولدي، وكان قد زوج سمية من غلام له اسمه عبيد، فولدت له زيادا."

.....

1/ DHINA AMAR GRANDES FIGURES DE L ISLAM .alger.entreprise national du livre.1986 p137

2/ ينظر:الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: ميزان الاعتدال في نقد الرجال تحقيق:علي محمد البجاوي. بيروت دار المعرفة م2 ص86. ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج2 ص77. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي:الإصابة في تمييز الصحابة تحقيق :د.طه محمد الزيني الطبعة الأولى القاهرة دار إحياء الكتب العربية 1393هـ/1973م ج4 ص84 . ابن عبد البر:الاستيعاب في معرفة الأصحاب،ج4 ص26-27 طبع بهامش الإصابة في تمييز الصحابة. د.أحمد شلبي:الدولة الأموية الطبعة السابعة القاهرة مكتبة النهضة المصرية 1984م ص43.الهيثم الأيوبي: الموسوعة العسكرية الطبعة الثالثة بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1990م، ج3 ص515.

3/ ينظر: الكامل في التاريخ:ج3ص220 . الذهبي،أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء تحقيق: مأمون الصاغرجي الطبعة الثالثة بيروت مؤسسة الرسالة 1405هـ/1985م ج3 ص494. ابن منظور، محمد بن مكرم :مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق:د.لسيب لشاوي الطبعة الأولى دمشق دار الفكر 1405هـ/1985م ج9 ص72 وص75.

4/ الكامل في التاريخ:ج3 ص220

5/ كسكر: كورة واسعة، وقصبتها واسط ، القصبة التي بين البصرة والكوفة. ياقوت الحموي: معجم البلدان تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية 1410هـ/ 1990م، ج4ص523 .

وقد ذكرت مثل هذه الرواية في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر حينما قال: وزوجها الحارث غلاما له روميا يقال له عبيد، فولدت زيادا على فراشه.(1)

أما النسب الثاني الذي يذكره المؤرخون في كتبهم ومؤلفاتهم فهو نسبته لأمه، فيقال زياد بن سمية(2) أو زياد بن أمه (3)، وهذا النسب للأم صحيح لأن سمية جارية الحارث بن كلدة هي أم زياد دون شك؛ و لم يختلف في ذلك العلماء والمؤرخون، غير أنه من المتعارف عليه عند العرب قبل الإسلام وبعده أن النسب يكون للولد من جهة الأب وليس من جهة الأم مصداقا لقوله تعالى :"أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا ءاباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم."(4)

أما من ألحق زيادا بالنسب السفياني فيقول هو: زياد بن أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس وأمه سمية، وبهذا يكون زياد قرشي النسب والأصل ثقفي المولد، لأنه ولد على فراش عبيد بالطائف، وقد ذكر هذا النسب ابن سعد في الطبقات الكبرى(5)، وابن عبد البر في الاستيعاب(6)، والإمام البخاري في كتابه التاريخ الكبير(7)، وابن خلدون في مقدمته(8) وغيرهم ممن كتب أو أرخ لهذه الشخصية التاريخية .

.....

1 / ابن منظور،ج9 ص75.

2/ ينظر:ابن الأثير:المصدر السابق ،ج3ص219 ./ الطبري: المصدر السابق، م3 ص195. ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج4 ص84. الذهبي: سير أعلام النبلاء،ج3 ص494. ابن حجر: لسان الميزان،ج2 ص493. علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، القاهرة مكتبة النهضة المصرية،ص274.

3/ ابن عبد البر: الاستيعاب ج4ص26. القلقشندي، أحمد بن عبد الله مآثر الانافة في معالم الخلافة تحقيق: عبد الستار أحمد فراج الكويت 1964م، ج1 ص112.

4/ سورة الأحزاب الآية 5 .

5/دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا،الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية:1410هـ /1990م ج7 ص69-70.

6/ ج4 ص26.

7/ م3 القسم الأول من ج2 ص 357 ، تحقيق د:محمد عبد المعيد خان،بيروت دار الكتب العلمية.

8/ المقدمة:بيروت دار الكتاب اللبناني1982،ص335-336

وقد اعترف أبو سفيان "رضي الله عنه" بهذا النسب، وأن زيادا من صلبه وهذا زمن عمر بن الخطاب" رضي الله عنه" وذلك من خلال الحوار الذي دار بينه وبين الإمام عليّ"كرم الله وجهه" وذلك عندما خطب زياد خطبة لم يسمع الناس مثلها آنذاك، فقد روى صاحب الاستيعاب(1):" عن ابن عباس قال: بعث عمر بن الخطاب زيادا في إصلاح فساد وقع في اليمن، فرجع من وجهه وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها، فقال عمرو بن العاص: أما والله لو كان هذا الغلام قرشيا لساق العرب بعصاه فقال أبو سفيان بن حرب: والله إني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال علي بن أبي طالب: ومن هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا، قال: مهلا يا أبا سفيان، فقال أبو سفيان:

أما والله لولا خوف شخص يراني يا علي من الأعادي
لأظهر أمره صخر بن حرب ولم تكن المقالة عن زياد
وقد طالت مجاملتي ثقيفا وتركي فيهم ثمر الفؤاد.

وقد ذكر صاحب الفخري في الآداب السلطانية رواية قريبة من هذه وقعت زمن الخليفة عمر، والحوار الذي جرى بين أبي سفيان وعليّ حينما قال أبو سفيان:" والله إني لأعرف أباه الذي وضعه في رحم أمه، وعنى نفسه، فقال له أمير المؤمنين علي"عليه السلام": يا أبا سفيان اسكت فإنك لتعلم أن عمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريعا"(2).

وقد ذكره ابن النديم في أسماء الخطباء باسم: "زياد بن أبي سفيان "(3)

وسنأتي بشيء من التفصيل في هذا الأمر عند الكلام عن استلحاق معاوية "رضي الله عنه" لزياد وكيف تم ذلك ومتى كان.

.....

1/ لابن عبد البر، ج4 ص28-29.

2/ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص109، 1400هـ/1980م دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

3/ ابن النديم أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق:الفهرست، المطبعة الرحمانية مصر ص 181.

ب- مولده:

أما عن مولد زياد، فقد ولد في السنة الأولى للهجرة (1هـ/620م)ويكون هذا التاريخ شبه مجمع عليه على ما ذكرت المصادر والمراجع(1)، و لم يخالف ذلك على ما اطلعت عليه إلا صاحب الطبقات الكبرى حيث ذكر أن:" زياد بن أبي سفيان ولد بالطائف عام الفتح"(2) ولعله وهم توهمه.

وكذلك ابن عبد البر الذي ذكر العديد من التواريخ في مولده فقال:"واختلف في وقت مولده فقيل: ولد عام الهجرة، وقيل: قبل الهجرة، وقيل: بل ولد يوم بدر"(3)؛ رغم أن ابن عبد البر يذكر في نفس الكتاب الصفحة-34- نقلا عن أبي الحسن المدائني أن زيادا ولد عام التاريخ؛ أي العام الذي بدأ فيه المسلمون يؤرخون من هجرة النبي " ﷺ ".

ولا تكاد المصادر والمراجع التي هي تحت يدي تذكر بداية حياة هذه الشخصية ولا نشأته، ولا كيف تلقى تربيته، ولا حياته العلمية سو ء على مستوى الأسرة أو القبيلة إلا بالشيء القليل.

ورغم أن زيادا ولد عام الهجرة وأدرك النبي"ﷺ" إلا أنه لم يره ولا تعرف له صحبة و لم ينقل في المصادر والمراجع التي كتبت عنه أنه رأى النبي" ﷺ " فهو من نمط مروان ابن الحكم(4) والمختار بن أبي عبيد(5). على ما ذكر ابن حجر(6).

وكان يكنى أبا المغيرة، وقد أسلم في عهد أبي بكر"رضي الله عنه" وهو مراهق، فهو تابعي و لم

.....

1/ ابن الأثير:الكامل في التاريخ،ج3ص220. / الذهبي: تاريخ الإسلام، ج4 ص207-208 ./ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج3ص494 ./ ابن عبد البر: الاستيعاب،ج4ص34./ الذهبي:ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ج2ص86./ ابن حجر:لسان الميزان، ج2 ص493./ ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ،ج9 ص72.

2/ ابن سعد، ج7 ص 70.

3/ ابن عبد البر، ج4 ص27.

4/ مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو عبد الملك القرشي الأموي أبو القاسم ولد بمكة بعد ابن الزبير بأربعة أشهر2 هـ/623م وأمه آمنة بنت علقمة الكنانية ولم يصح له سماع من رسول الله ﷺ لكن له رواية كان كاتب ابن عمه عثمان رضي الله عنه وولي إمرة المدينة والموسم لمعاوية غير مرة وكان يتبع قضاء عمر وصل الجابية ودعا إلى نفسه سنة64 هـ ودخل الشام فأحسن تدبيرها وخرج إلى مصر وصالحوه فولى ابنه عبد الملك وعاد إلى دمشق فلم يطل أمره وتوفي فيها بالطاعون 65هـ/685م. الزركلي: الأعلام، ج7 ص207 بتصرف.

5/ المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق من زعماء الثائرين على بني أمية كان مع علي بالعراق وسكن البصرة بعد علي ثم لفي بشفاعة ابن عمر إلى الطائف وبعد مقتل الحسين دعا إلى محمد بن الحنفية وشاعت في الناس أخبار عنه أنه ادعى النبوة ونزول الوحي ودارت بينه وبين جيش ابن الزبير بقيادة مصعب حروب غير أنه حوصر في قصر الكوفة وقتل ومن كان معه ومدة إمارته ستة عشر شهرا. الزركلي: الأعلام، ج7ص192 بتصرف.

6/لسان الميزان، ج 2 ص493.

يكن يتهم بالكذب على ما ذكر صاحب الإصابة(1)، وقال أحمد بن صالح: "زياد أمير البصرة تابعي و لم يكن يتهم بالكذب"(2).

2. نشأته وعوامل ظهوره:

نشأ زياد وتأدب فبرع، وهو بالطائف في قبيلة ثقيف، ثم هاجر إلى مدينة البصرة عندما أنشأها الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه".

وفي المدينة الجديدة التي هاجر إليها تفتقت قدرات زياد وزادت معارفه، ووجد الجو الملائم للتشبع بالعلوم، وهنا بدأت تظهر بوادر نبوغه، لما آتاه الله من فطنة ووهبه من بديهة ورجاحة عقل، ولما أظهره من تفوق على أقرانه، ولما أبداه من اهتمام بالكتابة والحساب والفقه.

وكان زياد يرى في عمر بن الخطاب" رضي الله عنه " القدوة والمثال المحتذى في زمانه، فقد كان كثير التردد على مجالسه والسماع منه لما كان بالمدينة المنورة.

ولما أوتي زياد من الصفات السابقة وخاصة القراءة والكتابة، وكذا الإخلاص والوفاء والفصاحة والأمانة ما حذا بعتبة بن غزوان (3)، لما ولي البصرة وانحدر معه أصهاره وانحدر معهم زياد، ولما فتحوا الأبلة(4) :"وأصابوا غنائم كثيرة و لم يكن فيهم أحد يحسب ويكتب"(5) و لم يجدوا قاسما يقسم بينهم تلك الغنائم وكان زياد يومها ابن أربع عشرة سنة" وهو غلام في رأسه ذؤابة"(6)، فكان هو قاسمهم، فأجروا عليه راتبا وكان قدره درهمين لكل يوم (7)، قلت ما حذا بعتبة أن يجعله كاتبا له وأن يستعين به في تسيير أمور ولايته.

ولما بلغ زياد سن السادسة عشر، وكانت سنة(16هـ/636م)، وفتح المسلمون

.....

1/ ابن حجر، ج4 ص85.

2/ ابن منظور:مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص81.

3/ عتبة بن غزوان: ذكره ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص74 ؛ وذكره الطبري في: تاريخ الأمم والملوك، ج2 ص442: عتبة بن صفوان. والأصح ما ذكره ابن منظور، حيث يؤكد ذلك ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، ج1ص511 وص513 بأنه: عتبة بن غزوان بن جابر بن وَهيب بن نُسيب أحد بلي مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة حليف بلي نوفل بن عبد مناف وكان من المهاجرين الأولين وقد شهد بدراً.

4/الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة، وهي أقدم من البصرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1ص99.

5/ ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج1ص512 وما بعدها.

6/ المصدر السابق: نفس الجزء والصفحة.

7/ المصدر السابق: نفس الجزء والصفحة.

جلولاء (1) بعث سعد بالأخماس إلى عمر بن الخطاب " ﷺ " وبعث الحساب مع زياد بن أبيه وقد كان زياد هو الذي يكتب للناس ويُدَوّنُهم.

فلما لحق زياد إلى مقر الخلافة وكلّم المسؤول الأول فيها ووصف له ما كان، استحسن ذلك عمر، وآنس فيه فطنة وصفات أخرى لم تكن في أقران زمانه؛ فطلب منه أن يقوم في الناس فيكلمهم بمثل الذي كلمه به، فقال زياد:"والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك؟"(2).

فقام زياد في الناس فخطبهم بما أصاب الفاتحون وما صنعوا وبما هم منشغلون فيه من الإنسياح في البلاد، فبهت الكثير من الحضور من طلاقة لسان هذا الفتى حتى الخليفة نفسه الذي قال:" هذا الخطيب المصقع "،وكان هذا التعقيب تعقيبا مناسبا لخطاب زياد.

وجاء الرد مباشرة مناسبا لتعقيب عمر فقال الفتى:"إن جندنا أطلقوا بالفعال ألسنتنا"(3).

ولم يكن زياد يعلم أن هذه المهمة الإدارية التي قام بها هي مفتاح باب المجد له، وأن الخطبة التي ألقاها في مسجد المدينة على مسمع الصحابة والتابعين، ما كانت إلا الخطوة الأولى التي يخطوها ليتقلد بعدها المهام الجسام في الخلافة الراشدة والخلافة الأموية وليخطب في الرعية خطبا هي أكثر وقعا في النفوس والأسماع منها.

ولما بلغ زياد أشده استكتبه أبو موسى الأشعري "ﷺ" لما ولي البصرة"وذلك في سنة ست عشرة[636م] وقيل في سنة سبع عشرة[637م]"(4)، ولما امتاز به زياد من حسن السياسة ووفور العقل وحسن الضبط لما يتولاه.

فقد ولاه الخليفة عمر"ﷺ" أمر خارجة خرجت باليمن، فقام بهذه المهمة خير قيام وعند عودته، قدم تقرير مهمته للخليفة مخاطبا الحضور بخطبة لم يسمعوا بمثلها وهولا يزال غلاما، مقارنة مع جمع المهاجرين والأنصار الذين حضروا خطبته.

وفي هذا الموقف، كانت حادثة اعتراف أبو سفيان بأبوته لزياد مع علي بن أبي طالب والحوار الذي جرى بينهما، والذي ذكرناه سابقا .

.....

1/ جلولاء: نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا وبها كانت الوقعة المشهورة على الفرس للمسلمين سنة16هـ فاستباحهم المسلمون فسميت جلولاء الوقيعة لما أوقع بهم المسلمون. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2 ص181.

2/ابن الأثير:الكامل في التاريخ، ج2 ص363. / الطبري :تاريخ الأمم والملوك، ج2 ص471.

3/ ابن الأثير:المصدر السابق ج2 ص364. / الطبري: المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

4/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1 ص514.

عاد زياد إلى مقر عمله بالبصرة، وبقي بها لسنوات عدة، وهناك خبر أهلها وتمرس على حل معضلات زمانه.

ولكثرة يقظته ونفوذ بصره حمل الناس على ما ذكر ابن خلدون فوق طاقتهم زمن عمر بن الخطاب" ﷺ" مما دعا بالخليفة أن يعزله عن مهمته فقال له زياد:"لما عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ ألعجز أم لخيانة؟" فقال عمر:" لم أعزلك لواحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس."(1)

فقد شهد أمير المؤمنين لزياد بالألمعية ونفوذ النظر، وعلّق ابن خلدون على ذلك بقوله :"فأُخذَ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان"(2).

والسبب في ذلك يذكره ابن خلدون قائلا:" لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه"(3).

وأثناء خلافة عثمان بن عفان "ﷺ"، حينما ولى الخليفة عبد الله بن عامر(4)، على البصرة "فخرج الوالي غازيا سنة تسع وعشرين[649م] فاستخلف زيادا مكانه"(5).

وهذه الحادثة تبين بأن زيادا وإن تم عزله في خلافة عمر إلا أن الخليفة عثمان واليه على البصرة لم يستغنيا عن خدمات هذا الرجل لما عرفا مؤهلاته وما آتاه الله من الصفات التي سبق ذكرها، فاستغلوه أحسن استغلال.

وبعد هذه السنة يأفل نجم هذه الشخصية التاريخية في كتب التاريخ، فلا يكاد يذكر إلى حين زمن خلافة الإمام عليّ"ﷺ".

فلما تولى الإمام عليّ الخلافة، وكان الذي كان بينه وبين معاوية"رضي الله عنهما" من أخذ ورد في الكلام إلى حين تحكيم السيف بينهم في موقعة الجمل (6)، كان زياد معتزلا

.....

1/ المقدمة، ص 335.

2/نفس المصدر: ص 336.

3/ نفس المصدر والصفحة.

4/ عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي، أبو عبد الرحمن، أمير فاتح ولد بمكة سنة04هـ/625م ولي البصرة زمن عثمان، قام بفتوحات كثيرة وشهد موقعة الجمل مع عائشة ولم يحضر وقعة صفين، ثم ولي البصرة لمعاوية ثلاث سنين ثم صرفه عنها، توفي بمكة ودفن بعرفات سنة 59هـ/679م. الزركلي: الأعلام، ج4 ص94.

5/ ابن خياط، أبو عمرو خليفة: تاريخ خليفة، تحقيق: د/مصطفى نجيب فواز وآخر، الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية 1415هـ/1995م. ص 107

6/كانت وقعة الجمل بالبصرة بالزاوية ناحية طف البصرة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة 36هـ/656م حين سار عليّ من الزاوية وسار طلحة والزبير وعائشة من الفُرْضة. ابن خياط: المصدر السابق، ص110-111 بتصرف.

الأمة و لم يخض فيما خاض الناس، حتى كانت البيعة للإمام علي أين غاب عنـــها و لم يحضرها.

ولمكانته التي عرف بها في دهائه ورجاحة عقله ما حذا بالإمام عليّ أن يبحث عنـــه في الحاضرين فافتقده، فسأل عنه، فقيل له:" أنه يشتكي من وجع أصابه" فلما رأى ما ألمّ بزياد واعتذر منه زياد، قبل عذره واستشاره على من يولي البصرة.

وقد كانت البصرة مركزا حساسا في الدولة، لذلك كانت محط أنظار الولاة والحكـــام فكان زياد خير المعين، فأشار على الخليفة بأن يولي البصرة رجلا من أهل بيته يسكن إليـــه الناس ويطمئنوا إليه وينقادوا له، فكان الخيار على ابن عباس.

فأمّر الخليفة عبد الله بن عباس" ﷺ "على البصرة، و:"ولىّ زيادا الخراج وبيت المـــال والديوان، وأمر ابن عباس أن يسمع منه"(1).

واستكتبه هذا الأخير لما له من الخبرة والعلم بالحساب، وكان ذلك سنة37هـــ/657م.

وفي هذه السنة، ثار أهل فارس على الخلافة فأخرجوا عامل الخليفة سهل بـــن حنيـــف وظاهروا على إخراجه، فما كان لهذه الخارجة وهذه المعضلة إلا زياد، فتوجه إليها؛"ومـــا كان من أهل فارس إلا أن أرضوه وصالحوه وأدّوا الخراج"(2).

وفي السنة الموالية كانت موقعة صفين أين سار عبد الله بن عبـــاس"ﷺ " إلى الكوفـــة لمؤازرة الخليفة، واستخلف أبا الأسود الدؤلي على الصلاة والقضاء، واستخلف زيادا علـــى الخراج وبيت المال.

وفي أثناء هذا الغياب لوالي البصرة، أرسل معاوية" ﷺ " عبد الله بن الحضرمـــي إلى البصرة ليأخذها ويؤلب أهلها ضد الإمام علي "كرم الله وجهه"،فنزل ابن الحضرمي في بـــني تميم، فكتب زياد إلى علي يعلمه ذلك.

فأرسل علي، جارية بن قدامة السعدي، على رأس فرقة أنهت وجود ابن الحضرمي ومن معه، وأخمد زياد ثورة بني تميم.

1/ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص60.

2/ تاريخ خليفة: ص115.

ومن هذه الحادثة تبين للإمام عليّ " ﷺ " إخلاص زياد وتفانيه في خدمته وخدمة الخلافة الإسلامية فأجزل له العطاء حتى أثرى.

ولكثرة المواصفات التي امتاز بها زياد والمؤهلات سواء البدنية منها أو العقلية والتي ذكر منها صاحب الفخري في الآداب السلطانية ما ذكر حينما قال:" وكان زياد أحد الدهاة عظيم السياسة، قوي الهيبة، صحيح العقل، سديدا، شهما، فطنا بليغا"(1) ما أهل زيادا أن يتدرج في المسؤوليات الإدارية والمناصب العليا حتى قيل:"أن ابن عباس قد ترك الولاية لزياد بن أبيه وارتحل إلى مكة ليعيش فيها بعد أن أعياه أصحابه"(2).

وفي أثناء ولايته للبصرة، لمدة قصيرة، وأثناء غياب عاملها عبد الله بن عباس انتفضت فارس من جديد، وتفشى فيها الفساد، وأراد أهلها الخروج على الخليفة والخلافة الإسلامية فما كان للخليفة إلا أن أرسل زيادا "فضبط البلاد وحمى وجبى وأصلح الفساد"(3).

واعتمد زياد في ذلك مبدأ الشورى، فكان أن أشرك سادة القبائل فيما يتخذه من قرارات؛ فمدوا له يد العون في التخلص من المشاغبين، فقام بمهمته خير قيام ودون قتال وألزم أهلها الطاعة والنظام، وصغت له فارس من غير حرب، وحتى قال الفرس:"ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة"(4).

توفي الخليفة علي" ﷺ" وزياد بقلاع فارس، فاحتمى بإحداها في مدينة إصطخر(5) ثم كان الذي كان بينه وبين معاوية " ﷺ " من تبادل الرسائل ومن تبادل الاتهامات وردها، وكذا تبادل الوسائط بينهما، فلما كان الوئام والتأم الرأب وتصالحا، ألحقه معاوية بنسبه وولاه البصرة، ثم ضم إليه أقاليم سجستان(6) والهند والبحرين وعمان، ثم بعد ذلك ضم إليه الكوفة بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة فأصبح بذلك زياد حاكم القسم الشرقي

.....

1/ ابن طباطبا: ص 111.

2/ محمود شاكر:التاريخ الإسلامي،الطبعة التاسعة بيروت المكتب الإسلامي 1411هـ/1991م، ج3 ص279

3/ الاستيعاب :ج4 ص29.

4/ حسن أحمد أمين: المائة الأعظم في الإسلام الطبعة الأولى القاهرة مكتبة مدبولي 1411ه/1991م، ص28

5/ إصطخر: بلدة بفارس من الإقليم الثالث وهي من أعيان حصون فارس ومدنها. ياقوت الحموي:معجم البلدان، ج1ص249.

6/ سجستان: وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة واسم مدينتها زرنج، وبينها وبين هراة عشرة أيام ثمانون فرسخا، وهي جلوبي هراة وأرضها كلها رملة سبخة. ياقوت الحموي:معجم البلدان: ج3 ص214.

لأرض الخلافة الإسلامية، وهو أول من جمع في ولايته حكم العـــراق كلـــه(البصـــرة والكوفة) سنة ثمان وأربعين[668م]، و لم تجمع من قبل لغيره.

وكان زياد بمثابة الوزير لمعاوية " ﷺ" حتى ولو لم يلقب بذلك، فقد كان نعم المساعد لمعاوية على نوائب الدهر وشدائده.

3.وفاة زياد:

وبقي زياد ما بين البصرة والكوفة حتى توفي سنة ثلاث وخمسين[673م] بالكوفة، وقـــد قيل في وفاته الشيء الكثير، واختلفت في ذلك الروايات؛ فمنهم من ذكـــر أنـــه مـــات بالطاعون لما دعا عليه عبد الله بن عمر"رضي الله عنهما" والحسن البصري كذلك.

فالأول دعا عليه لما علم أن زيادا كتب إلى معاوية يطلب منه أن يضم إليه ولاية الحجاز مع العراق؛ و"الثاني دعا عليه لما علم أن زيادا يتتبع شيعة علي بالبصرة ويقتلـــهم بعـــد أن يطلب منهم البراءة من علي"(1).

وقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة:"أن زيادا مات بالطاعون الخامس الذي اجتاح الدولة الإسلامية"(2).

ومنهم من أرجع سبب موته إلى خروج دملة في يده كانت سبباً في هلاكه بعد أن أجريت له عملية بتر اليد (3).

أما صاحب مختصر تاريخ دمشق(4)، فيرد سبب موت زياد إلى:"أن زيادا قدم الكوفـــة فسأل عن أعبد الناس فيها، فقيل له: أبو المغيرة الحميري، فدعاه زياد، ثم أمره أن يلزم بيتـــه لما يتمتع به هذا العابد من نفوذ على القلوب، ولما له من أثر على العقول والنفوس حـــتى أن أهل الكوفة لأمره طائعين؛ وخوفا من التمرد والعصيان أمره زياد بذلك.

غير أن أبا المغيرة لم يلتزم بالأوامر التي أصدرها زياد وحاج زيادا في مجلســـه، فكـــان سيف زياد أسرع إليه من حلمه.

.....

1/ الذهبي:تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج4 ص210/209 .وسير أعلام النبلاء، ج3 ص496.

2/ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي تحقيق د/إبراهيم علي طر خان، القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج1 ص183

3/ ZOTENBERG HERMAN. Les Ommayades, PARIS. Editions 1983. P25

4/ ابن منظور، ج9 ص90 بتصرف.

ولكم عانى زياد بعد هذه الحادثة -كما جاء ذلك في الروايات- حتى وهو في ساعة الاحتضار قيل له: أبشر، فقال: كيف وأبو المغيرة بالطريق؟ فلم يلبث زياد بعدها إلا قليلا ثم مات.

وتبقى هذه مجموعة أراء وتخمينات جمعها لنا العلماء والمؤرخون من باب الأمانة وتبليغ العلم، غير أنه إذا نزل القضاء عجز الدواء وأعيت الأطباء الأدواء، فقد تعددت الأسباب في موت زياد ولكن موته كان واحدا.

توفي زياد بن أبيه يوم الثلاثاء في الرابع من رمضان سنة ثلاث وخمسين (23أوت673م) (1) في خلافة معاوية وهو أمير لشرق الدولة الإسلامية فتفجعت لموته الأمة وعلى رأسها الخليفة، لأنه فقد أخا له من جهة وواليا مخلصا من جهة ثانية،حتى أن موته فجر قريحة الشعراء، فأرثوه،حتى قال مسكين الدارمي:

رأيت زيادة الإسلام ولت جهارا حين ودعنا زياد(2).

وسيأتي الكثير من التفصيل عن حياة زياد والمواقف التي كانت له في حياته، والمناقب التي اتصف بها وحسبت له، كما كانت له مثالب أوخذ عليها وحسبت عليه كأخطاء في حياته الشخصية والعملية سجلها عليه التاريخ، في المباحث القادمة والتي سوف تتناول، قدر المستطاع، جميع جوانب هذه الشخصية التاريخية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1/ د/ عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، الطبعة السابعة بيروت، دار العلم للملايين،1986م، ص129.

2/ النجوم الزاهرة: ج 1 ص 144.

الفصل الأول:

﴿زيـــــاد بن أبيـــــــه﴾

المبحث الثاني:

* علاقة زياد بالسلطة المركزية*

1. مقدمة.
2. علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عمر.
3. علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عثمان.
4. علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عليّ.
5. علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة معاوية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1. مقدمة:

في هذا المبحث أحاول الإلمام قدر المستطاع وحسب المادة العلمية المتوفـــرة لـــدي إيضاح العلاقة التي كانت تربط زيادا بالسلطة وكيفية تعامله مع الخلفاء ورجال الدولـــة ومؤسساتها.

وللحديث عنه وعن كيفية وصوله إلى السلطة ومدى تعامله معها ومـــع الخلفـــاء ورجال السلطة المساعدين في تسيير دواليب الحكم وجب الحديث عن بداية هذه العلاقة.

بدأ اتصال زياد بالخلافة مبكرا، كما روت ذلك كتب التاريخ. فقد تم ذلك وهـــو في السنة الرابعة عشر من عمره، أين قسم الغنائم بين أهله وعشيرته بأمر من والي البصـــرة عتبة بن غزوان لأنه كان يحسن الكتابة والحساب(1). ثم ما فتئ يتدرج ويعتلي المنـــاصب حتى أصبح أميرا لشرق الدولة الإسلامية في عهد معاوية "رضي الله عنه" بعد أن عمل في خلافة عمر بن الخطاب"رضي الله عنه" حاسباً ومستشاراً وكاتباً لعمال الخليفة وفي خلافة عثمان بـــن عفـــان "رضي الله عنه" حاسباً ونائباً لعامل الخليفة ثم في خلافة علي بن أبي طالب"رضي الله عنه" مستشاراً للخليفـــة وعاملاً له على الأقاليم الشرقية وأخيرا في خلافة معاوية بن أبي سفيان "رضي الله عنه" أين أصبـــح والياً ومستشاراً للخليفة.

عاش زياد في خلافة كل هؤلاء الخلفاء وعاشرهم سواء بالشيء القليل أو بالشـــيء الكثير في اتصالاته أو في معاملاته، غير أنه كان أكثر اتصالا وأكثر ظهورا زمـــن الخليفـــة معاوية بن أبي سفيان "رضي الله عنه" وخاصة بعد أخذ زياد عهد الأمان من الخليفة ثم جاءت بعدها حادثة استلحاقه بالنسب السفياني حيث أصبح من الأسرة الحاكمة وأخاً للخليفة واصبـــح زياد بمثابة الوزير والمستشار حتى ولو لم يلقب بذلك.(2) وذلك من خلال ثناء معاوية على الخط الراشد للسياسة العامة التي انتهجها زياد وارتياحه له كشخص.(3)

.....

1/ ينظر ص 27 من المبحث الأول.

2/ Z.HERMAN.COP.CIT P19.

3/ Z.HERMAN.COP.CIT P23.

ومن خلال قراءة وفحص الروايات التي وصلت إلينا حول زياد في معاملاته مع الخلافة ومؤسساتها والمشرفين على هذه المؤسسات، نجد أن زيادا كان مؤهلا بممتلكاته الفطرية التي زود بها، وكذلك بما اكتسبه من تجربة أثناء احتكاكه بأجهزة السلطة وإداراتها ورجالها مما ساعده على أداء واجبه اتجاه الخلافة واتجاه رعيته خير أداء وعلى أحسن وجه.

2.علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عمر رضي الله عنه:

فنجد زيادا جنديا مطيعا سامعا ومتبعا للأوامر وهو في مرحلة الشباب، ملبيا للواجب متى دعاه ذلك.

فبعد تأديته لمهمته التي كلف بها في سن السادسة عشر من عمره وهي تبليغ حساب أخماس جلولاء إلى مركز الخلافة بالمدينة وما كان له فيها بعد ذلك من حديث بينه وبين الخليفة عمر، رأى فيه عمر علامات النبوغ ومؤهلات ليست في أقرانه، فعينه كاتبا لأبي موسى الأشعري والي البصرة.

فكان زياد نعم المعين لأبي موسى الأشعري "رضي الله عنه"، فزاده ذلك إكبارا عند الخليفة فعينه على بعض صدقات البصرة وبعض أعمالها.(1)

و لم يتهم زياد وهو يؤدي مهامه لا بالكذب ولا بالخيانة ولا بالاختلاس إلى أن اشتكى أحد الرعية الخليفة، وهو ضبة بن محصن(2)، حين وشى بأبي موسى وبزياد وقد اتهم زيادا بعدم الدراية وبعدم معرفته لما يلي، فما كان من الخليفة إلا أن استدعى واليه واستقصى الأمر معه، فرد أبو موسى الأشعري جميع الشبهات التي نسبت له ولزياد وقال عن زياد:" وجدت له نبلا ورأيا فأسندت إليه عملي"(3).

.....

1/ الاستيعاب: ج4 ص27.

2/ ضبة بن محصن رجل من عنزة كانت بينه وبين أبي موسى رضي الله عنه مشاحنة حيث أنه لما فتح المسلمون أصبهان وفد أبو موسى وفدا إلى عمر. فقال ضبة اكتبني مع الوفد فقال قد كتبنا من هو أحق منك فانطلق مغاضبا مراغما وكتب أبو موسى إلى عمر أن رجلا من عنزة يقال له ضبة بن محصن كان من أمره وقص عليه قصته. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص72-73 بتصرف.

3/ مختصر تاريخ دمشق: ج9 ص73.

فرد عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" واليه وأمره أن يرسل إليه بزياد، فلما قدم زياد أوقفه عمر بالباب.

خرج عمر، وزياد بالباب قائم، فاستجوبه وسأله –من كثرة محاسبته لعماله وولاتـــه– حتى عن الثياب التي كان يرتديها وكانت من الكتان .

فأجاب زياد الخليفة عن كل ذلك، فاستحسن ذلك عمر وصدّقه فيما قال، ثم سـألله عن الفرائض والسنن والقرآن، فوجده فقيها فرده وأمر أمراء البصرة أن يسيروا برأيه(1).

وكان هذا أول محك تجربة وأول فتنة يتعرض لها زياد في حياته العملية و لم يـــدر أن القدر قد خبأ له الكثير من هذه الأحداث والفتن فيما هو آت.

ثم خرجت في اليمن خارجة زمن عمر، وهي محاولة بعض القبائل شق عصا جماعـــة المسلمين ووحدتهم، فبعث عمر زيادا من قبله، فرتق زياد فتق هذه الخارجة، وردهـــم إلى الطاعة " وانصرف محمودا عند أصحابه مشكورا عند أهل الناحية"(2).

ورجع زياد إلى عمله كمساعد وكاتب لأبي موسى الأشعري، بين أهله وعشـــيرته وما هي إلا أيام حتى عرضت على زياد فتنة هي أكبر من أختها التي عرضت عليه ســـابقا فقد روت كتب التاريخ أنه كان بين أبي بكرة – أخ زياد لأمه – وبين المغيرة بن شعبة(3) منافرة، وكانا متجاورين بينهما طريق، فكان أن اتهم أبو بكرة ونفر معه المغيرة بأنه ارتكب فاحشة الزنا وشهدوا عليه بذلك (4)، ومن بين الشهود زياد، فلما أحضرهم عمـــر بـــن الخطاب "رضي الله عنه" في مجلس الشهادة وجمع بينهم جميعا، فشهـــد أبو بكـــــرة

.....

1 / مختصر تاريخ دمشق: ج9 ص 73 .

2 / نفس المصدر والجزء والصفحة.

3 / المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أبو عبد الله، أحد دهاة العرب، وهو صحابي يقال له 'مغيرة الرأي' ولد في الطائف نحو 20ق.هـ/603م، أسلم سنة 5هـ، وشهد العديد من الوقائع والفتوحات وعمل واليا للكوفة زمن عمر بن الخطاب وكذا زمن عثمان ومعاوية، فلم يزل فيها إلى أن مات سنة50هـ/670م.الزركلي: الأعلام، ج7ص277

4/ ينظر الرواية في: تاريخ الأمم والملوك: ج2 ص493-494. الكامل في التاريخ، ج2 ص378-379 الاستيعاب، ج4 ص 27.

ونافع بن كلدة(1)، وشبل بن معبد البجلي(2)، لكن زيادا لم يقطع الشهادة وقطعوها هم، و لم يشهد بمثل شهادتهم، فسقط الحد عن المغيرة، فأمر الخليفة بجلد الثلاثة حد القذف وقرأ قوله تعالى:" لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون" (3).

وكانت لهذه الحادثة الأثر الكبير في مسيرة حياة زياد، لأنها وضعت حدا لنشاطه المهني في الخلافة الراشدة على عهد عمر، إذ عزله الخليفة عن مهامه، وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن زيادا تأثر بهذا العزل المبكر أيما تأثر وطلب من الخليفة أن يوضح للناس أنه ما عزله لعدم كفاءته أو لعدم درايته، فقد روى صاحب الاستيعاب قول زياد:"يا أمير المؤمنين، أخبر الناس أنك لم تعزلني لخزية"(4).

وقد روي أن عمر هو الذي قال لزياد :" ما عزلتك لخزية، ولكني كرهت أن أحمل الناس فضل عقلك "(5).

فيتبين من هذه الحادثة الاحترام الكبير المتبادل بين الخليفة وعماله على الأمصار وكذا الثقة التامة والمطلقة من الخليفة في شخص زياد، لأنه – أي الخليفة عمر وما أدراك ما عمر – يعرف الرجال ويعرف مميزاتهم، وقد سبق وأن خبر زيادا في أحماس جلولاء وكذا في خارجة اليمن ومدح أبي موسى الأشعري له عند عمر بعد وشاية ضبة بن محصن ،زد على ذلك أن المغيرة قال لعمر حين لم يشهد زياد بمثل ما شهد به الآخرون:" اشفني من الأعبد "(6)، فقال له عمر:" اسكت أسكت الله نأمتك، أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك"(7).

.....

1 / نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي، أول من ابتنى دارا واقتنى الخيل بالبصرة، كان من رقيق أهل الطائف أمه مولاة للحارث، أسلم مع وفد أهل الطائف، وشهد الحروب. للزركلي:الأعلام، ج7 ص352.

2 / شبل بن معبد البجلي: صحابي، ذكره ابن عيينة في روايته لحديث الأمة:" إذا زنت ولم تحصن..." الاستيعاب، ج2 ص250.

3 / سورة النور، الآية 13.

4 / الاستيعاب، ج2 ص 27.

5 / نفس المصدر والجزء والصفحة.

6 / تاريخ الأمم والملوك، ج2 ص494.

/ الكامل، ج2 ص 379.

3.علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عثمان رضي الله عنه:

وتنقضي خلافة عمر، ويتولى عثمان بن عفان "رضي الله عنه" أمر المسلمين ويعود زياد على مسرح الأحداث من جديد ككاتب ونائب لأبي موسى الأشعري، "بعد أن أقر الخليفة أبا موسى الأشعري على البصرة أربع سنين"(1)، ولا يكاد يوجد لزياد ولا للاتصالات بينه وبين الخليفة ومركز الخلافة ذكر؛ رغم أن خلافة عثمان دامت اثني عشرة سنة، وما تذكره كتب التاريخ:" هو استخلافه لأبي موسى الأشعري للبصرة عند خروجه للغزو فقط"(2).

إلا أننا نلمس دوام العلاقة الطيبة والثقة المتبادلة والمطلقة بين زياد ووالي البصرة وكذا رضا الخليفة عن عماله وولاته لما يؤدون من خدمات؛ فلو لم يكن الحال كذلك لمستهم رياح التغيير، ونحن نعلم التغييرات الكبيرة والكثيرة التي أحدثها الخليفة عثمان في سلك العمال والولاة في خلافته.

وتنقضي الأيام، وتزداد معها صلابة عود زياد في التمرس على السياسة والتسيير وبانقضاء خلافة عثمان، يسوق القدر الخلافة لعليّ بن أبي طالب"رضي الله عنه".

4.علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عليّ رضي الله عنه:

وفي مرحلة خلافته تزداد الفتن لأن بابها – أي الفتن –قد فتح على مصراعيه بقتل الخليفة عثمان على يد الثائرين، وانشقاق عصا وحدة المسلمين، وظهور الأحزاب والطوائف خاصة بعد موقعة الجمل، فمن الناس من انحاز إلى صف الإمام عليّ وبايعه بالخلافة، ومنهم من خرج عن طاعته و لم يبايع.

وتروي كتب التاريخ أن زيادا كان يوم البيعة غائبا بسبب المرض وافتقده الإمام عليّ من الجمع الحاضر المبايع، ولمكانته الكبيرة سأل عنه، فلما علم بمرضه زاره في بيته ووجده يشكو من ألم أصابه، فصدقه وقبل منه عذره واستشاره في أمر البصرة ومن يوليها،

.....

1 / تاريخ خليفة: ص 106.

2 / نفس المصدر والصفحة.

فكان زياد نعم المشير والمعين، فأشار بابن عباس .

فلما برئ زياد مما كان فيه ألحقه الخليفة بابن عباس، ولما أشخص ابن عباس استخلف زيادا (1)، وكان ذلك بسبب التحاق ابن عباس بالإمام عليّ بالكوفة.

وفي أثناء هذا الغياب قدم ابن الحضرمي من قبل معاوية"رضي الله عنه"فنزل في بني تميـــم(2) وقد أبلى زياد خير بلاء في هذه الحادثة، بحيث استشار الخليفة عليّ في كل خطواته وتحركاته، وقضى زياد على ابن الحضرمي ومن معه، فأقره الخليفة على كل ما فعـــل وأيده "وكتب إليه كتابا يصوّب رأيه فيما صنع "(3).

وبمثل هذه المواقف والأحداث تعرف مقدرة الرجال ومدى ولائـــهم وطاعتـــهم وقد أثبت زياد ذلك وأثبت أنه الجندي المطيع لقائده والوالي الوفيّ لخليفته؛ و بمثل هـــذه المواقف والأحداث تزداد روابط الثقة وتتفتح آفاق المستقبل وتعطي لصاحبـــها المنزلـــة والحظوة التي تليق به وتؤهله لما هو أهل له.

وقد قيل في المثل زمانا: مصائب قوم عند قوم فوائد؛ فقد استغل أهل كرمـــان(4) وفارس مصيبة وخارجة ابن الحضرمي، وأرادوا كسر الخراج وأخرجوا عامل الخليفة.

فاستشار الإمام عليّ رضي الله عنه جارية بن قدامى(5) في أمر من يولي أمر فارس وكرمان وكان ذلك سنة 39هـــ[659م] ، فأشار عليه بزياد، وقال جارية في وصف زياد:"ألا أدلّك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأي عالم بالسياسة كاف لما ولي" (6)، وقد روى الإمـــام

---

1 / تاريخ خليفة: ص 122

2 / تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص136 .

3 / المصدر السابق: ج 3 ص 137.

4 / كرمان: وهي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي والضرع. ياقوت الحموي:معجم البلدان، ج4 ص 515 وما بعدها.

5 / جارية بن قدامى التميمي السعدي، يكنى أبا عمرو، روى عنه أهل المدينة وأهل البصرة وكان من أصحاب عليّ في حروبه ابن عبد البر:الاستيعاب، ج1 ص299.

6 /الكامل في التاريخ، ج3 ص192. تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص 151.

الطبري أن من أشار على الخليفة علي ليس جارية بن قدامى، وإنما هو عبد الله بن عباس، روى ذلك عن الشعبي(1).

وليس المهم هنا من أشار، بل الأهم من ذلك أن زيادا حظي بالمنزلة التي أهلته لأن يكون الرجل المناسب لإطفاء نار الفتنة و لم شمل المسلمين وأن يقع عليه اختيار الخليفة ومساعديه وأن يظفر بثقتهم.

ومثل هذه الحادثة قد بينت مدى العلاقة الطيبة بين الخليفة وزياد والثقة التي وضعها الخليفة فيه، وما كان زياد ليبلغ ذلك، لو لم يكن أهلا لهذه الثقة من جهة ومن جهة ثانية لو لم يتفانى في خدمة مبادئه التي كان يؤمن بها، وهي أن وحدة المسلمين فريضة وواجب يجب تقديسه واحترامه، وأن الخليفة علي ﷺ خليفة للمسلمين واجبة طاعته، وكل من يخالف هذين المبدأين وجب رده إلى صف المسلمين بالحسنى أو ردعه بما يليق به وحسب ما تقتضيه الظروف.

فأبلى زياد بلاء حسنا، وكان بهذه المهمة حقيقا، فقد أطفأ نارا كانت تضطرم وأغلق بابا للفتنة قد فتح على جبهة المشرق كادت تعصف بالأمة، وسار في أهل فارس وكرمان خير سيرة، وهو الذي عرف عنه الدهاء والذكاء والمداراة، حتى قال أهل المنطقة :"ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي"(2).

واشتهر أمر زياد بما أبداه من كفاءة وضبط وحماية، وللمقام المحمود والمرضي الذي قام به في أهل المناطق التي كلف بردها إلى الطاعة، حتى ذاع صيته، واتصل الخبر بمعاوية فساءه ذلك :" وساءه أن يكون من أصحاب علي عليه السلام مثل زياد"(3) .

فخاف الإمام علي ﷺ من أن يستميل معاوية زيادا إلى صفه بدهائه، فكتب إليه كتابا يحذره فيه من معاوية ومن مكائده ووصف له معاوية بأنه:"يأتي الإنسان من بين يديه

1 / تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص151.

2 / المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

3 / الفخري، ص109.

ومن خلفه، ومن عن يمينه ومن عن شماله، فأحذر ثم أحذر والسلام"(1). والإمام عليّ ﷺ لا يزال يذكر الحديث الذي دار بينه وبين أبي سفيان ﷺ في أمر زياد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ والذي سبق ذكره في صفحات سابقة.

وللواحد أن يسأل، هل كان تحذير الإمام عليّ ﷺ لزياد من معاوية ﷺ من باب الشرع الذي يستوجب النصح أو من باب المحافظة على وحدة المسلمين وعدم تفريقهم، أم من باب أنه الخليفة الآمر والمحذر لواليه وعامله للحفاظ على مناطق الخلافة التابعة له.

فالراجح أن كل هذه الأسباب كانت تدور في خلد الإمام عليّ وكانت مجتمعة في ذهنه وقد سبق لمعاوية وأن راسل زيادا يمدحه ويمنيه ويعده، ويذكّره بأصله ويعرّض له بأنه من صلب أبي سفيان في كتاب طويل، وختم كتابه هذا بألطاف من الشعر (البسيط):

1 - لله در زياد أيّما رجل ... لو كان يعلم ما يأتي وما يذر

2- تنسى أباك وقد خفّت نعامته ... غذ يخطب الناس والوالي لنا عمر

3 - فافخر بوالدك الأدنى ووالدنا ... إن ابن حرب في قومه خطر

4- إن ابتهارك قوما لا تناسبهم ... إلا بأمك عار ليس يغتفر

5- فاترك ثقيفا إن الله باعدهم ... عن كل فضل به تعلو الورى مضر(2)

ولما لم يستجب زياد لمثل هذه المغريات وأسلوب اللين هذا، انتهج معاوية أسلوبا مغايرا فاعتمد أسلوب الشدة والقوة والتأثير النفسي، فقد تعرض أبناء زياد الأكابر منهم إلى اضطهاد بسر بن أبي أرطأة (3)، عامل معاوية، فحبسهم وأرسل إلى أبيهم يتوعده إن لم يقدم على معاوية بما في يديه من أموال، فإن مصير بنيه القتل؛ فكتب إليه زياد:"لست بارحا من مكاني الذي أنا به حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك، فإن قتلت من في يديك من ولدي فالمصير إلى الله سبحانه ومن ورائنا وورائكم الحساب"(4).

---

1 / مختصر تاريخ دمشق: ج9 ص77 / الفخري، ص110.

2 / مختصر تاريخ دمشق: نفس الجزء والصفحة.

3 / بسر بن أبي أرطأة: أبو عبد الرحمن بسر بن أبي أرطأة العامري القرشي، قائد فتاك من الجبارين، ولد بمكة قبل الهجرة وأسلم صغيرا، روى حديثين، ثم كان من رجال معاوية، أصيب في عقله، مات في دمشق و قيل في المدينة عن نحو تسعين عاما سنة 86هـ/705م. الزركلي:الأعلام، ج2 ص51.

4 / تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص170.

وقد توسط أبو بكرة أخو زياد لأمه عند معاوية لإطلاق سراح أولاد زياد، فكان له ذلك.

ولعل موقف معاوية هذا، قد ساعد في تلطيف الجو في العلاقات بينه وبين زيـــاد لأن زيادا كان رافضا لأي علاقة بينه وبين معاوية، وتوضح ذلك الخطبة التي خطبها زيـــاد في الرد على كتاب معاوية، فقد روى الشعبي قائلا:" كتب معاوية حين قتل علـــيﷺ إلى زياد يتهدده، فقام خطيبا فقال: العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق ورئيـــس الأحزاب كتب إلي يتهددني"(1).

فهذه الخطبة تبين مدى الاهتزاز الموجود في العلاقة، حتى أن زيادا عير معاوية بأمـــه وذكره بما فعلت في غزوة أحد(2)، وبأبيه وما كان له في حربه ضد رسول اللهﷺ يـــوم الأحزاب (3).

5.علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة معاويةﷺ:

وحتى يجنب القدر المؤمنين مقالب الدنيا وفتنها، ساق الخلافة إلى معاوية بعد وفـــاة علي بن أبي طالب وتنازل ابنه الحسن ﷺ عنها، وبقي زياد بفارس واليا متحصنا في قلعـة سميت باسمه.

و لم يهدأ لمعاوية بال، بعد أن خلى له الجو في أمر الخلافة، حتى يستميل زيادا لما يعلم لما لزياد من كفاءة ورجاحة عقل وحسن تدبير لما يلي من أمور.واختلفت في ذلك الروايات فمنهم من ذكر أن زيادا هو الذي بدأ بالاتصال بمعاوية وأرسل من صالح معاوية علـــى ألفي ألف درهم.(4)

ومن الروايات من ذكرت بأن معاوية هو الذي جد في استصفاء مودة زياد واستمالته وترغيبه إلى الانخراط في زمرته، فنشأ بينهما حديث ولادة أبي سفيان واتفقا على

.....

1 / تاريخ الأمم و الملوك،ج3 ص 171.

2 / غزوة أحد : كانت يوم السبت 7شوال من السنة الثالثة من الهجرة بين الرسولﷺ وبين قريش بالقرب من المدينة عند جبل أحد. د/ محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 174/173 باختصار.

3 /غزوة الأحزاب: وتسمى غزوة الخندق، كانت في شوال سنة خمس من الهجرة على ما جزم به ابن إسحاق وعروة بن الزبير وقتادة والبيهقي وجمهور علماء السيرة، وقيل في سنة أربع من الهجرة وقد تفرد به موسى بن عقبة ورواه عنه البخاري وتابعه في ذلك مالك. ينظر: البوطي :المرجع السابق، ص 213.

4 / مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص76.

الاستلحاق(1)، وكان صاحب الوساطة بينهما مصقلة بن هبيرة(2) على ما ذكر ابن منظور (3).

ومن الروايات من ذكرت أن المغيرة بن شعبة هو الذي قام بدور الوساطة بين معاوية وزياد، فكان سفير معاوية ومستودع سره في هذا الأمر، فقد روى الطبري أن المغيرة جدّ واجتهد في تذليل الصعوبات بين الرجلين تارة بالنصح وتارة بالحيلة، حتى أقنع زيادا بأن يلحق حبله بحبل معاوية ويشخص إليه فقال زياد:"أرى ويقضي الله"(4).

وذهب المشرف على الموسوعة العسكرية إلى هذا الرأي وأيده وذكر بأن المغيرة:"سافر إلى اصطخر واجتمع بزياد وأقنعه بالصلح مع معاوية وقبل زياد ذلك والتحق بمعاوية الذي ألحقه بنسبه."(5)

ومن خلال كل هذه الروايات، يتبين أن الراجح من أن معاويةﷺ هو الذي بدأ بالاتصال بزياد، وذلك لخوفه من زياد وقد أورد الطبري الحديث الذي دار بين معاوية والمغيرة مما يبيّن هذا الخوف في قوله:"ذكرت زيادا واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها فلم أنم ليلتي، فأراد المغيرة أن يطأطئ من زياد، فقال: ما زياد هنالك يا أمير المؤمنين؟ فقال معاوية: بئس الوطء العجز، داهية العرب معه الأموال، متحصن بقلاع فارس، يدبر ويتربص الحيل، ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد عليّ الحرب خدعة."(6)

وخوف معاوية له ما يبرره، وقد قدم هو ذاته التبريرات في حديثه، فزياد داهية وله في يده من الأموال الشيء الكثير وأرضه بعيدة من أن يطأها معاوية وجيشه إلا بشق الأنفس، زد على هذا أن زيادا كان واليا للبصرة، وأهل البصرة قلوبهم مع من يستميلهم وقد جربوا زيادا من قبل في حسن سيرته فيهم.

.....

1 / ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية، ص110.

2 / مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني من بكر بن وائل، كان من رجال علي بن أبي طالب ثم تحول إلى معاوية. قام بفتوحات عظيمة بمنطقة طبرستان وفيها قتل نحو سنة 50هـ/670م. الزركلي: الأعلام، ج7 ص 249.

3 / مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص 76

4 / الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج3 ص176 بتصرف

5 / الهيثم الأيوبي: الموسوعة العسكرية، ج3 ص515.

6 / الطبري: نفس الجزء والصفحة.

و لم تصف أجواء العلاقات بين معاوية وزياد الصفاء اللازم والتام إلا سنة" 42هـ" [662م]على الأرجح، لأن معاوية كان دائما في استمالته لزياد يستعمل أسلوب الوعد والوعيد فهو يمني ويوعد بيمينه، ويقهر ويتوعد بشماله.

وهذا الأسلوب الأخير، تعامل به كورقة ضغط حتى على من لهم علاقة أو صلة بزياد مثل ما فعل مع عبد الرحمن بن أبي بكرة الذي ترك عنده عمه زياد أموالا، فأراد معاوية أخذها حتى أنه عذّب عبد الرحمن هذا إلا أنه لم يصل إلى مبتغاه.(1)

وبحلول سنة"42هـ"[662م]، صفا الجو لمعاوية بقدوم زياد من بلاد فارس ومعه حساب الأموال التي جباها وأنفقها هناك، فصدقه معاوية في كل ما أخبره به زياد، وقبض منه ما بقي وقال له :"قد كنت أمين خلفائنا".(2)

ونزل زياد الكوفة بإذن من معاوية، إلا أن معاوية لازالت في نفسه شكوك من زياد والخوف من الثورة عليه، فأمر واليه على الكوفة أن يأخذ زيادا وجماعة أخرى قد سماها له بالحضور في صلاة الجماعة وألاّ يغيبوا عنه طرفة عين.

وتطورت الأحداث لصالح زياد، فقد ألحق معاوية زيادا بنسبه، فأصبح يعرف بزياد ابن أبي سفيان، بعد أن شهد الشهود بذلك، وقد أسالت هذه الحادثة التاريخية الكثير من الحبر، بين منكر وراد لفعلة معاوية، وبين ملتمس للأعذار(3)، ولسنا هنا للبحث عن الحكم الشرعي لهذه الحادثة وتخريجه رغم أهميته، وإنما لما كان لهذه الحادثة من تغييرات وتطورات في حياة زياد أهلته بعد ذلك لأمهات الأمور وعظام الأحداث في الدولة.

فوصية معاوية السابقة لواليه على البصرة لم يكن لها أثر كبير رغم التزام الوالي بها لما كان بين زياد والمغيرة من احترام وتقدير وعلاقات طيبة، بل على العكس من ذلك فقد قدّم المغيرة بن شعبة زيادا لما حضرت الصلاة ليصلي بالناس إلا أن زيادا امتنع. ولعل المغيرة فعل ذلك حيلة منه، وهو الكيس الفطن الداهية، حتى يكسب الحظوة عند

---

1 / ينظر: تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص 175-176.

2 / نفس المصدر: ج3 ص177.

3 / ينظر: الفخري لابن الطقطقا ، ص110-111.

معاوية من جهة، و يقيّد زيادا ويراقبه من دون أن يشعر من جهة ثانية.

ولما اطمأن معاوية لزياد وارتاحت له نفسه، وعلم صدق النية عند زياد، وأنه لن يخونه ولن يقلب عليه الأحداث، وأنه أمين لما يستأمن أسند إليه حكم الكوفة 50هـ[670م]، وكان حكمه في الكوفة سببا في إحداث وإنشاء ديوان الخاتم بدار الخلافة.(1)

وللعلاقة الطيبة هذه، التي تأسست أصلا على أخوة الدين ثم متنتها أخوة الرحم بين معاوية وزياد، أصبح زياد بمثابة الوزير والمشير حتى وإن لم يلقب بالوزير، فقد حدث وأن استشار معاوية زيادا في أمر من يولي أمر الهند بعد مقتل عامله هناك سنة"48هـ"[668م].

زد على هذا، أن معاوية ترك حرية التصرف لزياد، من باب تمتين العلاقة والثقة شبه المطلقة في شخصه، في أن يعيّن من قبله عمالا للثغور، مثل ما فعل مع غالب بن فضالة الليثي(2)، الذي عينه على خراسان، وكانت له صحبة.(3)

وقد بلغت هذه العلاقة في معاملات زياد مع السلطة ورجالاتها والخليفة أوجها عندما مات المغيرة بن شعبة، وجمع معاوية الكوفة والبصرة لزياد فكان أول من جمع له المصران وكان سيدا لما يلي، وأمره نافذ ويلقى كل التأييد من مركز الخلافة، حتى أن الخليفة أصبح لا يقبل وساطة فيما يقرره زياد ولا يرد ما أمر به، وما أمر قتل حجر بن عدي.(4) ببعيد، إذا ما صحت الروايات.(5)

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، فزياد بلغ إلى درجة أن معاوية لا يسمع من غيره، إذا ما علمنا أن معاوية قد استشار ولاّته ومعاونيه في استخلاف يزيد من بعده وعلى المبايعة له فأيدوه كلهم في ذلك سوى زياد، فقد أشار على معاوية بأن يتريث حتى يستكمل يزيد

---

1 / ينظر: تاريخ الأمم والملوك، ج6 ص184 . الكامل في التاريخ، ج4 ص11.

2 / غالب بن عبد الله بن مسعر الكلبي الليثي، قائد وصحابي من الولاة، شهد فتح مكة والقادسية وولاّه زياد بن أبيه خرسان في زمن معاوية سنة48هـ/668م.الزركلي: الأعلام، ج5 ص114.

3/النجوم الزاهرة: ج 1 ص137.

4/ حجر بن عدي بن جبلة الكندي، وسمي حجر الخير، صحابي شجاع، شهد القادسية، ثم كان من أصحاب عليّ وشهد معه وقعتي الجمل وصفين، قتل في مرج عذراء(من قرى دمشق) مع أصحاب له.الزركلي: الأعلام،ج2 ص169.

5 / دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي و مصادره: د/ محمد ماهر حمادة، ج1 ص39.

ويستجمع جميع شروط الخلافة وقال له:" ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد"(1)، فعلم صدق نصيحة زياد فعمل بها و لم يعقد البيعة ليزيد إلا بعد وفاة زياد وكف يزيد عن كثير مما كان يصنع.

وذكر صاحب الاستيعاب (2)، حادثة أخرى تبين مدى متانة العلاقة بين زياد ومعاوية حين كتب زياد إلى معاوية شفاعته في عبد الرحمن بن الحكم(3)، فقبل معاوية شفاعته فيه ورضي عنه ورده إلى حاله.

وكان زياد شديد القرب من معاوية يشير ويستشير، وكان يدافع عن الخلافة أيما دفاع، ويقلد معاوية في كل ما ذهب إليه ما لم يتعارض والمصلحة العامة للدولة والأمة والمظهر العام للمجتمع الإسلامي، حتى أن معاوية لما اتخذ حراسا يرفعون الحراب بين يديه أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يصلي فيها خوفا من الاغتيال اتخذ زياد في العراق رجالا يمشون بين يديه بالأعمدة أو الحراب.(4)

و لم تتكدر الأجواء بين معاوية وزياد أثناء حكم زياد لشرق الدولة الأموية و لم تهتز العلاقات بينهما إلا مرة أو مرتين، منها على الخصوص لما ساءت العلاقة بين زياد والحسن بن علي، فكان معاوية هو الحكم، فحكم للحسن وشتم زيادا وعيره وأمره أن يتنحى من طريق الحسن وألا يتعرض له، وأن يتركه وشأنه.

ففعل زياد وقد ذكرت الحادثة مطولة في مختصر تاريخ دمشق (5)، أما دون ذلك فقد كانت العلاقة والحال كما سبق ذكره .

.....

1/ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي،ج4 ص125 . د/حسن إبراهيم حسن:تاريخ الإسلام،ج1 ص230 . د/ أحمد شلبي:الدولة الأموية، ص47.

2/ ابن عبد البر، ج4 ص34.

3/ عبد الرحمن بن الحكم: هو عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص الأموي،شاعر محسن توفي نحو 70هـ/690م. الزركلي :الأعلام،ج3 ص305.

4/ د/ علي الخربوطلي :الحضارة العربية الإسلامية،ص 156 بتصرف.

5/ ابن منظور، ج9 ص86-87.

الفصل الأول

﴿زيـــــاد بن أبيـــــــه﴾

المبحث الثالث:

* سياسة زياد الإدارية *

1. مقدمة.
2. سياسة اللين.
3. سياسة الشدة والصرامة.
4. نتائج سياسة الشدة والصرامة:
   - النتائج الإيجابية لسياسة الشدة والصرامة.
   - النتائج السلبية لسياسة الشدة والصرامة.
5. العوامل المساعدة لزياد في تطبيق سياسته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1. مقدمة:

تم في صفحات سابقة تبيان قدوم زياد على معاوية، وما كان بينهما من أخـذ ورد في الحديث حتى طابت نفساهما لبعض، وتم إلحاق زياد بنسب معاوية فأصبح أخا له.

وقد عيّن معاوية زيادا على البصرة بعدما أن ارتحل من الكوفة من عند واليها المغـيرة ابن شعبة، وكان ذلك سنة 45هـ[665م] على ما ذكر ابن الأثير والطبري(1).

وعند مقدمه البصرة وجد زياد حال أهلها قد تغيّرت، وأنهم قد انحرفوا عن جـادة الطريق، وأن شيئا من الفسق والمجون قد خالج نفوسهم، واستشرى فيهم وفشـى حـتى أصبح ظاهرا في جميع أنحاء البصرة .

عندها خطب زياد في مسجدها خطبة سميت في كتب التاريخ بالبتراء لأنه لم يبـدأ فيها بالحمد والتسليم، وقيل انه حمد الله فيها(2)، ضمّنها الخطوط العريضـة لسياسـته الداخلية وبيّن فيها صراحة نواياه، حتى يجدّ المطيعون في طاعتهم وينتهي البـاغون عـن معصيتهم.

وقد ذكرت هذه الخطبة في الكثير من كتب التاريخ والأدب مطولـة متشـابهة في ملامحها العامة وفي أفكارها، وإن اختلفت بعض ألفاظها أو سقط البعض الآخر من متنـها من مصدر لآخر(3) –وقد اعتمدت على ما رواه ابن الأثير في كتابـه الكـامل- وقـد اشتملت هذه الخطبة على الملامح العامة لسياسته في رعيته وفي نفسه نلخصها على النحو التالي:

أ/ التذكير بما هم منشغلون فيه وبيان ما وصلوا إليه بسـبب ابتعـادهم عـن الديـن وابتداعهم فيه، ويتضح ذلك من قوله:" فإن الجهالة الجهلاء" إلى قوله :" كأن لم تسمعوا نبي الله، و لم تقرأوا كتاب الله"(4)

.....

1/ الكامل، ج3 ص 222 . تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص 197 .

2/ الكامل: نفس الجزء والصفحة . تاريخ الأمم والملوك،نفس الجزء والصفحة.

3/ الكامل،ج3 ص222 –223 . تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص 197 –198 . ابن منظور:مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص 78–80 . ابن عبد ربه:العقد الفريد، ج6 ص 149.

4/ الكامل، ج3 ص 222 .

ب/ غلبة جانب الشر في نفوسهم، وأثرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل على الآخرة ونعيمها الدائم والاستعداد لها، وذلك من خلال قوله:" و لم تعلموا ما أعـــدّ الله مـــن الثواب .....في الزمن السرمدي الذي لا يزول"(1)

ج/ بيان تفشي ظاهرة الفسق وظهورها من خلال المواخير وبيوت الفساد المنصوبة ممـــا أدى إلى عدم الاستقرار في المجتمع وما شجع على ظهور الاعتداءات على حرمـــات الله وحرمات الناس في وضح النهار، في قوله:" ألا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر"(2).

د/ تذكيرهم بموت شعيرة تعبدية كبرى في نفوسهم، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رغم تأكيد الشارع عليها، في قوله:" هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عـــن دلج الليـــل وغـــارة النهار"(3)

ن/ انقلاب الموازين في المجتمع، سواء ما تعلق بحق الله أو بحق العباد، والاحتكام في كل ذلك إلى الهوى وشهوات النفس واتباع حكم السفهاء، ويتبيّن ذلك من قوله:" قربتـــم القرابة" إلى قوله:" في مكانس الريب"(4)

هـــ/ بيان السياسة الصالحة لمرحلتهم هذه والمصلحة لشؤونهم، وهي ردهم إلى سياسة أسلافهم وطريقتهم المثلى، والمتمثلة في سياسة اللين في غير ضعف والشدة في غير عنـــف من خلال قوله:" إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح " إلى قوله:" لين في غـــير ضعـــف وشدة في غير جبرية وعنف"(5)

و/ التأكيد على العودة إلى الطاعة ونبذ الخلاف، وهو في ذلك لا يألو جهدا في إنـــزال العقوبة على الفاعل، وقد حدّد لكل جرم عقوبة ولكل ذنب قصاصا، وحذرهم من

.....

1/ ابن الأثير :الكامل ، ج 3 ص222 .

2/ نفس المصدر والجزء والصفحة .

3/ نفس المصدر والجزء والصفحة .

4/ نفس المصدر والجزء والصفحة .

5/ نفس المصدر والجزء والصفحة .

دعوى الجاهلية ويتمثل كل ذلك في قوله من:" إياي ودلج الليل " إلى قوله:"ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا".(1)

ي/ إبانته لمواصفات الحاكم كحاكم والرعية كرعية، وما للحاكم على الرعية من حقوق وما للرعية عليه من واجبات، وماهية العلاقة الحقيقية الرابطة بينهما، فإذا ما التزم كل طرف بما له وبما عليه وأنفذه صلح الراعي وسعدت الرعية وذلك في قوله:"أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة " إلى قوله:"فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي".(2)

فمن خلال هذه القراءة لخطبته وما جاء فيها، والتي اعتمد فيها زياد، في الكثير من مضامنها، على أسلوب التهديد والوعيد، والتي ضمنها أمثلة كثيرة من الشدة والحزم تتبين الأسس والدعائم التي بنا عليها سياسته والأهداف التي يرجو تحقيقها والوصول إليها.

وقد استعمل زياد هذا الأسلوب لمعرفته بأهل المنطقة، وإنذارا لأهل البصرة، وتلميحا لقبائلها؛ هذه الأخيرة التي كان مبدؤها الانحياز إلى أفرادها وتقديم المصلحة القبلية الضيقة على المصلحة العامة للدولة، وحتى يكسر شوكتهم من جانب ثان ويرد ولاءهم للخلافة الإسلامية الممثلة في الحكم الأموي.

ولقد اتسمت سياسة زياد الداخلية بنوعين مختلفين من التسيير الإداري، هذان النوعان هما سياسة اللين، وسياسة الشدة.

وقد كان زياد في ذلك مخير في الأخذ بهذين النوعين حسب ما يراه ملائما لحال الشخص أو الجماعة، وما يضمن للمجتمع ومن ورائه الخلافة بجميع مؤسساتها، الأمن والاستقرار.

وقبل البدء في تبيان هذين النوعين من أساليب السياسة وجب الإقرار بشيء مهم ومهم جدا، وهو أن العرب يومها كانوا قريبي العهد بالجاهلية وبنعراتها، هذه الأخيرة التي بقيت عالقة في نفوس الكثير منهم وبخاصة الذين أسلموا من بعد وفاته ﷺ؛ ثم إن العرب لم يتعودوا على مثل هذه الأساليب في التسيير، وهم الذين ألفوا حياة البداوة وعدم الانصياع إلا لهوى النفس أو نداء القبيلة، فقد كانوا يرون :" أن كل حكم قوي

1/ الكامل في التاريخ : ج3 ص 223.

2/ المصدر السابق: نفس الجزء والصفحة .

هو من قبيل الاستبداد"(1).

2. سياسة اللين:

اتبع زياد في أثناء ولايته للعراق سياسة حكيمة تجلت من خلال قواعد النظام التي اتبعها، والتي كان مقلدا فيها لمن سبقه أو مبتدعا لها، وللظروف التي أملتها عليه أحوال العراق وما جاورها من الأراضي التي كانت تابعة لحكمه .

وقد احتاج أهل العراق إلى نظام خاص أشبه ما يكون بالعرفي، لأن أحوال أهله كانت خاصة ويقول في ذلك الأستاذ الخضري:" هذه قوانين عرفية شديدة رآها لائقة لأهل العراق، وقد أفادت في إصلاح حالهم".(2)

ولقد أبدع زياد في الكثير من أحوال السياسة، ورتب الشيء الكثير منها، وقد كانت من قبل تحكمها علاقات أشبه ما تكون بالفوضوية وغير المتزنة.

فقد أكد غير واحد من المؤرخين أن زيادا قد نظم أحوال الناس في العراق بدء من الكرسي الذي يجلس عليه إلى أبعد نقطة في حدود ما يحكم.

ففي مجلسه قد رتب مراتب الدخول عليه، فكان يأذن للناس على حسب بيوتا تهم وأنسابهم ثم على حسب أعمارهم وأخيرا على حسب التربية والآداب:" فإذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولا لأشرافهم نسبا، إذا تساووا في النسب قدموا أكبرهم سنا، فإذا تساووا في السن قدموا أكثرهم أدبا"(3).

وكان يحضر مجلسه الذي كان يعقده كل مساء الأشراف والنبلاء وسادة القبائل :"وكان زياد جادا في مجالسه فكان لا يداعب أحدا في مجلسه ولا يضحك"(4).لأن المجلس هو مرآة السلطان،فمتى نزعت الهيبة من مجلس السلطان ضاع السلطان كله.

لذلك كان همه الكبير هو استرداد الأمن والاستقرار في المنطقة، وتطلب منه ذلك كثيرا من سعة البال والصبر الطويل.

1/ حسين أحمد أمين: المائة الأعظم في تاريخ الإسلام، ص29.

2/ محمد الخضري بك :محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية،بيروت،دار المعرفة ج2 ص 107-108 .

3/ د/ علي الخربوطلي :الحضارة العربية الإسلامية، ص131.

4/ المرجع السابق ، ص 135.

وقد اهتدى زياد للتخفيف من حالة اللاأمن واللااستقرار إلى أن :" جعل كل شيخ قبيلة مسؤولا عن قبيلته"(1)؛ وهو في ذلك مسؤول عن كل ما يصدر من القبيلة، فإن أحسنت أجزل لها العطاء والثناء، وإن أساءت تحملت تبعات ونتائج ما سببته.

و لم يكتف زياد بهذه الإجراءات، بل زاد عليها إجراءات ميدانية أخرى لتعزيز سلطانه وإحكام قبضته على ما يلي بأن:"اتخذ زياد له حرسا مدربا قوامه أربعة آلاف رجل كانوا له العيون والأرصاد، كما كان منهم الشرطة لحفظ الأمن"(2)

وقد ذكر زياد لأهل البصرة في خطبته البتراء أنه سن لهم سننا جديدة قد لا تروق إعجابهم ولا تنال رضاهم، إلا أنهم مرغمون على اتباعها والاستنان بها فقد حرّم عليهم دلج الليل ومنع التجول بعد صلاة العشاء، ومن خالفه في ذلك تحمل تبعات مخالفته حتى أن بعض الشعراء قد هالهم ذلك وهجوه(3).

وقد حذر زياد من عدم الامتثال للأوامر التي كان يصدرها، والتي كان يتناقلها الحضور في المجلس أو الأعوان للرعية ، وكان أمره نافذ فيهم غير أنه كان حليما إلا لمن جاهر بمعصيته أو وقف سدا أمام إنفاذ أوامره، وكان يعفو عمن زل ثم رجع إلى جادة الصواب ، وهذا كله يبيّن سياسة اللين التي تميّز بها زياد.

وقد لايهتم زياد للأمر ولا يأخذ صاحبه بجريرته إن لم يكن فيه خطر على الأمة أو السياسة العامة للخلافة؛ وما أكثر الأمثلة في ذلك وبخاصة إذا كان الأمر يخص شخصه.

عفا زياد عن عبد الرحمن بن الحكم الشاعر القرشي، والذي هجا زيادا هجاء مرا

ونعلم أن الشعر في ذلك الزمان كان بمثابة أكبر جهاز إعلامي يستعمله العرب لنقل الأخبار للأمصار على الألسنة سواء كان ذلك في المدح أو الذم ؛فلما أتاه عبد الرحمن قال له زياد:" أنت القائل ما قلت؟ فقال عبد الرحمن: وما الذي قلت؟ قال: قلت ما لا

1/ الهيثم الأيوبي :الموسوعة العسكرية، ج3 ص 515.

2/ د/ إبراهيم أحمد العدوي: نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا وفروعه العظمى، ص265.

3/ ينظر: د/ علي الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية،ص 139.

يقال؛ فقال عبد الرحمن: أصلح الله الأمير، إنه لا ذنب لمن أعتب، وإنما الصفح عمن أذنب، ثم أنشأ يقول(في قصيدة طويلة) منها قوله:

زياد من أبي سفيان غصن تهادى ناضرا بين الجنان

أراك أخا و عما وابن عم فما أدري بعين من تراني

فقال له زياد: أراك أحمق، مترفا شاعرا، صنع اللسان يسوغ لـــك ريقـــك ســـاخطا ومسخوطا عليك، ولكنا قد سمعنا شعرك، وقبلنا عذرك".(1)

ومثال ثان، يبين مدى حلم زياد على رعيته، إذا لم يكن في الأمر خطر على المصلحـــة العامة للعباد و البلاد، فهذا نافع بن خالد الطاحي (2)،حبسه زياد وغرّمه لجريرة صدرت منه وكتب في ذلك كتابا، غير أنه لما توسط له أشراف قومه عند زياد من جـــانب، و لم يكن في الأمر الذي ارتكبه ما يخل بالمصلحة العامة للدولة ومؤسساتها وكذا بمصلحة الأمة من جانب آخر:" دعا زياد بالكتاب فمحاه بسواكه وأخرج نافعا".(3)

ويذكر ابن الأثير مثالا آخر يبيّن فيه مدى اتساع دائرة سياسة اللين عند زياد حينمـــا وشى أحد الرعية بأحد أقطاب المعارضة في الكوفة وهو عمرو بن الحمق (4)والذي كـــان يجمع إليه شيعة الإمام عليّ ﷺ فقال له زياد:"قد أبسطت به ولو علمت أن مخّ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج علي"(5)؛ ويذكر الطبري رواية مقاربة لها جاء فيها :" قد أشطت بدمه"(6)؛ أي قد أهلكت صاحبك هذا وهتكت ستره وأفشيت سره مما يوجب عليه العقوبة. وهذه إشارة لطيفة من زياد للرعية وللذين يأتون من بعده وبخاصة

.....

1/ ابن عبد البر:الاستيعاب،ج4 ص33.

2/ نافع بن خالد الطاحي: عامل من عمال زياد ولاه على هراة وباذغيس وبوشنج ثم غضب عليه لفعلته فعزله حيث أن نافع بعث بخوان بازهر مع غلام له وكان قد أخذ أحد قوائم الخوان الذهبية فعزله وحبسه وكتب عليه كتابا بمائة ألف وقيل بثمانمائة ألف فشفع فيه رجال من وجوه الأزد فأطلقه. ابن الأثير: الكامل ج3 ص224 بتصرف.

3/ الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج3 ص200.

4/ عمرو بن الحمق بن كاهل، أو كاهن، الخزاعي الكعبي صحابي سكن الشام ثم الكوفة وشهد مع علي حروبه. رحل إلى مصر ثم الموصل فطلبه معاوية فدخل غارا فلهشته حية فمات سنة50هـ/670م.الزركلي: الأعلام، ج5 ص76-77 بتصرف.

5/ الكامل في التاريخ، ج3 ص229.

6/ تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص209.

إن كانوا حكاما فعليهم أن يتسع حلمهم وحكمهم لجميع رعاياهم على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم.

ولم يكن زياد ليلتجئ إلى سياسة الشدة ولا يأخذ باللين إلا إذا أضطر إلى ذلك اضطرارا أو رأى أن مصلحة الأمة والخلافة قد تتعرض إلى خطر داهم ومحدق بها.

فقد ذكرت كتب التاريخ:" أن زيادا كثيرا ما استطاع في العراق، كما استطاع في فارس أن يقضي على الثورات دون الالتجاء إلى العنف"(1)، لأنه كان صارما في أقواله وأفعاله، فما يعد خيرا إلا أنجزه، ولا شرا إلا أنفذه وهو القائل:"ولا أعاقبكم بذنب حتى أتقدم إليكم فيه، فاتقوا غضب السلطان، فإنه يغضبه ما يغضب الوليد، ويأخذ أخذ الأسد "(2)؛ وهكذا حكم زياد:" الناس بالكلام،لا بالسيف "(3).

والعامل الأساس الذي ساعد زيادا على أدائه لمهامه هو المسجد، والذي اتخذه زياد مقرا لعمله واجتماعاته لأنه قبلة المسلمين عامة، ومنبرا من منابر الشورى أو المعارضة لذوي الرأي خاصة؛ وقد نجح زياد في تدبيره هذا، لأنه ما كان ليصعد المنبر ثم يقرر أمرا ثم يكون كاذبا فيه، وهو القائل:" ألا ولا كذبة أكثر شاهدا عليها من كذبة إمام على منبر"(4)، وفي رواية ابن الأثير:" إن كذبة المنبر مشهودة، فإذا تعلقتم علي بكذبة قلت حلت لكم معصيتي"(5)وقد ذكر الطبري عن الشعبي قوله:"فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة وما وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه" (6).

.....

1/ حسين أحمد أمين: العالة الأعظم في تاريخ الإسلام، ص29.

2/ ابن منظور:مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص82.

3/ حسين أحمد أمين:المرجع السابق، نفس الصفحة.

4/ ابن منظور: المصدر السابق، ج9 ص79.

5/ الكامل في التاريخ، ج3 ص 223.

6/ تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص207.

3. سياسة الشدة والصرامة:

ما فتأت كتب التاريخ، وهي تدون لحكم زياد في البصرة وما جاورها من الأقاليم تذكر أن معاوية ﷺ قد ارتاح باله، وتوطدت أركان ملكه، واستتب الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد، والسكينة في قلوب العباد، وذلك لما أبداه زياد من الشدة والقسوة في معالجته للأمور ومعاملته للخارجين على الحكم.

وتذكر بخاصة يد الحديد التي سلّطها زياد على الخوارج، الذين زعزعوا أركان الدولة وأمنها، وألقوا في نفوس الرعية الرعب واللاطمأنينة بما أبدوه من شجاعة وصبر في الدفاع عن مبادئهم وعن معتقداتهم وقادتهم الرجال منهم و النساء على السواء.

وقد ذكرت بعض الروايات أن زيادا قد صدَّر هذه السياسة،سياسة الشدة والقسوة إلى المناطق المجاورة فقد:" استطاع بذلك [زياد] أن يضرب على أيدي هؤلاء الخوارج الذين أخذهم بالشدة وأوقع الرعب في قلوبهم فانقادوا له، وحذا حذوه المغيرة في الكوفة"(1)؛ وبذلك ضعفت شوكة الخوارج في هذه المناطق مدة حكمه.

والسؤال الذي يطرح نفسه، في مثل هذه المواقف، هل كان مبدأ زياد في التسيير لسياسته الداخلية يقوم على القسوة والشدة كمبدأ وحيد؟ وقد مرّ بنا كيف اتسع صدر زياد للكثير من المواقف، واستعمل فيها اللين وكيف حكّم العقل والمنطق قبل السيف.أم أن هذه السياسة قد أملتها عليه ظروف خاصة تتعلق بنفسية أهل العراق وأحوالهم العامة و طبائعهم؟ وكتب التاريخ تدون أن زيادا قد:" ألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرّد السيف".(2)

يتضح من خلال المادة العلمية المتوفرة في هذا الباب – إلى حد كتابة هذا المبحث – أن زيادا كان مخلصا للدولة الحاكمة وللنظام القائم إلى أبعد حدود الإخلاص، فكان لا يرى وجوده وكيانه إلا من خلال وجود الحكم الأموي والخلافة القائمة، زد على هذا أن

1/ د.حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ، ج1 ص311.

2/ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص 198.

مصلحة المجتمع ومن ورائها مصلحة الدولة تقوم عنده في المقام الأول ولا يجوز بأي حال من الأحوال التشكيك في هذه المبادئ أو التلاعب بها أو المساس بها أو الاقتراب منها.

بالإضافة إلى القوانين التي فرضها وسنها، فقد أوجب على الجميع تطبيقها وإنفاذها حتى ولو كانت على إذلال؛ لذا فكل من سولت له نفسه عدم الانقياد والانصياع إلى كل هذا، فقد وجبت عقوبته وحل في بعض الأحيان إهراق دمه.

ففي البصرة قتل زياد سهم بن غالب(1)، وسبب قتله أنه:" خرج في أول الأمر على معاوية "(2)، وبخروجه هذا قد خرق بندا من بنود منظومة الحكم – إن جاز التعبير- المعتمدة عند زياد؛ ولذا وجبت عقوبته. إلا أن بعض المؤرخين والرواة قد شككوا في مقتل سهم بن غالب وجعلوه أمرا مستبعدا في عهد زياد، وإنما كان ذلك في عهد ابنه عبيد الله، ومنهم الزركلي الذي حدد سنة 54هـ/674م، سنة للوفاة ولعله وهم توهمه لأن معاوية عهد بالولاية لعبيد الله سنة 55هـ/675م.

وقد طبق زياد نفس العقوبة على أوفى بن حصن (3):" وكان أول قتيل قتله زياد بالكوفة "(4)، لأن زيادا طلبه للتحقيق في أمر قد بلغه عنه فهرب، فلما تمكن منه استجوبه، فأغلظ أوفى هذا القول لزياد من جانب قائلا:" خبطتها عشواء"(5) مع جرم الهرب من جانب ثان، فكان العقاب من جنس العمل على ما هو في اعتقاد زياد.

واتضح أسلوب الشدة في سياسة زياد الداخلية في إنفاذ الأوامر التي يصدرها من جهة ومتابعة المخالفين لهذه الأوامر من جهة ثانية والخارجين عن طاعة الدولة من جهة ثالثة.

فتذكر كتب التاريخ، أن زيادا كان شديدا في مراقبة عماله ومحاسبتهم، لذا فإنهم كانوا ملزمين بأداء واجبهم على أحسن وجه. فهذا صاحب شرطته على ما جاء في رواية

1/ سهم بن غالب الهجيمي، من زعماء الثائرين على معاوية ، خرج سنة41 هـ بالبصرة طلبه زياد فتوارى ومازال كذلك حتى قبض عليه عبيد الله بن زياد فصلبه في البصرة عام 54هـ/674م .االزركلي: الأعلام ،ج 3 ص144.

2/ اتغري بردي : النجوم الزاهرة، ج1 ص130.

3/ أوفى بن حصن كان أول قتيل قتله زياد وكان قد بلغه عنه شيء فطلبه فهرب فعرض الناس زياد فمر به فقال من هذا؟ قال أوفى بن حصن فقال زياد أنتك بحائن رجلاه فسأله فأغلظ الجواب فقال زياد:ليس النفاخ بشر الزمرة فقتله.ابن الأثير:الكامل ج3 ص228-229.

4/ ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج 3 ص 228.

5/ نفس المصدر، ج 3 ص 229.

المؤرخين – تطبيقا للأوامر- يقتل أعرابيا لا ذنب له إلا أنه خالف أمرا قد أصدره زياد ولا علم للأعرابي به، رغم أن زيادا قد اعترف للأعرابي بعد تقديمه عذره قائلا:" أظنك والله صادقا، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة"(1).

وهذا حجر بن عدي الكندي– رغم ما عرف عنه من صلاح وتقوى- إلا أن ذلك لم يشفع له لا عند زياد ولا حتى عند الخليفة، وذلك لما أبداه هو وأصحابه من عناد في مخالفة الأوامر ومن تأجيج للمشاعر لحب عليّ وآله من جانب وبما فعلوه مع نائب زياد على الكوفة، فقد حصبوا نائبه عمرو بن حريث (2) وأخذوا:" يظهرون لعن معاوية والبراءة منه"(3)؛ فما كان لزياد إلا أن أنفذ فيهم أمره ورفعهم إلى معاوية بالشام لمحاكمتهم، فكان سيف الخليفة أسبق من حلمه فقتل حجرا ونفرا من أصحابه حتى أن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها- قد عاتبت وألقت باللوم على معاوية لفعلته هذه لما لقيته قائلة:"أين كان حلمك عن حجر؟ فرد بقوله: لم يحضرني رشيد"(4).

وأما جانب الشدة الذي أبداه زياد في مقاتلة الخارجين عن طاعة الدولة والسلطان فيتمثل في تلك الحملة المسعورة التي سلطها على حركة الخوارج ورجالاتها.

وقد كانت سياسة الخروج عن حكم زياد في فترات متقطعة بدأت من سنة 46هـ[666م] وانتهت سنة53هـ[673م]. وكان أول الخارجين الخطيم(5)- وهو يزيد بن مالك الباهلي- فأمنه زياد غير أنه نفاه إلى منطقة البحرين حتى لا ينشر فكره ولا يؤثر في الناس ولا يجد له من يناصره، ثم استقدمه بعد مدة واشترط عليه ما يسمى بالمصطلح الحديث الإقامة الجبرية غير أنه خالف الأوامر فأمر بقتله وألقاه في قبيلته باهلة.

والثاني سهم بن غالب الهجيمي الذي خرج إلى منطقة الأهواز أين ألب ضد الحكم

---

1 / ينظر: الكامل لابن الأثير ، ج3 ص224 و تاريخ الطبري، ج3 ص198.

2 / عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان المخزومي القرشي، أبو سعيد، وال من الصحابة، ولي إمرة الكوفة لزياد ثم لابنه عبيد الله ومات بها، له 18 حديثا. االزركلي: الأعلام ، ج5 ص 76.

3 / الكامل ، ج3 ص 234.

4 / د/ محمد أمين صالح : العرب والإسلام من البعثة النبوية حتى نهاية الخلافة الأموية، القاهرة مكتبة نهضة الشرق 1984 ص310.

5/ الخطيم:هو يزيد بن مالك الباهلي من زعماء الخوارج وقادتهم في أيام معاوية، قتله زياد بن أبيه سنة 46هـ/666م. الزركلي: الأعلام، ج8 ص187.

الأموي وبخاصة ضد زياد غير أن الأوضاع في تلك المنطقة لم تكن مواتية فرجع واختفى وطلب الأمان إلا أن زيادا لم يؤمنه وأهرق دمه.(1)

ثم جاءت سنة 52هـ[672م] أين خرج بأرض مسكن من السواد بالعراق زياد بن خراش العجلي(2) وكان خروجه هذا انتفاضة شعبية محدودة الأفق والزمان والمكان ولم تعمر طويلا لأنه لم يكن لها من المصوّغات العقدية والفكرية ولا التوجه السياسي الذي يجعل الناس يلتفون حولها، مثلها مثل انتفاضة معاذ الطائي(3) –وهو رجل من قبيلة طيئ– غير أن الأولى انتهت بقتل جميع من شارك فيها والثانية انتهت بعقد أمان.(4)

ثم جاءت فتنة الحرورية سنة53هـ[673م]، هذه الفتنة التي هزت أركان عرش زياد وحكمه بقيادة قريب(5) من بني إياد؛ وزحّاف(6) من بني طيئ وهما ابنا خالة، وهؤلاء اشتد في أمرهم وحملهم بالسيف، وأمر القبائل في متابعتهم و النيل منهم بالسيف وإلا قطع عنهم أعطياتهم من بيت مال المسلمين، وكذلك هدّدهم بالمتابعة و السجن وذلك في قوله:' يا أهل البصرة لتكفني هؤلاء أو لأبدأن بكم، والله لإن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهما، فثار الناس بهم فقتلوهم"(7)؛ وقوله كذلك لأهل طاحية وهي ناحية من نواحي البصرة:" يا معشر طاحية لولا أنكم أصبتم في القوم لنفيتكم إلى السجن"(8).

4.نتائج الشدة والصرامة:

أ/ النتائج الإيجابية لهذه السياسة:

1- وكان من أثر ذلك أن استتب الأمن والطمأنينة وضعفت شوكة الخوارج " فلم تقم

.....

1/ ينظر:الطبري:ج3 ص203-204.ابن الأثير: ج3 ص 225-226. محمود شاكر:التاريخ الإسلامي،ج4 ص116-117

2 / زياد بن خراش العجلي شجاع ثائر خرج على معاوية في ثلاث مائة فارس فأتى أرض مسكن من سواد العراق، فسير إليه زياد بن أبيه جيشا فقاتله عام52هـ/672م فقتله. الزركلي: الأعلام، ج3 ص54.

3/ معاذ الطائي: خرج على زياد فأتى نهر عبد الرحمن بن أم الحكم في ثلاثين رجلا سنة52 هـ فبعث إليه زياد من قتله وأصحابه وقيل بل حل لواءه واستأمنه ويقال لهم أصحاب نهر عبد الرحمن.ابن الأثير: الكامل ج3 ص244.

4/ ينظر:النجوم الزاهرة: ج1 ص 143.

5/ قريب

6/ زحاف ⇕ : خرج قريب وزحاف في سبعين رجلا في رمضان فأتوا بلي ضُبَيعة وهم في مسجدهم بالبصرة فقتلوا من كان بالمسجد ثم مضوا حتى انتهوا إلى رحبة بلي علي، فخرج عليهم بنو علي وكانوا رماةً فرموهم بالنبل حتى صرعوهم أجمعين. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج4 ص154 بتصرف.

7/ ينظر:الطبري:ج3 ص209 ،ابن الأثير: ج3 ص 229 وتاريخ خليفة:من ص135 إلى ص137.

8/ الطبري:ج3 ص208.

لهم قائمة مدة ولايته على العراق"(1).

2- وكان من نتائج هذه السياسة كذلك أن عرف النـــاس حقيقـــة معـــنى الســـلطة والسلطان، فزرع في نفوسهم الخوف والهلع وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحد قبله، فكان ثمرة هذه الهيبة أن أمن الناس بعضهم بعضا:"حتى كان الشيء يسقط من يد الرجـــل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها"(2).

3- ولم تقتصر النتائج الإيجابية لسياسة زياد هذه على المستوى الأمني فقط، فقد تعدتها إلى جوانب أخرى، فعلى مستوى التسيير الاقتصادي نجد أن خزينة الدولة قد زاد دخلـها وأن العطاء قد أدر، رغم الزيادة النسبية والمعتبرة في عدد سكان العراق والمناطق المجـاورة لها وبخاصة البصرة والكوفة، والذين كانوا يأخذون أعطياتهم ومستلزماتهم من بيت مـــال المسلمين إذا علمنا أن:" عدد الذين يستطيعون حمل السلاح في البصرة لا يقلّون عن ثمانين ألف مقاتل، وإذا ضم إليهم عيالهم أصبحوا أضعاف هذا العدد.وأما الكوفة فكان عـــدد المقاتلة فيها ستين ألفا"(3).

4- ومع هذا الدخل المتزايد للدولة الإسلامية في عهد زياد، ما حذا به وشجعه علـــى بناء مدينة "الرزق"(4) ؛ وهذه إلتفاتة طيبة منه للاهتمام بالبيئة والعمران وهو في مثل هذه الظروف العصيبة. غير أن ابن منظور يورد رواية مخالـــفة لهذا تمـــاما عن الأصـــــمعي قال:" مكث زياد على العراق تسع سنين لم يضع لبنة على لبنة ولم يغرس شجرة"(5).

وهو الذي تمت استشارته في ضرب السكة من طرف الخليفة، فأشار عليه بضـــــربها "فضرب معاوية الدراهم السود الناقصة، كما ضرب الدنانير"(6).

1/ د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام،ج1 ص311.

2/ ينظر: الطبري: ج3 ص198 و ابن الأثير: ج3 ص 224 .

3/ عمر أبو النصر: سيوف أمية في الحرب والإدارة، ص78.

4/ مدينة الرزق: هي إحدى مسالح العجم بالبصرة قبل أن يختطها المسلمون. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3 ص48.

5/ مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص81.

6/ د. علي الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية، ص216.

5- ومن الآثار الإيجابية في الجانب الإداري كذلك أن قيّد زياد أعماله وعماله باستخدامه لخاتم خاص به وبالبريد الصادر من عنده، حتى تسهل عليه المراقبة والمتابعة الإدارية وجعل نقش خاتمه طاووسا؛ وهي إشارة إلى المستوى الإداري الرفيع الذي أصبحت تسير به أقاليم الدولة، وكذا الصلاحيات التي تمتع بها عمال بني أمية وبخاصة زياد.

ب/ النتائج السلبية لهذه السياسة:

وتذكر بعض الروايات أن زيادا قد زاد من سياسة الشدة هذه الشيء الكثير حتى انحرفت عن مسارها الحقيقي الذي وجدت من أجله حتى بلغت درجة التعسف في استعمال السلطة ومنصب الولاية وسوء الأدب مع غيره.فقد روى ابن منظور عن أبي برزة الأسلمي أنه دخل على زياد فقال: إنّ من شر الرعاء الحطمة.فقال: أسكت فإنك من نخالة أصحاب محمدﷺ.فقال: يا للمسلمين وهل كان لأصحاب محمد نخالة؟ بل كانوا لبابا بل كانوا لبابا، والله لا أدخل عليك ما كان فيّ الروح "(1).والمثال الثاني كذلك ما كان بين زياد والحسن بن عليّ ﷺ في أمر سعيد بن سرح(2) والذي أجاره الحسن وكتب فيه إلى زياد كتابا، غير أن زيادا من شدة كرهه لآل عليّ ومن والاهم- حسب ما جاء في الرواية- قد أهان الحسن أيما إهانة وتهكم به وأساء الأدب معه حتى وصفه "بالسوقة" و"الفاسق" و" سيئ الرأي" وأبان له كرهه في قوله:"فإن أحب لحم إلي آكله للحم الذي أنت منه"(3).

إلا أن هذه الحالة حتى وإن وجدت فهي شاذة في حياة زياد السياسية لأن الدلائل القاطعة و الروايات التاريخية المثبتة تدل على عكس ذلك ؛ وما خطبته التي رسم فيها سياسته لأهل العراق إلا دليل على ذلك والتي جاء فيها قوله:" إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا و لم أهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره"(4)؛ وهو الذي ثبت عنه كذلك أنه:" كان يقتل المعلن، ويستصلح المسر"(5).

.....

1/ ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص88.

2/ سعيد بن سرح: مولى حبيب بن عبد شمس من شيعة علي بن أبي طالب لما قدم زياد الكوفة واليا عليها أخافه وطلبه فأتى الحسن بن علي. ابن منظور: المصدر السابق ج9 ص86.

3/ ابن منظور: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة..

4/ الكامل في التاريخ، ج3 ص 223.

5/ حسين عطوان: الأمويون والخلافة، الطبعة الأولى،بيروت دار الجيل 1986،ص83

وما كان لزياد أن يسير في الرعية بهذه السياسة لولا طبائع أهل العراق، وهو يرى أنه من باب أداء واجبه كمسؤول عن هذه المناطق أمام الله ثم أمام الخليفة والأمة جميعا أن يوفر الرخاء والأمن بأقل الخسائر، حتى يشعر كل مواطن في المجتمع كلا حسب موقعه بالآثار الطيبة والنتائج الحسنة للاستقرار السياسي الذي يؤدي بدوره إلى الاستقرار التام في المجتمع على جميع المستويات .

5.العوامل المساعدة لزياد في تطبيق سياسته.

وقد ساعد زياد في تطبيقه لسياسته هذه الكثير من العوامل والوسائل، والتي كانت متواجدة عند أسلافه الذين حكموا المنطقة، غير أنه هو قد استغلّها أحسن استغلال وأبدع فيها نذكر منها ما يلي:

01/ الملكات والقدرات الفطرية التي أوتيها وزوّد بها، حتى أن رعيته شهدت له بها وبتفوقه العقلي وفراسته، وما حادثة عزله زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلا دليل على ذلك.

02/ كثرة تمرسه بالسياسة واحتكاكه وقربه من مركز السلطة صاحبة القرار ما شجعه وأورثه عقلية القائد والحاكم الذي يقدم على اتخاذ القرارات المناسبة لكل موقف هو فيه وهو الذي عايش فترة الحكم الراشدي ثم الأموي وما كان فيها من أحداث سقلت مواهبه.

03/ استغلاله للوضع الأمني والأجواء السياسية التي كانت سائدة بين القبائل مع إلزامهم الطاعة و الولاء للخلافة الأموية.

04/ استغلال نفوذه السياسي كحاكم للمناطق التابعة له في إصدار الأوامر والوعد والوعيد وبخاصة التهديدات التي كان يصدرها بقطع أو منع الأرزاق والأعطيات من بيت مال المسلمين على القبائل والأشخاص حتى يضمن ولاءهم للدولة.

05/ السلطات المطلقة والصلاحيات الواسعة التي منحه إياها الخليفة، فقد تمتع بجميع الصلاحيات مثله مثل الخليفة مع فارق واحد هو أنه كان مسؤولا عن تصرفاته أمام الخليفة.

06/ حسن اختياره للرجال ومعاونيه في أدائه لمهامه الجسام وبخاصة في الجانب الأمـــني والاستقرار الاجتماعي اللذين كانا من المطالب الاستعجالية ،واعتماده علـــى حرســه المدرب تدريبا جيدا والذين استعملهم في حفظ النظام والأرصاد والعيون والحرس.

07/ استغلاله لجميع مؤسسات الدولة واستعمالها فيما يخوله له القانون الذي كان سائدا في زمانه للدعوة والدعاية بما يخدم التوجه الذي تريده الدولة ورجالاتها وعلى رأس هذه المؤسسات المسجد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول:

﴿زيـــــاد بن أبيـــــــه﴾

المبحث الرابع:

سياسة زياد الاقتصادية

1. مدخل عام.
2. مهمة أخذ الجزية.
3. سوء معاملة الموالي.
4. سياسة زيا د الاقتصادية:

أ/ الخط الراشد للسياسة المالية.

ب/ نظرية زياد في التسيير المالي.

ج/ الإصلاحات الاقتصادية في عهد زياد.

د/ أوجه نفقات المال العام:

د1/العمران.

د2/ استصلاح الأراضي.

د3/ الفتوحات.

هـ/ نقد السياسة المالية لزياد.

1.مدخل عام:

عرف العرب قبل الإسلام الكثير من أوجه المعاملات الاقتصادية والمالية وأشهر ما اشتهروا به التجارة حتى خلد القرآن ذكرهم برحلتي الشتاء والصيف في سورة قريش،كما عرفوا التعامل النقدي المتمثل في الدينار الرومي والدرهم الفارسي.

ولما تأسست دولة الإسلام التي أقامها النبي-ﷺ - في المدينة المنورة بقي التعامل بهذين النوعين من النقد " فكان سعر التبادل عندهم هو كل عشرة دراهم تساوي سبعة دنانير فأقر رسول الله-ﷺ - ذلك"(1).ولما كانت الخلافة الراشدة أقر الخلفاء الراشدون ذلك التعامل.

وقد اهتم الإسلام –وهو الدين الشامل لجميع مناحي الحياة- أيما اهتمام بالجانب الاقتصادي، وجعله عاملا أساسيا في استقرار حياة الأفراد والمجتمع، بأن قنن له ووضع ركائزه الأصلية سواء ما جاء من آيات في كتاب الله أو ما صح عنه -ﷺ - من أحاديث.

فقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي ذكرت التجارة(2) وضوابطها وتعاملاتها وما يجوز فيها وما لا يجوز، وإبرام العقود التجارية وكل ما له علاقة بهذا الجانب كما بين الرسول-ﷺ- جميع جوانب هذا الأمر حتى لا يغم على أمته من بعده(3).

كما نوه القرآن الكريم بالزراعة ومستلزماتها وأدواتها وأشار إلى العوامل المساعدة لها وضرب الأمثال بالأرض الزراعية وما تنبته(4)، وأشاد نبي الإسلام-ﷺ- بالزرع والغرس وإحياء الأرض واستغلالها وبكل ما له صلة بها(5).

1/ د. إبراهيم أحمد العدوي: نهر التاريخ الإسلامي، ص289.

2/ ينظر: سورة البقرة،الآية:252 ،274-275 ،281-282 . الجمعة، الآية:09-10-11 . قريش، الآية:02.

3/ ينظر: صحيح البخاري، كتاب البيوع، حديث جابر بن عبد الله:" رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى" وحديث عائشة:" لما نزلت آخر البقرة قرأهن النبي-ﷺ - عليهم في المسجد ثم حرم التجارة في الخمر".

4/ ينظر: سورة الأنعام، الآية:99 ،141. الرعد، الآية:03-04. النحل، الآية:11. المومنون، الآية:18-19-20. الشعراء:الآية:134،147-148. يس، الآية:32-33-34. الدخان،الآية:24-25. ق، الآية:09 -10-11. نوح،الآية:12. النبأ، الآية:14-15-16.

5/ ينظر: صحيح البخاري، كتاب المزارعة، حديث عائشة:" من أعمر أرضا ..." وكتاب المساقاة، حديث أبي هريرة:" لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ".

ومن أثر التوجيه القرآني والنبوي في أمر الزراعة أن اهتم الخلفاء الراشدون ومن بعدهم الخلفاء الأمويون بالأرض واستصلاحها واستغلالها للصالح العام، سواء كانت ملكيتها خاصة أو عامة، وخاصة بعد أن ساح الفاتحون في مشارق الأرض ومغاربها وضموا العديد من الأقاليم للدولة الإسلامية.

ومن الدلائل الواضحة على اهتمام الخلفاء والمسلمين بالزراعة"إحياؤهم للأرض وشق الأنهار"(1) و"مسح الأرض وحفر الآبار لخزن المياه وإقامة القناطر على الأنهار"(2) و"تجفيف المستنقعات"(3).

وقد أدى هذا الاهتمام الكبير بالزراعة وبإصلاحاتها إلى نتائج جد إيجابية في المجتمع آنذاك:"فقد أقبل الناس على شراء الأرض باعتبارها أحد مظاهر الثراء"(4).وازدهرت الحياة في العهد الأموي حينما ازدهر الاقتصاد وبخاصة لما استقلت الدولة بعملتها المميزة الجديدة عن الدرهم الفارسي والدينار الرومي.

غير أن ثمة أمران أساسيان وجب الحديث عنهما لهما صلة كبيرة بالجانب الاقتصادي في العصر الأموي شوها صورته، واتخذا كذريعة ومنفذ للتكلم فيه والانتقاص من قيمته والتهجم عليه ووصفه بما لم يكن حقيقة؛ أولهما أخذ الجزية عمن أسلم والثاني أمر الموالي وسوء معاملتهم في الدولة.

2.تهمة أخذ الجزية عمن أسلم.

اختلط على كثير من الباحثين والمؤرخين القدامى منهم والمحدثين أمر الجزية والخراج والتبس عليهم المفهوم الحقيقي للمصطلحين فقد يكون أن أطلقت إحدى التسميتين مكان الأخرى أو جيء بإحداهما للدلالة على التسميتين معا، مما أنتج تراكمات من الآراء والأحكام حسبت على الخلفاء الأمويين وولاتهم رغم أوجه الائتلاف والاختلاف الموجودة

1/ التاريخ الإسلامي: د/ محمود شاكر، ج4 ص57.

2/ تجديد الدولة الأموية: د/ شحادة الناطور، ص226.

3/ نفس المرجع، ص218.

4/ نفس المرجع، ص221.

بين المصطلحين ولعموم الفائدة ينظر ما كتبه من كتب في السياسة الشرعية في هذا الموضوع(1).

وقد شجع هذا الاستعمال المزدوج المستشرقين والمتحاملين على الدولة الإسلامية عامة والخلافة الأموية خاصة أن يكيلوا التهم ويلصقوها بالإسلام:"واتهم الخلفاء الأمويون أنهم كانوا يبقون الجزية عمن يسلم حرصا على دخل بيت المال"(2) وليؤكدوا :" أن هدف الفتوحات في خلافة بني أمية لم يكن نشر الإسلام وإنما جمع الأموال"(3).

ومن المؤرخين القدامى الذين وقعوا في هذا الخلط الإمام الطبري(4) حيث يستعمل لفظ الخراج والجزية بمعنى واحد. وقد استغل هذا الخلط بعض المستشرقين منهم فلهوزن(5) فلن فلوتن(6) وبعض أتباعهم وتلاميذهم أو ممن اختلط عليهم الأمر في هذا الموضوع منهم جرجي زيدان(7)، د/ شكري فيصل(8)، ود/ أحمد شلبي(9) وغيرهم كثير.

إلا أنه من باب الإنصاف أن يذكر الواحد منا أن مسألة أخذ الجزية لم تظهر إلا في ولاية الحجاج سنة 82هـ[702م] على أرجح الأقوال:" أي بعد مضي أربعين عاما على قيام الدولة الأموية دون أن يكون هناك وجود لهذه المشكلة"(10) وبعد أن اشتكى جباة الخراج انكسار الخراج زمن الحجاج وذلك راجع لأحد السببين: إما لكثرة إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام وإما لخروجهم من أراضيهم وتركهم إياها ولحاقهم بالمدن فأدى إلى نقص الأيدي الماهرة المختصة في خدمة الأرض على ما ذكره المؤرخون(11).

.....

1/ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص181.

2/ د. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج4 ص36.

3/ د. نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، ص194.

4/ تاريخ الطبري، ج3 ص586، ج7 ص55.

5/ تاريخ الدولة العربية، ص235، 264 و455.

6/ السياسة العربية، ص41-42 و50.

7/ تاريخ التمدن الإسلامي، ج1 ص220، ج4 ص360.

8/ المجتمعات الإسلامية، ص210.

9/ التاريخ الإسلامي، ج2 ص87.

10/ د. نجدة خماش: المرجع السابق ص345.

11/ نفس المرجع، ص194.

وتفند الدكتورة نجدة خماش ذلك قائلة:" وقد كان بإمكانه[أي الحجاج] أن يأمر بتحصيل الجزية من المسلمين الجدد في الأمصار وهو أمر لم يحدث و لم يشر إليه مصدر"(1) وتستطرد قائلة في موضع آخر أن:" مسألة أخذ الجزية ممن أسلم فقد بولغ فيها كثيرا و لم تكن سياسة مرسومة عامة"(2).

أما الدكتور محمود شاكر فيرد فرية أخذ الجزية عمن أسلم قائلا:" ثم إن وضع الجزية عمن أسلم أمر شرعي فهل يجرو الخليفة على التساهل فيه، وأين دور أهل العلم؟ لم يبق إلا ليقال: إن بني أمية قد رفضوا الإسلام وأحلوا بأهله البوار"(3). ويذكر خبرا مخالفا لما سبق ذكره مفاده أن أخذ الجزية لم يظهر إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز"رضي الله عنه" عندما أخذ الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان الجزية من جماعة ثم أسلموا فلم يعد لهم ما أخذ منهم فأرسل إليه الخليفة قولته المشهورة:" إن الله قد بعث محمد هاديا و لم يبعثه جابيا"(4)، ويعلق بعد ذلك قائلا:" فأخذ بعضهم من هذا الكلام أن الأمويين يبقون الجزية على من يسلم من أهل البلاد المفتوحة"(5).

3.الموالي وسوء معاملتهم في الدولة الأموية.

عرف العرب نظام الولاء والموالي في الجاهلية قبل مجيء الإسلام، إلا أنه لم يكن منظما ولا مضبوطا بقانون، وقد كان النظام منحصرا في حدود القبيلة أين نجد الأسياد-وهم أبناء القبيلة –أو كما يسمون بالصرحاء، ونجد أتباع الأسياد وهم الذين يدخلون القبيلة موالين لها طالبين النصرة ويسمون الدخلاء.

ولما جاء الإسلام حدد نظام الولاء وضبط قواعده وأجرى فيه الكثير من التعديلات لجعله يتلاءم وروح التعاليم التي جاء يدعو لها، ويسمو بالإنسان إلى أرقى درجات إنسانيته وقد

1/ د/ نجدة خماش:الإدارة في العصر الأموي، ص194.

2/ نفس المرجع، ص344-345 بتصرف.

3/ د/ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج4 ص36.

4/ نفس المرجع والجزء والصفحة.

5/ نفس المرجع والجزء والصفحة.

قرر أنه لا تفاضل إلا بالتقوى، لأن أصل النشأة واحد والمؤمنون كلهم إخوة على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وأن ولاءهم مرهون بالعقيدة. وهذه نقلة نوعية في تطوير نظم الولاء امتاز بها الإسلام دون غيره من الشرائع السماوية المحرفة منها أو القوانين الوضعية مصداقا لقوله تعالى:"يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين"(1) وقوله تعالى:" إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا الذين يقيمون الصلاة ويوتون الزكاة وهم راكعون() ومن يتول الله والذين ءامنوا فإن حزب الله هم الغالبون() يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مومنين"(2).

وقد سهر النبي-ﷺ- على ترسيخ هذا المفهوم في المجتمع الإسلامي، وأنه لا ولاء إلا بالإيمان، وطبق ذلك لما هاجر إلى المدينة، فيذكر ابن هشام أن النبي-ﷺ-كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار جاء فيه قوله:"وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس"(3).

ولما قامت الخلافة الراشدة بقت هذه القواعد راسخة رسوخ العقيدة في قلوب المؤمنين ولم تتغير رغم اتساع رقعة الدولة الإسلامية. وبقي الحال كذلك في الدولة الأموية، ولم يجرأ أحد أن يتعد حدوده ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه، وعلموا أن التفاضل باللون والجنس إنما هو نعرة جاهلية ممقوتة وقد نهى الإسلام عنها.

لكن كتب التاريخ تحدثنا عن بعض المخالفات التي وقعت –وهي شاذة- ارتكبها أصحابها:" بدافع البغي والحقد والعدوان"(4)، وقد يعذرون لأنهم قاموا بها على :"جهل بأحكام الشريعة وتعاليم الدين"(5)

إلا أن بعض المغرضين والكائدين من الملل الأخرى، ونخص منهم بالذكر، المستشرقون

1/ سورة المائدة، الآية 53.

2/ سورة المائدة، الآية57-58-59.

3/ محمد عفيف الزعبي: مختصر السيرة لابن هشام، الطبعة السادسة، بيروت دار النفائس 1405هـ/1985م ص107

4/ د/ محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء ، ص134.

5/ نفس المرجع والصفحة.

وعلى رأسهم فان فلوتن، واليهودي المتعصب ضد الإسلام والمسلمين غولد تسيهر، أخذوا هذه المخالفات ودوّنوها في كتاباتهم على أنها أحكام عامة طبقتها الدولة الأموية على الموالي؛ الذين كانوا يمثلون الطبقة الدنيا في المجتمع والذين عانوا البؤس والاضطهاد والظلم على حسب زعمهم.

وذهب جمع كبير من بني جلدتنا والذين كتبوا عن الموالي مذهب المستشرقين، وراحوا يرددون ما كتبوه واتخذوا لذلك كل السبل والأدلة والحجج لإثبات ما ذهبوا إليه(1).

وإنصافا للحقيقة التاريخية وتخليصا للتاريخ الإسلامي عامة والأموي خاصة بما علق به من شوائب وتراكمات فكرية عنصرية ضيّقة أو تحريضية؛ نقول أنّ الموالي كانوا يحيون في المجتمع حياة طيبة وحياة أخوة ومساواة، وكانت علاقتهم مع إخوانهم علاقة تسلمح:" لأن الأغلبية المطلقة من العرب والموالي كانوا يرون أنهم على درجة واحدة من أخوة الإيمان"(2)

وبخلاف ما أشاع المستشرقون ومن تابعهم في فكرهم فإن الموالي من جراء الحياة الكريمة التي نعموا بها في ظل الدولة الإسلامية أن:" ارتقوا إلى معظم المناصب الهامة في إدارة الدولة وعملوا في أكثرها حيوية وحساسية أحيانا"(3).

وهل يعقل أن يتم تعيين أو ترقية أي فرد من أفراد المجتمع في منصب من المناصب الهامة للدولة وهو لا يتمتّع بجميع حقوقه وأولها الحرية والمساواة. هذا ما يدحض آراء المغرضين والذين يشيعون مثل هذه الافتراءات.

وقد حاول الدكتور محمود المقداد تتبع السقطات التي اعتمد عليها المستشرقون وأتباعهم في هذا الأمر وذكرها وذكر سبب وقوعها وحدد مكانها وزمانها وناقشها وختم بحثه قائلا:"هذه هي أبرز ما أخذه الباحثون على معاملة العرب للموالي في المجتمع، وقد حاولنا مع كل ما أخذ أن نبيّن الوجهة الصحيحة فيه، ويلاحظ أن معظم الأمثلة كانت وقائع فردية، لا يمكن أن تتخذ حجة على العصر الأموي كله، بل يمكن أن تتخذ حجة على

.....

1/ ينظر: تاريخ التمدن الإسلامي: جرجي زيدان. أحمد أمين: ضحى الإسلام. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج1ص386.

2/ محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء، ص304.

3/ المرجع السابق، ص264.

أصحابها فقط، ومع ذلك لا نجد فيها ما يدين أصحابها إدانة قاطعة"(1).

وسآتي إلى شيء من التفصيل والتوضيح ما أمكن ذلك حسب ما تقتضيه الدراسة والمـــادة العلمية مع تقديم الأمثلة التاريخية الدالة على المعاملة الحقيقية للموالي في الدولة الأموية فيمـــا تبقى من بحث، وبخاصة معاملة زياد والحجاج لهذه الفئة.

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1/ محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء، ص195–196. و للمزيد من التفاصيل والفائدة ينظر نفس المرجع من الصفحة 183 إلـــى الصفحة 208.

4.سياسة زياد الاقتصادية

أ/ الخط الراشد للسياسة المالية:

جاء في صفحات سابقة أن زياد بن أبيه كان ماهرا في الحساب والكتابة مما أهله منذ صغره إلى تولي إدارة المالية والحساب منذ الخلافة الراشدة إلى خلافة معاويةﷺ.

وفي أثناء تولي زياد المناصب، ومن خلال التجارب الميدانية التي مرّت به، ما صقل مواهبه وجعله رجل دولة سواء في خط سيره السياسي أو الاقتصادي حتى أصبح:" يضرب به المثل في حسن السياسة ووفور العقل وحسن الضبط لما يتولاّه"(1).

فبعد أن كان مقيِّدا وضابطا للحساب ومساعدا ماليا للولاة ومستشارا لهم في الخلافة الراشدة بدء من زمن عمر بن الخطاب ﷺ إلى زمن عليّ ﷺ؛ أصبح المسؤول الأول في إقليمه الذي يشرف عليه وعلى الأراضي التابعة له بعد الخليفة زمن الدولة الأموية.

وأوّل ما تحدثنا به كتب التاريخ عن الخط الراشد للسياسة المالية في حياة زياد ما ذكره ابن حجر وابن عبد البر، عن أبي عثمان النهدي أنه قال:" اشترى زياد أباه عبيدا [هذا إذا حمل نسب زياد على نسب عبيد]بألف درهم فأعتقه فكنا نغبطه بذلك"(2) وقد كان ذلك زمن الخليفة عمرﷺ.

وقد كان هذا الخط الراشد للسياسة المالية في حياة زياد ملازما له وكان الصفة الأساسية في تسييره، وبخاصة زمن ولايته البصرة والكوفة والمناطق التابعة لنفوذه.

و لم يلح خليفة في أمر المال الذي كان تحت تصرف زياد وفي ولايته وإمرته على ما ذكرته المصادر والمراجع إلحاح معاوية في أموال فارس، لعلمه برجاحة عقل زياد وحسن سياسته وللأموال الكثيرة التي بين يديه.

وإذا ما اجتمع هذان الأمران لرجل مثل زياد فإن معاوية لم يهنأ برغيد العيش ولن يجد لمنصب الخلافة طعما، لذلك أرسل الجواب تلو الجواب مستعطفا جانب زياد وقائلا له:" علام تهلك نفسك؟ فأقبل إليّ فاعلمني ما صار إليك مما اجتبيت من الأموال وما خرج من يديك وما بقي معك وأنت آمن"(3).

1/ ابن حجر العسقلاني: الإصابة، ج4 ص85.

2/ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج4 ص27 . الإصابة، ج4 ص85.

3/ ماهر حمادة: الوثائق السياسية، ص156 -157.

ب/ نظرية زياد في التسيير المالي:

وقد انفرد زياد بوضع نظرية اقتصادية مفادها" عدم التفريط في القليل من المال لكثرته مع عدم الإفراط ووجوب حسن التدبير لندرته" سار بها في حياته وفي تدبير شؤون ما ولي من أمور المسلين وقد ذكر ابن منظور قولة زياد الشهيرة:" لو أن لي عشرة دراهم لا أملك غيرها ما تركت نائبة يلزمني فيها حق، ولو أن لي مائة ألف ولي بعير أجرب ما ضيعته لكثرة مالي"(1)؛ وقولته هذه قد طبقها وانتفع بها وعادت على الأمة جميعا بالنفع الكثير.

ومن جملة ما قال زياد حينما أصبح واليا مخاطبا رعيته ومبينا لهم منهجه في التسيير الاقتصادي قال:" أيها الناس إنّا أصبحنا لكم سادة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا"(2)؛ واشترط عليهم السمع والطاعة مقابل الذود والحماية، وأوجب عليهم النصح مقابل ذلك.

وأردف مبينا منهجه الاقتصادي هذا للرعية وهو أنه لن يتوانى في ثلاثة أمور ولن يقصر عنها، ومن بين هذه الأمور أنه لا يحبس عطاء الناس وأرزاقهم ما داموا طائعين لازمين وحدة الصف، موالين للخلافة، وما لم يبن منهم ما يدفعه إلى ذلك، جاء في قوله:" واعلموا أني مهما قصرت عنه، فلن أقصر لثلاث[كذا في الأصل والأصح عن ثلاث]: لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولوأتاني طارقا بليل، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانة، ولا مجمّرا لكم بعثا"(3).

هذا وقد كان لزياد الفضل الكبير في وزارة المالية والاقتصاد بما اشتملت عليه من دواوين (الجند، الخراج، الجزية...) بحيث حفظ في السجلات مقادير الصادرات والواردات وجميع النفقات بأسماء المناطق التابعة له.

ج/ الإصلاحات الاقتصادية في عهد زياد:

وأبدع زياد وبخاصة في ديواني الجند والذراري؛ فديوان الجند الذي كان الانضمام إليه اختياريا إلا في حالات الضرورة،كان يدوّن فيه زياد أسماء المشاركين في الغزو ويكتب حتى أوصافهم البدنية. أما ديوان الذراري، فقد أسسه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ووضع قواعده في خلافته حتى ولو لم يجعل له سجلاً خاصا به ولو لم يذكر صراحة في كتب

1/ مختصر تاريخ دمشق، ج9 ص84.

2/ محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية، ص144.

3/ نفس المرجع، ص115.

التاريخ، إلاّ أنه في زمن زياد قد أفرد له سجلاً خاصا لإحصاء ذراري المسلمين في البصرة والكوفة على ما ذكره شحادة الناطور.(1)

كما ترك لمساته واضحة في هذا الميدان بما أبداه من إصلاحات وحرص على أموال الأمة واستعان في ذلك بالموالي، لأنهم كانوا خبراء في الحساب، على عكس ما أشيع عنهم بأنهم عوملوا معاملة أدنى من غيرهم في المجتمع وأنه لم يكن لهم شأن يذكر، فقد :" كان معاوية وزياد وابنه عبيد وولاّتهم يعتمدون على الموالي في ضبط الخراج وإيراداته وفي إدارة شؤونه"(2).

ويُروى عن زياد أنه سك النقود في ولايته على البصرة على عادة أمراء الأقاليم، غير أن هذه الرواية لا تكاد تجد لها سندا ماديا ولا أثرا يروى تاريخيا يؤيّدها؛ وقد انفرد بهذه الرواية صاحب كتاب تجديد الدولة الأموية حينما قال:" هذا وقد سك أمراء الأقاليم ابتداء من عهد الخليفة معاوية إلى الخليفة عبد الملك الدراهم في أقاليمهم، فسك زياد بن أبيه والي البصرة"(3).

كما كانت لزياد اجتهادات صائبة في التنظيم والتسويق، وهو الذي نظم السوق في البصرة والكوفة. فبعدما كانت تحدث مشاجرات ومشاحنات بين التجار في السوق وفي أحقية امتلاك المكان الذي ينزلون فيه، أنهى زياد هذه المشاكل وأقرّ أنه:" من قعد في مكان فهو أحق به ما دام فيه"(4).

ومثل ما تمتع زياد بالصلاحيات الإدارية الكبيرة والواسعة زمن الخلافة، فإنه تمتع كذلك بالنفوذ وحق التسيير في الأموال، غير أنه كان دائم المشورة مع الخليفة، فحينما عزم على الحج كتب إلى معاوية يستأذنه فأذن له واستعمله على موسم الحج وأجازه بالأموال وكتب إليه:"إني أذنت لك واستعملتك على الموسم وأجزتك بألف ألف درهم(5).

.....

1/ تجديد الدولة الأموية، ص361.

2/ محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء ، ص260.

3/ شحادة الناطور، ص255.

4/ أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال، دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، الطبعة الأولى بيروت دار الشروق 1409هـ/1989م، ص167

5/ محمد ماهر حمادة: الوثائق الإدارية، ص159-160.

د/ أوجه نفقات المال العام:

وقد استغل زياد بيت مال المسلمين للصالح العام، وقد بذل ما في وسعه من جهد في ذلك كما أنه استنفذ مداخيل المال في تثبيت وتوطيد الحكم القائم، وفي الأعمال الحضارية الأخرى من بناء وشق السدود وتأمين الطرقات، وكذا الفتوحات في المنطقة الشرقية للخلافة.

د1/ العمران :

وتذكر كتب التاريخ أن زيادا قد ارتقى بالبناء والتعمير درجات، وأحدث فيه تحولات كبيرة ونقلة نوعية سواء من حيث المواد المستعملة في البناء أو في المؤسسات التي أقامها أو في مساحة هذه المؤسسات على اختلاف أنواعها وأشكالها.

فبعدما كانت تشاد باللبن والطين أصبحت بالآجر والجبس، مع توفر اليد العاملة الماهرة. كما أعاد زياد بناء المسجد الجامع الذي أنشأه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وبناه بالآجر:"وجعل له أساطين على الطراز الساساني"(1)، وجعل له سقفا ومجنبات تقي المصلين الحر والقر،كما زاد في توسعته:"فبعدما كان يتسع لأربعين ألفا جعله يتسع لستين ألفا"(2).

كما بنى زياد دار الإمارة بالمواد الجديدة، وزاد من ارتفاعها، ولعله فعل ذلك ليدخل الهيبة في صدور أهل العراق، كما بنى دارا أسماها دار الرزق، ولعلها كانت بيت المال التي تجمع فيها الأموال على اختلاف أوجه جبايتها وتحصيلها سواء كانت خراجا أو زكاة أو صدقة أو فيئا أو غيرها، ثم توزع على مستحقيها على شكل أرزاق.

كما بنى قصرا أسماه"قصر النواهق"(3)، وأنشأ: "سكة [أي حيا سكنيا] وأسكنها أربعة آلاف من البخارية فسميت باسمهم"(4). وأرسل بمجموعة من سكان البصرة والكوفة ممن يثيرون الشغب إلى خراسان وكان عددهم كبيرا، فيذكر المؤرخون:" أن زيادا أرسل ما يقرب من خمسين ألفا من المحاربين إلى خراسان، نصفهم من البصرة والنصف الآخر من الكوفة"(5) ويضاف إلى ذلك أن زيادا:"أجزل لهم العطاء وبهذا التدبير أبعد زياد عن العراق

1/ علي الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص278.

2/ نفس المرجع، ص285.

3/ نفس المرجع، ص283.

4/ نفس المرجع، ص282.

5/ يوسف العش: الدولة الأموية، ص154.

عناصر الشغب الأولى، واستتب الأمر فيه"(1)، ويذكر في موضع آخر أن زيادا: "نظم توزيع الأموال بعدالة، ورضي الناس بسياسته المالية"(2).

د2/ استصلاح الأراضي :

وجهة ثانية استعمل فيها زياد الأموال الكثيرة للصالح العام، تمثلت في استصلاح الأراضي وحفر الأنهار وحماية البيئة، وأشهر ما اشتهر عنه أنه: "احتفر نهر الأبلة حتى انتهى به إلى موضع الجبل"(3)؛ ونهر ثان احتفره زياد وهو نهر معقل(4).

د3/ الفتوحات :

وجانب ثالث اهتم به زياد ووجه له العناية الكافية ووفّر له الأموال وهو جانب الفتوحات الإسلامية، والتي أولتها الخلافة اهتماما بالغا، ولشحذ همم الفاتحين استعان زياد بصحابة رسول الله ﷺ وجعلهم قادة للجيوش الفاتحة، وما تأميره للحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه(5) عامل زياد على خراسان لدليل على ذلك.

وفي عهده، شجع الفاتحين على استيطان الأرض المفتوحة، والسياحة في الأرض ووصلوا بفتوحاتهم إلى مدينة كابل شمال شرق أفغانستان حاليا.

هـ/ نقد سياسة زياد المالية :

إلاّ أن زيادا لم يسلم من أقلام المغرضين والمشككين في تسييره للأموال وكالوا له من التّهم الشيء الكثير. فقد اتّهم بأنه يستعمل عمال جمع الأموال بالقوة والإكراه، فيروي ابن سلام عن مسروق أنه قال: "والله ما عملت عملا أخوف عندي أن يدخلني النّار من عملكم هذا"(6).

1/ يوسف العش: الدولة الأموية، ص154.

2/ نفس المرجع والصفحة.

3/ تاريخ خليفة بن خياط، ص96 / الاستيعاب: ج4 ص28.

4/ علي الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص282.

5/ الحكم بن عمرو بن مجدع الغفاري صحابي له رواية صحب النبي(ﷺ) إلى أن مات والتقل إلى البصرة في أيام معاوية فوجّهه زياد إلى خراسان، وكان صالحا فاضلاً مقداماً، فغزا وغنم وأقام بمرو، ومات بها سنة 50هـ/670م. الزركلي: الأعلام، ج2 ص267.

6/ كتاب الأموال، ص633.

واتهم كذلك بأنه كان يستعمل الكفار في جمع الأموال، وكأن دار الإسلام قد وأدت أبناءها من المسلمين، ولم يبق إلا أن تستعمل هؤلاء النفر من الناس، فقد روي أن رجلا جاء إلى ابن عمر وقال له: "أندفع صدقات أموالنا إلى عمالنا؟ فقال نعم، فقال: إن عمالنا كفار، قال: وكان زياد يستعمل الكفار، فقال: لا تدفعوا صدقاتكم إلى الكفار"(1).

غير أن ابن سلام لم يذكر صاحب الرواية ولا المكان الذي التقى فيه السائل مع ابن عمر ولم يذكر حتى سنة وقوع هذه الحادثة؛ ونرى أن ابن سلام قد انفرد بهذه الرواية وحده.

واتهموه كذلك بأنه كان يراسل عماله على الأقاليم بأن يدفعوا أموال أقاليمهم إلى مقر ولايته لاستغلالها في ولايته أو إرسالها إلى مقر الخلافة. فيروى أنه كتب إلى الحكم بن عمرو واليه على خراسان: "أن يصطفي له كل صفراء وبيضاء ـ يعني الذهب والفضة ـ ويرسلها لبيت المال"(2).

وأخذ على زياد أنه تعنت، وهو وال على البصرة بأن تعدى صلاحياته، فعند خروجه من مقر ولايته بالبصرة أخذ معه ما فضل من مال بيت مال البصرة إلا أن غيرة أهل البصرة على مالهم دفعهم لانتزاعه منه بالقوة وقسموه بينهم.(3)

هذا وقد يكون لزياد بعض الإصلاحات المالية لم يذكرها المؤرخون أو تناسوها لأن التاريخ الأموي كما هو معلوم كتب في العصر العباسي بأقلام حاقدة أو مغرضة إلا القلة منها كما قد تكون لزياد بعض الهنات أو السقطات في التسيير لم تذكر في هذا المبحث إما لعدم توفر المادة العلمية الخاصة بهذا الموضوع أو لعدم وصولنا إلى مضان هذه المادة العلمية في بطون الكتب.

ويبقى هذا غيض من فيض في سيرة الرجل، وما تم تسجيله في هذا المبحث أو في غيره من المباحث ما هو إلا شهادة لم نأل جهدا في جمعها وترتيبها على ما ظهر من الحقيقة العلمية في هذا الموضوع.

1/ المصدر السابق، ص676

2/ / محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية، ص161.

3/علي الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص195.

الفصل الثاني:

﴿ الحجـــاج بن يوسف الثقفـــــي﴾

المبحث الأول:

* الأصل والمنشأ وطموحاته الكبيرة في الدولة *

1. مقدمة.
2. نسب الحجاج ومولده.
3. نشأة الحجاج.
4. الحجاج وطموحاته الكبيرة في الدولة الأموية.
5. الحجاج سوط عبد الملك.
6. الحجاج سيف عبد الملك.
7. الحجاج في الحجاز.
8. الحجاج في العراق.
9. وفاة الحجاج.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1.مقدمة.

لا يكاد كاتب من كتبة التاريخ أو الأدب يدون للعصر الأموي أو للدولة الأموية إلا ويذكر اسم الحجاج بن يوسف الثقفي، فيما يؤرخ له أو يدونه، سواء من قريب أومن بعيد فتعد شخصيته شخصية شبه أسطورية، ملأت الكتب بالأحاديث والأقاصيص منها ما كان حقيقة ومنها ما هو أقرب للخيال منه للواقع والعقل.(1)

ويعود أصل هذه الشخصية إلى قبيلة ثقيف القاطنة بالطائف، هذه القبيلة التي سادت قبل الإسلام وبعده، وكان للطائف حديثا طريفا في التاريخ الإسلامي .

فقد أوذي فيها رسول الله - ﷺ - إيذاء لم يسبق له في تاريخ الدعوة إلى الله، رغم أن هذا الإيذاء تم في ساعات قليلة من نهار.

غير أن هذه القبيلة أبلت بلاء حسنا بعد ذلك، ورسمت لنفسها صورة مشرفة في التاريخ الإسلامي، وأنجبت أسماء خلدهم التاريخ وحفظوا للأمة إسلامها ومقوماتها وحافظوا على عدم زوال الدولة، فأعطوها أعز ما يملكون من أوقاتهم وأموالهم رغم ما صاحب ذلك من فتن وحروب وعلى رأس هذه القائمة الاسمية اسم الحجاج بن يوسف.

2.نسب الحجاج ومولده.

ويعود أصل عائلة الحجاج إلى جدهم عوف الثقفي، فهو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن سعد بن عوف الثقفي(2)؛ هذا نسبه من جهة أبيه.

أما أمه فهي الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن سعد بن عوف الثقفي (3)، فهو من أصل عربي من عرب ثقيف.

.....

1/ D .AMAR. COP CIT P154

2/ بطرس البستاني: دائرة المعارف، طهران مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان ،1299هـ/1882م، ج6 ص 698 .

3/علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، ص 297.

وقد اختلف العلماء في تاريخ وسنة مولد الحجاج فمنهم من ذكر على أنه ولد سنة تسع وثلاثين[659م](1)، ومنهم من ذكر أنه ولد سنة أربعين[662م] (2)، ومنهم من ذكره في مواليد إحدى وأربعين[661م] (3)، ومنهم من ذكره في مواليد سنة اثنين وأربعين[662م] (4) وحتى منهم من ذكره في سجل مواليد سنة خمس وأربعين[665م] (5).

غير أن المتتبع لدراسة المؤرخين الدارسين الناقدين، والذين ترجموا لهذه الشخصية وتتبعوا خطوات حياته، يجدهم يرجحون أن الحجاج بن يوسف قد ولد سنة اثنتين وأربعين للهجرة[662م] (6)، بعد عام الجماعة الذي كان سنة إحدى وأربعين للهجرة[661م].

ولد الحجاج في قبيلة ثقيف على التحقيق، على عكس ما ذكر بعض المؤرخين، أنه ولد بمصر، غير أن الدكتور إبراهيم علي طرخان في تحقيقه لكتاب النجوم الزاهرة(7) ذكر بأن الحجاج شب ونشأ بها لكنه لم يولد بها، وقد كان ذلك عندما نزل أبوه يوسف بن الحكم مصر مقدم مروان بن الحكم.

.....

1/ النجوم الزاهرة: ج1 ص 230.

2/ الذهبي: تاريخ الإسلام،ج6 ص314. النجوم الزاهرة، ج1 ص230.

3/ تاريخ خليفة: ص 125. الذهبي: المصدر السابق ج6 ص315. النجوم الزاهرة: ج1 ص 230. البستاني: دائرة المعارف،ج6 ص698. علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، ص 297. عمر أبو النصر: سيوف أمية في الحرب والإدارة،بيروت منشورات المكتبة الأهلية طبعة1963م ص 316. تاريخ الأدب العربي: أحمد أفندي حسن الزيات، الطبعة الرابعة عابدين مصر 1914م، ص95. D .AMAR. COP CIT P154

4/ الطبري:تاريخ الأمم والملوك، ج3 ص173. عمر فروخ:تاريخ الأدب العربي، ص549.

5/ ابن حجر العسقلاني:تهذيب التهذيب، الطبعة الأولى، حيدر أباد الهند، دائرة المعارف النظامية:1325هـ ، ج2 ص210

6/ الطبري: المصدر السابق، ج3 ص173. عمر فروخ: المرجع السابق، ص 549.

7/ النجوم الزاهرة: هامش:ج1 ، ص230.

3.نشأة الحجاج.

إذن فالطائف موطن قبيلة الحجاج، "وقد كانت الطائف في عهد رسول الله مقر الأشراف من ثقيف "(1)؛ وقد كانت عائلة الحجاج فقيرة معدمة، وكان أبواه يعملان في نقل الطين والحجارة، غير أن هذا الفقر لم يمنع الأسرة من أن تكون مثقفة ومتعلمة فقد "كان أبوه معلما وكان فاضلا"(2).

وللحجاج أخ أكبر اسمه محمد، وأخت اسمها زينب، وكانت أم الحجاج قد سمته وهو صغير باسم كليب .

هذا من جهة أسرته، أما من جهة تركيبته الفيزيولوجية، فقد ذكرت بعض كتب التاريخ بعض الصفات للحجاج ونذكر ما جاء في كتاب التاريخ الإسلامي ا لعام (3) قوله:"وكان الحجاج قبيح الوجه قميئا (4)دقيق السلقين(5)، أعور، معروق الأصداغ(6)"

فإذا ما حرم الحجاج من صفات الجمال، وإذا ما صح هذا الوصف الذي ذكره بعض المؤرخين، فإن القدر قد وهب الحجاج من الصفات النفسية والخلقية ما لم تكن في أقرانه ولا في أهل زمانه إلا القليل منهم.

فقد كان للحجاج استعدادا كبيرا لتلقي العلوم، وقريحة متفتحة، ولبا نيرا، وكذا طلاقة لسان وبراعة بيان ما أدهش به الأقران.

فقد أرسله والده إلى معلمي قريته لحفظ القرآن وتعلم العلوم،ففاق أقرانه في ذلك حتى أصابتهم الغيرة منه فأخذوا يعيرونه بقبحه.

1/ عمر أبو النصر:سيوف أمية، ص 315.

2/ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، ج6 ص 317.

3/ علي إبراهيم حسن، ص 297.

4/ القميئ- الذليل؛ ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، دار المعارف،ج5 ص3733 .

5/ الدقيق - خلاف الغليظ وهو النحيف؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج 2 ص1402.

6/ معروق العظام، ومعترق ومعرق- قليل اللحم؛ ابن منظور: المصدر السابق. ج4 ص 2906.

ولم يتوقف تعيير الحجاج بما سبق ذكره، بل تعداه إلى تعييره بأبيه على أنه معلم رغم أن أبا الحجاج كان فاضلا وكان من الأشراف في قبيلة ثقيف. ولقد ذكر ابن خلدون قوله:" فمن هذا الباب ما نقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين "(1)، ثم يصحح لما ذهب إليه المؤرخون ويبين بأن التعليم ليست صفة ذميمة ولا هي مجلبة للتعيير، بل على عكس ذلك، فإن مهنة التعليم في صدر الإسلام والخلافة الأموية وحتى في الدولة العباسية، لم تكن من الحرف والصنائع المعاشية بل كانت من باب التبليغ.

ونذكر قول ابن خلدون لتعميم الفائدة:" وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن العلم بالجملة صناعة، إنما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ..... والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت، ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش، وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام".(2)

فمقالة ابن خلدون هذه ردت على أقوال كل الذين عيروا الحجاج بمهنة أبيه في بداية حياته وانتقصوا من شأنه.

ولما شب الحجاج واشتد عضده، وقد آتاه الله من فضله من الفطانة ورجاحة العقل في تمحيص الأمور وقوة الحفظ ما أهله بأن يعمل في بلدته معلم صبيان، مع أخيه محمد خلفا لأبيهما يوسف .

غير أن صاحب كتاب سيوف أمية في الحرب والسياسة قد شكك في أن يكون الحجاج قد مارس مهنة التعليم في الكتاتيب وذكر أن أباه يوسف هو من مارس ذلك حينما ذكر:"والمعلمون في كل وطن أعلام الزمان ومصابيح الهداية، بيد أنه لم يثبت بصفة قاطعة أن الحجاج كان معلم كتاب، ولكن أبوه كان معلما، ولم يصل داء

.....

1/ المقدمة، ص 48.

2/ نفس المصدر ص 48 -49 بتصرف .

التعليم إلى العدوى بالورائة".(1)

4. الحجاج وطموحاته الكبيرة في الدولة الأموية.

فإذا ما صح حقيقة أن الحجاج كان معلما للكتاب في بداية حياته، فقد عاب عليه أقرانه ذلك، وعدوا له ذلك صفة ذميمة، وهذا ناتج من العداوات الشخصية وكذا الرغبة في الانتقاص،"ولقد اكتسب الحجاج من هذه الحرفة الفصاحة والقدرة على الخطابة" (2).

غير أن الحجاج قد وجد في نفسه جموحا كبيرا ورغبة أكبر في ترك هذه المهنة وكذلك مغادرة قريته، لما كان يطمح إليه فقد:" كان الحجاج طماحا إلى السلطان والمجد "(3) ولم يطق الحجاج الحياة الوادعة، ولم تكن هذه الحياة بالحياة المستحبة عنده، فغادر قريته وغادر الطائف إلى مقر الخلافة مع أبيه يوسف لأنه كان يرى أن الحجاز عامة والطائف خاصة قد ضاقت به ولم تعد المكان المناسب لتحقيق آماله وأمانيه.

ولقد تمت دعوة يوسف إلى مقر الخلافة تبعا لما أبداه من إخلاص في خدمة الدولة والقائمين على شؤونها، وما إن التحق الحجاج بدار الخلافة حتى أعجب بفصاحته سليمان بن نعيم وزير عبد الملك بن مروان، فجعله معلما .

وقد كانت هذه الوظيفة هي أول احتكاك للحجاج مع السلطة ورجالاتها، ومن هنا بدأ يرى ممارسات السلطة وكيفية إدارة دواليبها، ولم يبخل على نفسه بالمشاركة فيها. فقد ذكرت لنا بعض المصادر أن الحجاج قد سار مع الجيش الذي حضر مذبحة الحرة(4) التي وقعت في المدينة سنة 63هـ[683م] (5)؛ ولم تكن له مشاركة فعالة في هذه الوقعة.

ثم تأتي سنة 65هـ[685م]، أين شارك الحجاج مع أبيه يوسف في الجيش الذي أرسله مروان بن الحكم لمقاتلة عبد الله بن الزبير"رضي الله عنه" في مكة؛ إلا أن هذا الجيش قد مني

1/ عمر أبو النصر: سيوف أمية في الحرب والسياسة، ص 343-344.

2/ أحمد أفندي حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، الطبعة الرابعة، القاهرة شركة عابدين 1914م، ص96.

3/ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، ص297.

4/مذبحة الحرة: وهي الواقعة التي كانت في 27 من ذي الحجة سنة63 هـ ، بسبب خروج أهل المدينة على يزيد بن معاوية فجهّز لحربهم جيشا عليهم مسلم بن عقبة . الذهبي:العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد بن بسيوني زغلول،الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية 1405هـ/1985م،ج1 ص50.

5/ الذهبي: المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

هزيمة نكراء في المعركة التي دارت بينه وبين جيش ابن الزبير عرفت في التـــاريخ بمعركة الربذة(1).

وقد كتب القدر للحجاج وأبيه عمرا ثانيا، ونجا الاثنان من الموت في هذه المعركـــة إلا أن بعض المؤرخين يذكرون أن يوسف والد الحجاج قد هلك في هذه المعركة، إلا أن عمر أبو النصر يذكر في هامش ص317 (2)، نقلا عن ابن قتيبة في كتابه المعـــارف :" أن والد الحجاج لم يهلك في هذه المعركة "؛ ويذكر تأييد الطبري وابن كثير لما ذهب إليـــه دون أن يذكر المرجع والصفحة وما قالوه في ذلك.

وحجتهم في ذلك أن يوسف والد الحجاج لم يهلك في هذه المعركة، أن عبد الملـــك عهد إلى يوسف بعد ذلك –أي بعد المعركة – بإحدى الولايات، ولم يذكروا حتى اســـم الولاية التي عهد له بها عبد الملك .

وسواء هلك يوسف في هذه المعركة أولم يهلك، فإن الأمر الحقيق هو نجاة الحجاج ورجوعه سالما إلى مركز الخلافة.

ولما أبداه الحجاج من تفان وإخلاص وهو على العتبات الأولى في خدمـــة الخلافـــة وأهلها، فإن الخليفة قد قدر جهوده في ذلك، وتكريما لتلك الجهود وتشجيعا للحجـــاج فقد بعث به أميرا وحاكما على منطقة تبالة(3) باليمن. ولقد كان ذلك قبل أن يلتحـــق الحجاج بروح بن زنباع رئيس شرطة عبد الملك بن مروان، وقد ذكرت ذلـــك بعـــض المصادر والمراجع منها كتاب المعارف(4)، وكتاب سيوف أمية في الحرب والسياسة(5).

5. الحجاج سوط عبد الملك.

ويذكر القزويني(6)، أن الحجاج اتصل بوزير عبد الملك فكان في جملة شرطته وكان أن اشتـــكى عبد الملك لوزيره تخلف أقوام من جيشه بعد رحيله، فدله على الحجاج

.....

1/ الربذة: وهي قرية من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3ص27.

2/ سيوف أمية في الحرب والسياسة، ص 317.

3/ تبالة: بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن.معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج2 ص10-11.

4/ ابن قتيبة، ص180 وص 202.

5/ عمر أبو النصر، ص317.

6/ أثار البلاد وأخبار العباد، ص99.

وكان أن تخلف قوم من أصحاب الوزير عن رحيل الخليفة، فما كان من الحجاج بعد أن أمرهم بالرحيل فامتنعوا ثم شتموه وعيروه، إلا أن أحرق رحالهم .

فبلغ ذلك الخليفة فاستدعاه وقال له: لم أحرقت رحل الوزير ؟ فقال:لأنهم خالفوا أمرك، فقال للحجاج: ما عليك لو فعلت ذلك بغير الحرق؟ فقال الحجاج: وما عليك لو عوضته من ذلك ولا يخالف أحد بعد هذا أمرك؛ فأعجب الخليفة كلامه.

وذكر البستاني (1) رواية قريبة من رواية القزويني فيها بعض الاختلاف في آخرها حينما قال عبد الملك للحجاج:"ما حملك على ما فعلت ؟ قال: أنت فعلت، فإنما يدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين إلا أن يخلف على روح عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له، فأعجب به عبد الملك".

فبإمعان النظر والتمحيص، وباستعمال منهج الموازنة والمقارنة في الروايات، يتبين أن الحجاج – على الأرجح– قد اتصل بوزير عبد الملك ورئيس شرطته أول الأمر قبل أن يعين على منطقة تبالة.

فكيف لعبد الملك أن يعينه واليا من ولاته وهو لم يعرف الحجاج بعد و لم يخبر مواقفه و لم يتيقن من ولائه وميولاته ؟ وقد ذكر لنا التاريخ من أوصاف عبد الملك ما ذكر من حزم وضبط للأمور وكذا من رجاحة عقل وفطنة وكياسة في اختيار رجاله ومعاونيه.

فعلى الأرجح أن الحجاج التحق بالعمل كجندي من الجنود، غير أن انضباطه في صف الجندية والتزامه بالأوامر، أهله بأن ينال الحضوة عند وزير شرطة عبد الملك وجعله يتقدم في المراتب ويسود على أقرانه.

وللحجاج مع تباله قصة طريفة، فقد روى الجاحظ قائلا:"قال أبو اليقظان: كان أول عمل وليه الحجاج بن يوسف تباله، فلما سار إليها وقرب منها قال للدليل:أين هي؟

.....

1/ دائرة المعارف، ج6 ص698.

وعلى أي سمت هي؟ قال:تسترك عنها هذه الأكمة، قال: لا أراني أميرا إلا على موضع تسترني منه أكمة أهون بها علي، وكرّ راجعا، فقيل في المثل:أهون من تباله على الحجاج"(1).

فمن هذه الرواية التي ذكرها الجاحظ يتبين لنا طموح الحجاج الكبير والنفسية العالية التي كان يتمتع بها، ويتبين لنا كذلك نمو فكرة: أنه لم يخلق لصغار الأمور ولا للحياة الساكنة، فهو عال الهمة، وكان يرى أن في نفسه رغبة ملحة تدفعه إلى عظام الأمور.

ورجع ثانية إلى مركز الخلافة، والتحق بروح بن زنباع من جديد، ورجع إلى صف الجندية التي لم تبخل عليه ولتجعله قائدا في المستقبل بعد سقل مواهبه التي حباه الله بها.

6. الحجاج سيف عبد الملك.

ففي هذه المرحلة من عمره، برزت وتعددت مواهب الحجاج، ففصاحة لسانه وبلاغة كلامه جعلا منه خطيبا مصقعا، ورجاحة عقله وصدق عزمه جعلا منه داهية وبعد نظره واستقلال فكره جعلا منه قائدا، وممارسة الجندية واحتكاكه بالمجتمع والخلافة ولّدا فيه الحزم والعزم والجرأة وجعلاه قاسيا.

والحجاج بن يوسف مدين لعبد الملك بن مروان خليفة زمانه، فقد امتاز عبد الملك بصفات أكبر أو تضاهي صفات الحجاج، وقد تأثر الحجاج بالخليفة أيما تأثر، وساعد على نمو مواهب الحجاج تشجيع عبد الملك لهذا الطراز من الرجال، رجال الدولة، إذا ما علمنا أن الحجاج –كما ذكرنا سابقا- أصبح الآمر للجنود والمصاحب لعبد الملك في حله وترحاله .

وكما هو معلوم عند الباحثين، أن هذه الفترة قد شهدت انقسام عصا وحدة المسلمين حول الخلافة، فقد كان عبد الملك خليفة للمسلمين بالشام، وقد بايعه الناس هناك، وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة والمدينة وما تبعهما من أرض الحجاز.

ولقد حقق جند عبد الله بن الزبير انتصارات عسكرية على جند عبد الملك في بداية الأمر؛ وازداد التوتر بين القطبين المتناحرين على كرسي الخلافة، مما اضطر أحد

1/ الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: لحيوان؛ شرح وتحقيق: د/ يحي الشامي،الطبعة الثالثة، بيروت دار ومكتبة الهلال 1990 ،م1 ج1 ص177.

الخليفتين، وهو عبد الملك، إلى ترك مركز الخلافة ويخرج إلى مقاتلة مصعب عامل عبد الله بن الزبير على العراق، وهناك كانت النصرة لعبد الملك وجنده، وقد كان الحجاج أحد قادة هذا الجيش المنتصر، وكان من بين قادة الجيش المنهزم المهلب بن أبي صفرة الذي أمنه عبد الملك فيما بعد وجعله من جملة قادته.

ومن هذه المعركة بدأت حياة الحجاج السياسية والحربية، وبدأت مساهمته الفعلية في بناء الدولة التي يرى فيها أن طاعة خليفتها فرض على الأمة، وكل من خالف ذلك فقد وجبت مقاتلته.

7. الحجاج في الحجاز.

وقد توالت الأحداث على الحجاج كما توالت على الدولة التي يقاتل من أجلها وفي صف خليفتها حتى عظم على عبد الملك أمر عبد الله بن الزبير بمكة.

قام عبد الملك خطيبا في الناس يحثهم على مقاتلة ابن الزبير، إلا أن القوم نكسوا رؤوسهم ولم يقو أحد منهم للنهوض للقتال ولإطفاء نار الفتنة.

وما كان لهذا الموقف الصعب إلا الحجاج، الذي طلب من الخليفة أن يقلده أمر هذه المهمة الصعبة، لأنه كان يرى في نفسه أنه القائد الوحيد الذي يملك الجرأة والشجاعة المناسبة لمثل هذه المواقف.

فلم يهنأ للحجاج بال حتى أشرف على مكة المكرمة، ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس، وظل يرمي الكعبة الشريفة حتى انفض الناس من حول ابن الزبير ومات ابن الزبير في هذه المعركة، وقد كان ذلك في سنة 73هـ (693م).

ولقد أخطأ ابن الزبير- رضي الله عنه- حينما جعل:" مكة مقرا لحكومته، ظانا أنه ما من قائد سيجرؤ على الاعتداء على حرمتها وقدسيتها"(1)، إلا أنّ الحجاج قد فعل.

وبموت عبد الله بن الزبير-رضي الله عنه- على يد الحجاج هدأت الأوضاع بالحجاز وكافأ عبد الملك القائد المنتصر بأن جعله واليا على الحجاز كله.

وتمر السنة الأولى والثانية والحجاج في الحجاز يضبط الناس ويرسي قواعد النظام

1/ حسين أحمد أمين:المائة الأعظم في تاريخ الإسلام، ص37.

الذي يؤمن به هو كمنهاج للحياة، وأثناء حكمه هذا، أضاف له الخليفة منطقتي اليمن واليمامة، وذلك لما أبداه من إخلاص وتفان في خدمة الخلافة والخليفة .

ثم تزداد نار الفتنة اشتعالا بمنطقة العراق وتزداد حيرة عبد الملك فيمن يولي أمر هذه المنطقة ليطفئ هذه النار، ولا يجد غير الحجاج، وكأن القدر قد ساق الحجاج في هذه الفترة ليقوم بكل هذه المهام الشاقة، وليحفظ للدولة هيبتها ووحدتها.

8. الحجاج في العراق.

يتوجه الحجاج إلى ولايته الجديدة بالعراق، وما أن وطأت قدماه أرض العراق حتى حفته المشاكل والفتن من كل مكان بدء بنية الحصب بمسجد الكوفة، إلى الفتن التي ثارت بعد ذلك خلال مدة حكمه والتي دامت عشرين سنة.

فقد تم تقليده لحكم العراق سنة75هـ[695م]، واجه خلالها الحجاج العديد من الفتن بداية بثورة شبيب، وبعدها ثورة ابن الأشعث، وقد تخلل هذه الثورات ثورات أخرى لم يكن لها صيت كبير، ولم يكن لها نفس الأثر الذي خلفته ثورة شبيب وابن الأشعث، إلا أنها أثرت في سير حركة المجتمع الإسلامي وأنهكت قواه وشتتت جموعه.

فلقد كان العصر عصر فتن وثورات، وكان المعادون للحكم الأموي أكثر من الموالين له، ولقد عرف عن أهل العراق أنهم لا يخنعون ولا يطيعون إلا من شد شكيمتهم وأخذهم إلى جادة الطريق إن بالسوط أو بالسيف.

وكان الحجاج خير من أدى هذه المهمة لأهل العراق، وإذا ما صحت الرواية التي رواها الإمام الذهبي(1)، وهي نبوءة تنبأ بها الخليفة عمر"رضي الله عنه"، مفادها أن أهل العراق حصبوا أميرهم زمن عمر فعلم بذلك، فخرج غاضبا من فعلتهم، فصلى فسها فلما انتهى من صلاته خطب ومن جملة ما قال:" اللهم إنهم قد لبسوا علي فالبس عليهم وعجل عليهم بالغلام الثقفي"، قلت وإذا ما صحت هذه الرواية فإن الكثيرين ممن كتبوا عن هذه المرحلة قد فسروا أن المقصود بالغلام الثقفي هو الحجاج بن يوسف الثقفي.

1/ ينظر الرواية كاملة في: تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، ج 6 ص321.

لقد عانى الحجاج وهو يدير دواليب الحكم في العراق الشيء الكثير، وذلك لأنه كان يواجه معاول هدم للمجتمع من الداخل، وكذا عدو متربص من الخارج، بالإضافة إلى الفتوحات والأقاليم التي كان مسؤولا عنها؛ إذا ما علمنا أن الحجاج كان مسؤولا عن الإقليم الشرقي للدولة الإسلامية والتي امتدت حدودها إلى الصين.

فلقد كان يرسل إلى تلك الأقاليم نوابا عنه ينوبونه في الإدارة والتسيير والجباية والفتوحات عموما وما يتصل بها من تسيير.

و لم تبخل عبقرية الحجاج في زمن الراحة من التفكير في التعمير والبناء، كما لم تبخل من قبل زمن الحرب، فقد قام بالشيء الكثير في تعمير ما خربته الثورات الداخلية والفتن، وقام بالعديد من الإصلاحات وأدخل الشيء الكثير من التنظيمات والتشريعات وأحيا من السنن ما اندرس .

واشهر ما روي عنه في العمران بناؤه لمدينة واسط عام84هـ[704م]، والتي جعلها مقر إقامته ومركز إمارته وقاعدة جيشه،وكذا إعجام القرآن، واستصلاح الأراضي، وسك النقود و غيرها من الإصلاحات التي تتطلبها الدولة ومؤسساتها، وسنأتي إلى شيء من التفصيل لهذه الإصلاحات وما تفرد به الحجاج فيما يأتي.

و لم يهنأ الحجاج بالحياة و لم ينعم بها رغم أنه كان الرجل الثاني بعد الخليفة في الدولة الإسلامية، إلا أنه عاش خارج الإطار الإداري والرسمي في التسيير لشؤون الدولة كأي واحد من الرعية له أسرة وأبناء يحنو عليهم ويعتني بهم.

وقد عاشر الحجاج في أثناء ممارسته لمهامه في الدولة لاثنين من أعظم خلفاء بني أمية أولهم عبد الملك بن مروان،المؤسس الثاني لدولة بني أمية، والثاني ابنه الوليد، وهذا ما أعطى لهذه الفترة من حياة الدولة صبغة خاصة. فلقد تمتعت الأمة بعد عشرين سنة من حكم الحجاج لهذه المنطقة بنوع من الاستقرار والطمأنينة، وذلك من خلال السياسة التي انتهجها فيهم، فكان لا يعد إلا أنفذ وعده ولا يتوعد إلا أنفذ وعيده، فكان دائما يقرن قوله بفعله.

غير أن حياة وعمر الأشخاص مقارنة مع حياة وعمر الدول تعتبر مرحلة قصيرة وبموت الأشخاص الفاعلين في حركة ومسيرة هذه الدول تتعثر هذه المسيرة وهذه الحركة، كما يتركون ثغرات كبيرة في البناء الهيكلي للتسيير ولا يوجد من يعوضهم.

9. وفاة الحجاج.

ففي رمضان من سنة 95هـ[715م] على أرجح الأقوال، توفي الحجاج بن يوسف الثقفي بواسط وهو ابن ثلاث وخمسين، و لم يكن موته بالعادي، فقد تشعبت فيه الآراء والأقوال مثله مثل موت زياد.

فمن المؤرخين من قال بأنه مات بسبب أكلة وقعت في بطنه، ذكر ذلك ابن خلكان (1) والبستاني (2)، و إحسان صدقي العمد (3) وتابعهم في ذلك عمر فروخ (4).

ومنهم من ذكر بأن سبب موت الحجاج مرض و لم يحدد نوع هذا المرض ، ومنهم القزويني(5). ويذهب القزويني نفسه في موضع آخر من نفس الكتاب(6)، مع المؤرخين الذين عللوا سبب موت الحجاج بقتل هذا الأخير لسعيد بن جبير؛ وقد ذكر هذا الخبر كذلك خليفة بن خياط(7)،لأن الحجاج لم يعش بعد قتله لسعيد إلا يسيرا.(8)

ويذهب إحسان صدقي إلى تفنيد هذا الرأي بقوله:" أن موت سعيد بن جبير كان عام94هـ[714م] و هو العام الذي سمي عام الفقهاء لكثرة من توفي فيه منهم وأن الحجاج توفي في أواخر عام95هـ[715م] أي أن هناك أكثر من سنة بين وفاة الرجلين، وهو أمر يبعد معه أن يكون مقتل سعيد بن جبير سببا مباشرا في وفاة الحجاج "(9).

.....

1/ أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،الطبعة الأولى: 1367هـ 1948 م تحقيق: إحسان عباس الطبعة الأولى، بيروت، دار صادر ج2 ص53.

2/ دائرة المعارف، ج6 ص700.

3/ الحجاج بن يوسف الثقفي حياته وآراؤه السياسية؛ ص526.

4/ تاريخ الأدب العربي؛ ص550.

5/ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ؛ص100.

6/ آثار البلاد وأخبار العباد ،ص 256

7/ تاريخ خليفة، ص196.

8/ ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب؛ ج2 ص212.

9/ الحجاج بن يوسف، ص 530.

وهكذا فإن الذين أرخوا للدولة الأموية و لم يتوخوا الصدق في كتابـــاتهم، و لم يتخلصوا من نزواتهم ونزعاتهم وميولاتهم الحزبية الضيقة وكذا أحقادهم فإنهم أرخوا لهـذه المرحلة على أساس أنها مرحلة مُظْلِمة، وأن حكامها ظلمة وقتلة .

فوصفُهُم للحجاج بجميع الأوصاف القبيحة، ومحو جميع أعماله وأفضاله على الأمـــة وخدماته الجليلة التي قدمها، يبين مدى حقد الأقلام التي كتبت عنه، وحتى وهو يحتضر لم يسلم من التهجم والتهكم ووصفه بما لا يجب.

فقد قيل في حقه أنه قنط من رحمة الله وهو في الرمق الأخير من دنياه، من كثرة مـــا ارتكب من منكرات وأمور عظام وما سفك من دماء .

ولا نجد إلا القليل من المؤرخين من كتب بحياد عن مرحلة الدولة الأموية عامة وعن حياة الحجاج خاصة، وهذا ما أكده بعض الباحثين والمؤرخين خاصة في العصر الحديـــث فقد ذكر الدكتور محمد ماهر حمادة (1) أن العصر الأموي عصر مظلوم، وذكر محمـــــود شاكر أيضا (2)في أكثر من موضع هذه الحقيقة في كتابه التاريخ الإسلامي.

غير أن كتب التاريخ حفظت لنا مما حفظت قول الحجاج عند الاحتضار:

يا رب قد حلف الأعداء و اجتهدوا ..... بأنني رجل من ساكني النار

أيحلفـــون على عميـــاء ويحهـــم ..... ما علمهم بكثير العفو ستار(3)

وقد ذكر ابن منظور هذين البيتين باختلاف في عجز البيت الأخير باستبدال كلمة "ستار" بكلمة "غفار".(4)

ومن خلال هذه الشهادة التي أقر بها يتبين، دون انحياز، أن الحجاج وإن أسرف

.....

1/ دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره(العصر الأموي)، الطبعة الأولى بيروت مؤسسة الرسالة 1408هـ /1988م، ص20

2/ التاريخ الإسلامي، الطبعة التاسعة بيروت المكتب الإسلامي 1411هـ/ 1991م ج3 ص 14 وج4 ص(5، 6، 19، 20، 50)

3/ الذهبي: تاريخ الإسلام ، ج6 ص 325-326.

4/ تهذيب تاريخ دمشق، ج4 ص 85.

في بعض أموره وانحرف عن الجادة في بعض التطبيقات العملية :" يبقى أنه لا ينكر عليه أحد أنه أنقذ أكثر من مرة الدولة الأموية التي خدمها"(1) ويبقى أنه مؤمن مقر بذنوبه ويرجو رحمة ربه؛ وقد شهد له بذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز حينما قال فيما رواه الذهبي:" ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله، وقوله حين احتضر: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل"(2)

وتبقى هذه نبذة مختصرة عن حياة الحجاج بن يوسف، وهي مقدمة لما سيأتي في المباحث القادمة، أين يتطرق البحث حسب ما تقتضيه الدراسة إلى باقي الجوانب الحياتية له والتي قد تكون معلومة عند الدارسين قديما، أو ما اكتشف منها حديثا بالبحث والتنقيب في المصادر والمراجع التي كتبت عن هذه المرحلة ودونت لدولة بني أمية ورجالها وصانعي أحداثها وتاريخها ومجدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

.....

1/ D .AMAR. COP CIT P158

2/ تاريخ الإسلام، ج6 ص 325.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني:

﴿ الحجـــاج بن يوسف الثقفـــــي﴾

المبحث الثاني:

* علاقة الحجاج بالسلطة المركزية *

1. حقائق ومسلمات في حياة الحجاج السياسية.

2. ولاء الحجاج للخلافة ومدى تنفيذه للأوامر.

3. علاقة الحجاج بالسلطة المركزية:

- العلاقة الطيبة والمتينة.
- تأزم واهتزاز العلاقة.

4. مكانة الحجاج في السلطة المركزية:

- مكانة الحجاج عند عبد الملك بن مروان.
- مكانة الحجاج عند الوليد بن عبد الملك.

1. حقائق ومسلمات في حياة الحجاج السياسية.

قد يصاب المؤرخ بالدهشة والحيرة وهو يكتب عن حياة الحجاج أو يدرس عنه وذلك راجع لنفسيته العجيبة التي يمتلكها ولتركيبته الفيزيولوجية، والتي انعكست على قراراته وسيرته التي سار بها في نفسه وفي الرعية وكأن الواحد أمام ظاهرة بشرية تاريخية من طراز فريد جدّ مبهمة ومعقدة.

غير أن بعض الحقائق، والتي تفسر لنا بعض جوانب الغموض في هذه الشخصية استقرت في نفس الحجاج واقتنع بها جعلته يختار لنفسه منهجا خاصا به في الحياة، مع ارتباط هذه الحقائق ارتباطا وثيقا بعوامل خارجية ومحيط كان لهما الأثر الكبير كذلك في اختيار هذا المنهج.

من هذه الحقائق، أن الحجاج كان موظفا في الدولة الأموية مخلصا لها ولرجالها خاصة عبد الملك الذي أقر سياسة الحجاج وإن اختلف معه في طريق تنفيذها، غير أنه لم ينكرها عليه لما علم من صدق نية الحجاج، وأنه أمين لما استأمن في زمن كثرت فيه الثورات و أصبحت فيه صفة الإخلاص و الولاء للحاكم عملة نادرة .

يقول د/ محمد ماهر حمادة:" والمبدأ الأساسي الذي يصدر عنه الحجاج والذي أخذ نفسه به وأخذ الآخرين به هو مبدأ الطاعة المطلقة لولي الأمر، فالأمر الذي يصدر عن الحاكم يجب تنفيذه"(1).

زد على هذا، أن الحجاج كان في أسلوب سياسته مخيرا بين أمرين أحلاهما مذاقه كطعم العلقم، إما أن يختار اللين، وقد رأى في سيرة ممن سبقوه أن هذا الأسلوب مع أهل العراق والثائرين غير مجد، وإما أن يختار الشدّة وهو الخيار الذي ما كان له منه بد فالتزمه وألزم به غيره.

وجانب ثالث من الحقيقة الغائبة عن كثير من الناس، وهو أن الحجاج كان يرى في وحدة المسلمين أمر مسلّم به، وواجب تطبيقه وإقراره في واقع الناس المعيش ولذا وجبت المحافظة عليه، وعلى إحلاله حيّز التنفيذ، والمدافعة عليه كمكسب شرعيّ وضروريّ للأمة، ولو تطلب منه ذلك استعمال أسلوب الشدة والقوة، لما يحقق ذلك من مصلحة الفرد التي هي جزء من مصلحة الدولة، ولكن مصلحة الدولة تعلو فوق الجميع وهي

1/ دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي و مصادره،ص54

الولاية إلا في آخر عمره في خلافة معاوية"ﷺ"، وفي أثناء خدمته للخلافة الراشدة كثرت تجاربه، واستفاد من أخطاء غيره، وبلغ درجة كبيرة من النضج والوعي السياسي، بالإضافة إلى أن المجتمع كان يشهد نوعا من الاستقرار، وبداية ظهور الأحزاب و الفرق الإسلامية ووجود بطانة الخير لقرب هذا العهد بالخلافة الراشدة ودولة الرسولﷺ .

على عكس الحجاج الذي اعتلى منصب الولاية وهو في سن مبكرة، تنقصه التجربة الكافية واللازمة لسياسة الأمة في زمن كثرت فيه الثورات والانقلابات السياسية والتقلبات الاجتماعية،وقلّ فيه النّاصحون، وحتى من بقي من البطانة الصالحة اعتزل النّاس والسياسة وكثر أتباع الفرق والأحزاب وأصبح فكرهم وتنظيرهم واقعا معيشا وكيانا قائما يدافعون من أجله ويعيشون له دون تفكير في مصير الأمة كأمة فأصبحت النظرة الحزبية الضيّقة والأحادية الفردية هي المسيطرة على واقع النـاس ونسوا قول الله تعالى:"وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا "(1).

3.علاقة الحجاج بالسلطة المركزية.

➢ العلاقة الطيبة والمتينة:

فبعد هذا الاستقراء السريع لهذا الواقع ولهذه الوقائع يمكن دراسة وفهم العلاقة وفهم طبيعتها والتي كانت تحكم الحجاج في معاملته مع رئاسة الدولة.

فقد كانت العلاقة في بداية تولي الحجاج للمهام في الدولة الأموية علاقة طيبة وعلاقة موظف مسؤول عن جميع أفعاله وسلوكا ته أمام الخليفة، ولا يحق له اتخاذ أي قرار إلا بالرجوع إلى السلطة المركزية وتنفيذ أوامرها.

و تجلى هذا النوع من العلاقة في الكثير من المواقف في حياة الحجاج نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر، فمنها ما قام به مع أعوان روح بن زنباع(2) لما تخلفوا عن الرحيل لما ارتحل الخليفة؛ فقد جلد غلمان روح بالسياط وطوف بهم وحرق فساطيطهم فاشتكى روح من ذلك إلى الخليفة فاستدعاه الخليفة وحاوره في ذلك، فقال له الحجاج

1/ سورة البقرة؛ الآية 143.

2/ روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي أبو زرعة أمير فلسطين وسيد اليمانية في الشام قيل أن له صحبة. وكان عبد الملك يقول:جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز وله مع عبد الملك وغيره أخبار توفي سنة84هـ/703م.الزركلي: الأعلام، ج3 ص34.

فقد تفطن عبد الملك إلى أن الدولة لا تبنى على جماجم المسلمين عامة أو أهل البيت خاصة، فوضع خطة جديدة وأمر الحجاج بتنفيذها حينما كتب إليه يقول:" جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء الحرب[بفتح الراء ومعناها الغضب] وإني رأيت بني حرب تداعى ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي".(1)

وموقف آخر يبين لنا ويؤكد هذه العلاقة وطبيعتها، وأن الحجاج ما هو إلا منفذ لسياسة الخليفة، عندما ولاّه العراق، فقد ذكرت بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان هو الذي أملى سياسة الشدّة على واليه وأمره أن يسير بها في الرعية.

يقول عبد الرزاق محمد أسود:" فهذا عبد الملك بن مروان نراه قد ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر العراق وأوصاه أن يطأ الكوفة وطأة يتضاءل لها أهل العراق"(2)

وقد كان عبد الملك بحاجة ماسة إلى حاكم قوي شديد، فلم يجد غير الحجاج أهلا لهذا المنصب وهو:" المشهور بحزمه و تفانيه في خدمة البيت الأموي"(3).

وبقي الحجاج وسيلة من وسائل عبد الملك بن مروان ينفذ بها سياسته في العراق وما جاورها من أراضي الدولة الإسلامية، فقد بقيت حريته مقيدة في التخطيط والتوجيه والإنفاذ طيلة حكمه للعراق زمن عبد الملك، وبقيت العلاقة بينهما علاقة آمر ومنفذ "وظل الحجاج يستمد قوته بالدرجة الأولى من تأييد الخليفة له ويعتبر نفسه مسؤولا أمامه"(4)

وتتجلى هذه العلاقة وطبيعتها في صورتها الواضحة التي لا شك فيها وأن الحجاج كان مسؤولا عن جميع أفعاله أمام الخليفة، ومنفذا لما يراه الخليفة صالحا في تسيير مصالح الرعية، قلت تتجلى في أخذ البيعة لعبد الملك، والذي رتب أيمانا مغلظة اشتهرت بين الفقهاء فيما بعد بأيمان البيعة . فقد نفذ الحجاج الأوامر تنفيذا محكما

.....

1/ أحمد شلبي : الدولة الأموية، ص55.

2/ عبد الرزاق محمد أسود: موسوعة العراق السياسية،الطبعة الأولى، بيروت،1986، م1 ص 256. نجدة خماش : الإدارة في العصر الأموي،ص299

3/ إبراهيم أحمد العدوي: نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا و فروعه العظمى،القاهرة، دار الفكر العربي ص271.

4/ نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، ص124

:" أنا ما فعلت، أنت فعلت إنما يدي يدك وسوطي سوطك"(1) فأعجب الخليفة بـــه وبرأيه وأمضاه لما فعل.

ويعلق ابن خلدون على هذه الحادثة تعليقا لطيفا مبيّنا مكانة الحجاج عنـــد الخليفـــة نذكره جاء فيه قوله:" ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب، فإنه لا يتـــولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بوادر السفهاء من أحيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك، ولذلك اختصّه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته" (2)

ثم جاء حصار مكة واعتصام عبد الله بن الزبير(3) بها، و قد طال الحصار مدة طويلة كان الحجاج خلالها يستشير الخليفة في كل ما يأتي وما يذر، وينفذ أوامره كما هـــي وحتى بعد مقتل ابن الزبير وترميم الحجاج لما تصدّع من حيطان الكعبة:"شاور عبد الملك فيما بناه وزاده[ابن الزبير] في البيت، فأمره بهدمه وردّ البيت على قواعد قريش كما هي اليوم".(4)

وموقف ثالث للحجاج مع محمد بن الحنفية(5)، حينما أصبح واليا على مكة بعـــد مقتل عبد الله بن الزبير، فقد طالب الحجاج من محمد بن الحنفية مبايعة عبد الملـــك بـــن مروان فأبى محمد و لم يستطع الحجاج أن يفعل شيئا معه رغم أنه توعده إن لم يبايع، فمـــا كان لمحمد هذا إلا مراسلة الخليفة بكتاب يبايعه فيه ويشكو فيه أمـــر الحجـــاج؛ فجـــاء جواب الخليفة لواليه يوضح فيه أمر ابن الحنفية:" ويأمره بحسن جواره وإكرامه ، فرجـــع ابن الحنفية إلى المدينة".(6)

.....

1/ عمر أبو النصر: سيوف أمية، ص318 .

2/ المقدمة، ص474 .

3/ عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي القرشي الأسدي ، يكنى أبا بكر ، أمه أسماء بنت أبي بكر، هو أوّل مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة ، قتل في أيام عبد الملك سنة 73هـــ ابن عبد البر:الاستيعاب، ج3 ص 39 وما بعدها بتصرف.

4/ ابن خلدون : المقدمة، ص625

5/ محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو القاسم المعروف بابن الحنفية، أمه خولة بنت جعفر الحنفية ولد سنة 21هـــ/642م كان واسع العلم ورعا أسود اللون، خرج إلى الطائف هاربا من ابن الزبير فمات هناك سنة 81هـــ/700م. الزركلي: الأعلام، ج6 ص270.

6/ ابن سعد:الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ج5 ص83.

فقد تفطن عبد الملك إلى أن الدولة لا تبنى على جماجم المسلمين عامة أو أهل البيت خاصة، فوضع خطة جديدة وأمر الحجاج بتنفيذها حينما كتب إليه يقول:" جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء الحرب[بفتح الراء ومعناها الغضب] وإني رأيت بني حرب تداعى ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي".(1)

وموقف آخر يبين لنا ويؤكد هذه العلاقة وطبيعتها، وأن الحجاج ما هو إلا منفذ لسياسة الخليفة، عندما ولاّه العراق، فقد ذكرت بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان هو الذي أملى سياسة الشدّة على واليه وأمره أن يسير بها في الرعية.

يقول عبد الرزاق محمد أسود:" فهذا عبد الملك بن مروان نراه قد ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر العراق وأوصاه أن يطأ الكوفة وطأة يتضاءل لها أهل العراق"(2)

وقد كان عبد الملك بحاجة ماسة إلى حاكم قوي شديد، فلم يجد غير الحجاج أهلا لهذا المنصب وهو:" المشهور بحزمه و تفانيه في خدمة البيت الأموي"(3).

وبقي الحجاج وسيلة من وسائل عبد الملك بن مروان ينفذ بها سياسته في العراق وما جاورها من أراضي الدولة الإسلامية، فقد بقيت حريته مقيدة في التخطيط والتوجيه والإنفاذ طيلة حكمه للعراق زمن عبد الملك، وبقيت العلاقة بينهما علاقة آمر ومنفذ "وظل الحجاج يستمد قوته بالدرجة الأولى من تأييد الخليفة له ويعتبر نفسه مسؤولا أمامه"(4)

وتتجلى هذه العلاقة وطبيعتها في صورتها الواضحة التي لا شك فيها وأن الحجاج كان مسؤولا عن جميع أفعاله أمام الخليفة، ومنفذا لما يراه الخليفة صالحا في تسيير مصالح الرعية، قلت تتجلى في أخذ البيعة لعبد الملك، والذي رتب أيمانا مغلظة اشتهرت بين الفقهاء فيما بعد بأيمان البيعة . فقد نفذ الحجاج الأوامر تنفيذا محكما

1/ أحمد شلبي : الدولة الأموية، ص55.

2/ عبد الرزاق محمد أسود: موسوعة العراق السياسية،الطبعة الأولى، بيروت،1986، م1 ص 256. نجدة خماش : الإدارة في العصر الأموي،ص299

3/ إبراهيم أحمد العدوي: نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا و فروعه العظمى،القاهرة، دار الفكر العربي ص271.

4/ نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، ص124

وعلى أكمل وجه، وأخذ البيعة لعبد الملك وألزم الناس الطاعة وجعل ولاءهم لقيادة واحدة واستطاع جمع شمل المسلمين.

ولم يكن للحجاج أن يتخذ أي موقف في سياسته العامة للمسلمين إلا إذا رجع إلى مركز الخلافة، ولا يقدم عليه إلا إذا كان يحقق الهدف العام للسياسة المرسومة من السلطة المركزية، حتى وهو يعاقب الخارجين على الدولة و الشاقين لعصا وحدة المسلمين كان يرجع إلى الخليفة و ينفذ ما يمليه عليه من أوامر.

وقد تكون للحجاج فلتات في تطبيق هذه السياسة، مثلما وقع مع خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك(1) رضي الله عنه، والذي أيد ثورة عبد الله بن الجارود(2)، وكان في جملة من انضم إليها، فلما انتصر الحجاج وقتل ابن الجارود، أساء الحجاج معاملة أنس وأخذ ماله وقال له قولا غليظا وشتمه، فكتب بذلك أنس إلى الخليفة، فانتصف له عبد الملك من واليه الذي أساء فهم الأوامر وتطبيقها وتعدى حدوده في ذلك، فكتب إليه كتابا طويلا جاء فيه:" فأكرم أنسا وأهل بيته، وأعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ ولا تقصرن في شيء من حوائجه، ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره وإكرامه".(3)

ولم يعترض الخليفة على ما قام به الحجاج ولا فيما ذهب إليه في تأديب الخارجين ومناصريهم لأن عبد الملك:" أراد استئصال جرثومة الشر من جذورها وإلحاق القصاص بالدنيا فيمن انتهك حدود الله".(4)

وبقي عبد الملك يوجه سياسة واليه و يتدخل في ترشيد خطاه وتصحيح خطاياه كلما رأى ذلك لازما ؛ فلما رأى إسراف الحجاج في إخراج المال و عدم ترشيده للنفقات وكذا في التمادي في استعمال الشدة والقسوة في غير محلها، كاتبه يعاتبه و يرده إلى جادة الطريق قائلا:" أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في

.....

1/ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد ، خادم رسول الله ﷺ ، يكنى أبا حمزة ، أمه أم سليم بنت ملحان الأنصارية وهو آخر من مات بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ. ابن عبد البر: الاستيعاب،ج1 ص198.

2/ عبد الله بن الجارود:هو عبد الله بن بشر بن عمرو العبدي ، سيد بني عبد القيس في عصره ، كان شجاعا صاحب رأي وفصاحة، كانت بينه وبين الحجاج وقائع شديدة انتهت بمقتله سنة 76هـ. الزركلي: الأعلام،ج4 ص74.

3/ بسام العسلي : عبد الملك بن مروان، ص186-187.

4/ نفس المرجع ، ص125.

الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس"(1).

أما ما دون هذا، فإن عبد الملك بن مروان قد ترك للحجاج بعض التصرف في شؤون الدولة يسيّرها في حدود صلاحياته مـا لم يتعدّهـا؛ لأن عبـد الملـك خـلال فـترة حكـمه:"كان يراقب سيرته [أي سيرة الحجاج]وأعماله ويوجه إليه بين الحين والآخـر تعليمات وإرشادات وانتقادات، الأمر الذي استمر معه الحجاج يحسب ألـف حسـاب للخليفة عبد الملك"(2)

- **تأزم واهتزاز العلاقة:**

ولم تهتز العلاقة الطيبة والتي كانت بين عبد الملك والحجاج إلاّ عندما شهدت السـلحة السياسية أزمة كانت قوية وشديدة هبت رياحها على الخلافة عامة، وكان لها الأثر الكبير حتى على مركـز الخلافـة نفسه، وكادت تعصف بالحجاج وبالمجهودات التي بذلها أثناء خدمته في الخلافة، وكانت عليه محنة كبيرة تمثلت هذه الأزمة في فتنة عبد الرحمـن بـن الأشعث(3)، أحد قادة الجيوش الفاتحين للإقليم الشرقي من الدولة الأموية.

هذه الفتنة التي استمرت سنوات عدة، سال فيها الكثير مـن دم المسـلمين وغـير المسلمين ممن ظاهروا على الخلافة عامة، والحجاج بخاصة . فما كان لعبد الملك- لما هاله ما وقع في داخل خلافته من انشقاق عصا وحدة المسلمين وما يتربص بهم من عدوهـم خارج حدود الخلافة- إلا أن يتدخل؛ واستعمل الحلم والسياسـة، وأبـدى اسـتعدادا للتضحية بأمضى سيوفه وهو الحجاج إذا ما قبل الثائرون ذلك.

ولكم كانت الصدمة قوية وعنيفة على نفس الحجاج وهو الذي وطد حكم بني أمية وتفانى في خدمة الخلافة وكان فضله على بني أمية عظيما،وساءت الأحوال واضطربت وتعقد موقف الحجاج، وكاد خيط العلاقات بينه وبين الخليفة ينفصم لولا فضل الله عليهما.

فقد أرسل إلى عبد الملك جوابا يشرح فيه موقفه وكيف يجب التعامل مع هذه الأزمـة وطريقة حلها مذكرا إياه بالعهد الذي سبق؛ وكيف وقعت فتنة الثائرين على

1/ أحمد شلبي :الدولة الأموية، ص63-64.

2/ نجدة خماش : الإدارة في العصر الأموي، ص124

3/ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ، أمير ، من القادة الشجعان الدهاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج الثقفي خرج ومن معه من الجيش عن طاعة الحجاج وعبد الملك، قتل سنة 85هـ وبعث برأسه إلى الحجاج. الزركلي: الأعلام ج3 ص 323 وما بعدها بتصرف.

الخلافة الراشدة زمن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ والتي كانت بدايتها الثورة على واليه سعيد بن العاص(1) وأدت في النهاية إلى قتله ﷺ وكيف هم أهل العراق، وأنهم لا يرضون بخليفة أو وال ولا يرضخون له ولا يطيعوه إلا إذا أخذهم بالبأساء والضراء والشدة .

وحتى ولو تم عزل الحجاج فإنهم لن يتوقفوا عند هذا الموقف بل سيتابعون ثورتهم ويبقى ديدنهم التأليب ضد الحكم الأموي عامة حتى يخلعوا الخليفة نفسه.

ويسوق القدر الأمر ثانية بيد الحجاج لما رفض الثوار عرض الخليفة، لتستقيم العلاقة من جديد وتتجدد بتجدد الثقة التي وضعها الخليفة في واليه، وأمره أن يجرد فيهم السيف، فكانت معارك طاحنة بين الحجاج والخارجين؛ ووقائع حسم الأمر فيها للحجاج فانتصر وانهزم أهل العراق، وقد هلك في هذه الوقائع الكثير من الأرواح وسالت فيها الكثير من الدماء، وما كان للحجاج فيها بد من استعمال الشدة والسيف وهو يرى عرى الدولة قد حلت أو أوشكت، و هو يرى كذلك صواري الدولة تتقوض.

وقد أبلى الحجاج في إخماد هذه الفتنة البلاء الحسن، وقد كان معذورا فيما ذهب إليه من تجريد السيف، فيما قاله بعض المؤرخين، لأنه كان مضطرا في ذلك :"فاللجوء إلى العنف واستخدام البطش والإرهاب وحمل الأمور على محمل الشدة والقسوة لم يكن وسيلة في حد ذاته "(2)؛ لأن الحجاج كان يرى في الحكم الأموي هو الحكم الإسلامي الشرعي الواجب اتباعه والانضواء تحت رايته وكل من خالفه فقد أوجب على نفسه العقاب.

وبالإضافة إلى هذا، كان الحجاج يرى أن استتباب الأمن واجب محتم للحفاظ على كرامة الإنسان المسلم، وهذا ما ذكره بسام العسلي في تتمة مقالته التي سبق ذكرها أن استخدام القسوة لم يكن وسيلة في حد ذاته :" وإنما كان وسيلة لبلوغ غاية أسمى وأنبل

1/ سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي القرشي صحابي من الأمراء الفاتحين ولد عام 3هـ/624م وربي في حجر عمر بن الخطاب وولاه عثمان الكوفة وهو شاب فلما بلغها خطب في أهلها ونسبهم إلى الشقاق والخلاف فشكوه إلى عثمان فاستدعاه إلى المدينة فأقام فيها ثم خرج إلى مكة فأقام إلى أن ولي معاوية الخلافة فعهد إليه بولاية المدينة فتولاها إلى أن مات سنة59هـ/679م. الزركلي: الأعلام، ج3 ص96.

2/ بسام العسلي: عبد الملك بن مروان، ص 124.

هي ضمان أمن الإنسان المسلم وحماية مقدساته من الانتهاك"(1)

وبهذا الإنجاز العظيم الذي قام به وقدمه للخلافة، زادت منزلة الحجاج عند الخليفة عبد الملك، فأصبح بمثابة الوزير حتى وإن لم يلقب بذلك، وأصبح الرجل الثاني في الدولة يستشيره الخليفة في كل ما يأتي وما يذر، وهو في ذلك كله لا يبخل بمشورة .

ومثال ذلك استشارة الخليفة للحجاج فيمن يولي إمارة خرا سان لما أمره قائلا:"انظر لي رجلا صارما ماضيا لأمرك، فسمى له قتيبة بن مسلم (2)الباهلي"(3).

وزادت العلاقة متانة بينه وبين عبد الملك لما أبداه الحجاج من كفاءة في القيادة وإخلاص في الخدمة وقد :" كان عبد الملك أعرف الرجال بالرجال"(4)، لذلك كان يتابع أعمال عماله وأشغالهم وإنشغالاتهم وكان :" يقربهم إليه على قدر غنائهم في الحرب وكفاءتهم في القيادة"(5)

ولما علم الوشاة أن الخليفة يحاسب عماله على الصغير والكبير من شؤونهم حتى في أحوالهم الشخصية استغلوا ذلك لإفساد العلاقة الطيبة التي كانت تربط الحجاج بالخلافة عامة والخليفة على وجه الخصوص؛ فقد كان زواج الحجاج بأم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر (6) سببا في تدخل الخليفة في حياة الحجاج الشخصية وإلزامه بتطليقها بعد وشاية الوليد بن عبد الملك عند أبيه لما قال له:"إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف" (7)، إلا أن ذلك لم ينقص من مرتبة الحجاج شيئا بل لقد عدّ الحجاج من بين الرجال القلائل المهمين الذين اعتمد عليهم عبد الملك في توطيد الحكم والخلافة لنفسه ولبنيه من بعده.

.....

1/ بسام العسلي: عبد الملك بن مروان ، ص124.

2/ قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين الباهلي أبو حفص أمير فاتح من مفاخر العرب ولد عام 49هـ/669م نشأ في الدولة المروانية فولي الريّ في أيام عبد الملك وخراسان في أيام ابنه الوليد، وثب لغزو ما وراء النهر فتوغل فيها وافتتح كثيرا من المدائن وأذعنت له بلاد ما وراء النهر كلها واستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة. بعد موت الوليد استخلف سليمان بن عبد الملك وكان هذا يكره قتيبة فأراد قتيبة الاستقلال بما في يده وجاهر بنزع الطاعة واختلف عليه قادة جيشه فقتله وكيع بن حسان التميمي بغرغانة عام 96هـ/715م. الزركلي: الأعلام، ج5 ص189-190.

3/ بسام العسلي : قتيبة بن مسلم الباهلي، الطبعة السادسة بيروت دار النفائس 1985م، ص25

4/بسام العسلي :المرجع السابق ص 141

5/ نفس المرجع ، ص122

6/أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي وهي بنت أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة وكان أبوها كريما جوادا ظريفا. ابن عبد البر:الاستيعاب، ج3 ص17.

7/ جرجي زيدان :الحجاج بن يوسف الثقفي، ص 32.

4.مكانة الحجاج في السلطة المركزية:

➢ مكانة الحجاج عند عبد الملك بن مروان:

وتتبين لنا مكانة الحجاج ودوره الكبير الذي لعبه في توطيد أركان الخلافة الإسلامية لبني أمية عامة ولعبد الملك على وجه الخصوص في الوصية التي أوصى بها عبد الملك ابنه الوليد؛ فقد قال له:"و انظر الحجاج فأكرمه فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد على من ناوأك، فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك"(1)

ويعلق أحمد شلبي على هذه الوصية فيقول:"وقد كانت هذه الوصية عميقة الأثر في نفس الوليد وجدير بها أن تكون كذلك"(2)

و لم تكن المكانة المرموقة والمرتبة السامقة التي وصل إليها الحجاج في الخلافة الإسلامية مكسبا هينا توصل إليه فقط بتجريده للسيف وخوضه في دماء الخارجين على الحكم الأموي، وإنما كان له ذلك من جانب ثان أبدع فيه الحجاج وتفنّن حين أعطى الصبغة العربية الإسلامية للخلافة على مستوى مؤسساتها وطريقة تسييرها.

فقد أبلى الحجاج البلاء الحسن في توطيد النظام الإداري والسياسي للولايات بتعريبه للإدارة المالية (السكة)، وكذا بتحويله الدواوين إلى لغة القرآن.وبفعلته هذه:" تقلص نفوذ أهل الذمة "(3) في الدولة مما ساعده على التحكم أكثر في المراقبة والمتابعة لأن:" حسابات الدولة [كانت] في يد صغار الموظفين الذين كثيرا ما زوروا وتلاعبوا فيها"(4).

ولوضع حد لهذا التلاعب، فقد حدّد عبد الملك للحجاج وزن الدرهم، وبعث الحجاج بذلك إلى عماله في الأمصار:"وأمر عماله أن يرفعوا إليه تقريرا شهريا عن مقدار ما يضربونه من دراهم"(5)، وهدّد كل من يتعامل بغيرها.

ومن قبل هذا، فقد كان للحجاج الفضل في تعمير الكعبة بعد الدمار الذي حلّ بها وبجدرانها أثناء حصاره لابن الزبير، وقد بناها على قواعد قريش كما تقدم.

فالحجاج في ساعة الرّاحة والدعة والسلم ليس هو ذاته الحجاج المقاتل للعدو أو

1/ ينظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء،ص220 . أحمد شلبي : الدولة الأموية ،ص75.

2/ المرجع السابق: نفس الصفحة.

3 / د/ علي الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص29.

4/ نفس المرجع والصفحة.

5/ نفس المرجع ص 218

المؤدب للخارجين، بل هو رجل بناء وتعمير وتشييد.

فقد روى غير واحد من المؤرخين أن الحجاج لما رأى الحالة النفسية للمجاهدين المسلمين و الفاتحين بدأت تنهار ، ووجد فيهم تقاعسا ، وأن الناس قد أهمتهم أنفسهم و لم يعودوا يحملون مشعل الفتوحات الإسلامية كما كان أسلافهم جعل التجنيد إجباريا ويذكر الخربوطلي قوله:" لم يعد الناس يرون ما يدفعهم إلى الحرب طوعا فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء إلى التجنيد الإجباري، ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان"(1).

و لم يكتف الحجاج بهذا الإجراء الميداني الإداري، بل فكر في طريقة أكثر جدية ونجاعة للمحافظة على عقد لواء الجهاد في سبيل الله وفتح البلاد، ولتجنيب الجند حياة الدعة والاستمتاع باستصلاح الأرض والارتباط بها، وكذا تجنيبهم مصادر الفتن – وقدكان الحجاج يرى أن البصرة والكوفة كانتا موضعين لمصادر الفتن – فقد بنى مدينة واسط (2)، وهو أول من خطّها وبناها على أسس أقرب إلى العلمية منها إلى العشوائية لأنه كان خبيرا بأحوال البلاد والعباد ومطلعا بالأخبار، وما وصفه لمدينتي الكوفة والبصرة في مجلس الخليفة عبد الملك إلا دليل على ذلك على ما روى القز ويني(3).

- **مكانة الحجاج عند الوليد بن عبد الملك:**

وقد بقت مكانة الحجاج محفوظة في مركز الخلافة حتى بعد وفاة عبد الملك، فقد بقي الحجاج المستشار الأول في الدولة للخليفة الوليد بن عبد الملك، وقد أخذ الوليد في ذلك بنصيحة والده، والتي تقدم ذكرها، والتي أوصاه فيها بإكرام الحجاج والاعتناء بأموره وعدم سماع أي قول أو وشاية فيه لأن مركز الخلافة أحوج للحجاج منه هو إليها.

وقد فقه الوليد هذه الوصية وعلم أن كل ما فعله الحجاج وما قدّمه إنما كان إخلاصا منه للخلافة، وإيمانا منه إيمانا عميقا بمبادئه التي كان يعيش من أجلها ولها والتي سبق وأن

---

1 / الحضارة العربية الإسلامية، ص 55

2 / مدينة واسط :مدينة بناها الحجاج بين البصرة والكوفة ، وشرع في تعميرها سنة 83هـ وقيل سنة 84هـ، وفرغ منها سنة 86هـ . ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5 ص 400 وما بعدها.

3 / آثار البلاد وأخبار العباد، ص 250

ذكرت في مقدمة هذا المبحث.

زد على هذا، أن الحجاج عرّض نفسه للكثير من الأخطار أثناء أدائه لمهامه في تسيير دواليب الحكم، واتخذ قرارات تاريخية وهامة غيّرت مجرى تاريخ الأمة الإسلامية في كل جوانبه السياسي والاجتماعي والعقائدي، ما كان لأحد غيره أن يتخذها. مثال ذلك حصاره لابن الزبير ورمي الكعبة بالمنجنيق وإعادة ترميمها على أسس قريش، وتجنيد الجند تجنيدا إجباريا، وقتل الخارجين ومطاردتهم أينما كانوا لقطع دابر الفتنة مهما كلفت منزلتهم في قومهم أو في مركز الخلافة وما قتل ابن الأشعث وكذا عمران بن عصام العنزي (1)، وسعيد بن جبير(2) إلا دليل واضح، وبناؤه واسط، وضربه للسكة والمحاسبة عليها، وتعريبه لدواوين الدولة، وإعجامه للقرآن الكريم، واستصلاحه للأراضي الزراعية.

كل هذه القرارات وغيرها ما كانت لتصدر إلا عن نفس زكية مخلصة مؤمنة كل الإيمان بالمبادئ التي تم ذكرها في مقدمة هذا المبحث، وكذا ما كانت لتجد طريقها إلى التنفيذ والتطبيق إلا إذا وجدت إرادة صلبة وعزيمة قوية في نفس صاحبها لإحلالها في واقع الناس.

ومقابل كل هذه المجهودات التي بذلها الحجاج عرفت له الأمة عامة قدره ومنزلته وبخاصة الخلافة وعلى رأسها الخليفة الوليد، فقد كان شديد القرب منه وكان سامعا له ومطيعا في مشوراته للحجاج :" ذلك أن الخليفة الجديد كان يشعر بقوة بأن دولة الأمويين مدينة

.....

1/ عمران بن عصام العنزي:خرج مع ابن الأشعث على الحجاج ،فلما أمسك به الحجاج قتله، فسأل عنه عبد الملك فقيل له : قتله الحجاج .قال: ولم ؟ قيل : خرج مع ابن الأشعث، قال: ما كان ينبغي له أن يقتله بعد قوله:

وبعثت من ولد الأغرّ معتب .....صقرا يلوذ حمامه بالعوسج

فإذا طبخت بناره أنضجتنا ..... وإذا طبخت بغيرها لم تنضج

و هو الهمام إذا أراد فريسة ..... لم ينجها منه صريخ الهجهج

عن تاريخ خليفة بن خياط ، ص 179 بتصرف.

2/ سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي ، تابعي ، حبشي الأصل ، ولد عام 45هـ ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر ، ولاّه الحجاج قضاء الكوفة ، إلاّ أن أهلها ضجوا به، فجعله مستشارا لأبي بردة ، خرج مع ابن الأشعث فلما قبض عليه قتله الحجاج سنة 95هـ. الزركلي: الأعلام،ج3 ص 93 بتصرف.

أفدح الدّين لجهود هذا الرجل الذي حفظ على الإمبراطورية وحدتها فلم يزل يعلي مكانته طوال مدة خلافته."(1)

ولاختصار فهم العلاقة التي كانت تربط الوليد بن عبد الملك بالحجاج نذكر قول الخليفة نفسه والذي يبيّن مدى متانة العلاقة بينهما فقد جاء فيه:" كان عبد الملك يقول الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي، وأنا أقول: أنه جلدة وجهي كله" (2)

ولقد ذكرت كتب التاريخ الكثير من المواقف، والتي جمع فيها القدر بين الوليد وعامله الحجاج، ووضحت نوعية العلاقة بينهما وكذا مدى متانتها، سواء كان ذلك على مستوى القرارات وإصدار الأوامر الإدارية الرسمية – أي الصادرة عن الخليفة نفسه – والتي تخص أمن ومصلحة الدولة داخليا وخارجيا وتنفيذها، أو على مستوى الحاشية.

المقربة من الخليفة وأهله أو حتى على مستوى الأشخاص والرعية عامة.

فقد بلغ الحجاج خبرا مفاده أن فتقا وقع بالسند شرق الخلافة من جهة، وأن السند أصبحت معقلا للخارجين على الدولة مما شجع من جهة ثانية قراصنة البحر في ميناء ديبل(3) أن يهجموا على السفن التجارية المارة من هناك، مما أدى إلى أسر الكثير من المسلمين وبخاصة النساء فبلغه قول إحداهن:"واحجاجاه"،فقال:"لبيك .لبيك".

وكان ذلك:" باعثا للحجاج أن يلح على الخليفة ليثأر لهذا العدوان وليؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الإسلامية من غارات المعتدين"(4)

فما كان للخليفة إلا أن استجاب لطلب عامله، ولبى رغبته وأمره بإعداد حملة كبيرة لغزو السند وتم له ذلك وتم الفتح.

ولما نشب الخلاف بين الحجاج وعامله يزيد بن المهلب(5)؛ الذي خلف أباه كعامل على خرا سان؛ وفرار يزيد وجميع أسرته من الحجاج والتحاقهم بسليمان بن عبد الملك

.....

1/ حسين أحمد أمين: المائة الأعظم في تاريخ الإسلام، ص 38.

2/ أحمد شلبي :الدولة الأموية، ص76.

3/ الديبل :مدينة مشهورة على ساحل أرض الهند. ياقوت الحموي: معجم البلدان ،ج2 ص563. وهي اليوم مدينة كرا تشي.

4/ أحمد شلبي: المرجع السابق،ص 140.

5/ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي أبو خالد ولد سنة 53هـ/673م، ولي خراسان بعد وفاة أبيه سنة 83هـ وقام بفتوحات عظيمة زمن سليمان بن عبد الملك، مات مقتولا بعد حروب كبيرة مشهورة سنة 102هـ/720م.الزركلي: الأعلام،ج8 ص189 -190 بتصرف.

واستجارتهم به، كتب الحجاج للخليفة كتابا يوغر صدره ضدهم ويؤلبه عليهم طلب الخليفة من أخيه سليمان أن يرسلهم مقيدين ليرى رأيه فيهم، غير أن سليمان استعطفه وترجاه وبعث معهم ابنه مقيدا معهم ومعه كتاب يدعوه فيه ألا يمس جواره فأجابه الوليد لذلك، وكتب إلى الحجاج أن يرفع يده عن آل المهلب.(1)

وموقف ثالث يبّين مكانة الحجاج في ميزان الخلافة، وأنه هو الرجل الثاني بعد الخليفة فيما يلي من أمور المسلمين، فقد كان سليمان بن عبد الملك(2) يراسل الحجاج في أمور الدولة والرعية غير أن الحجاج لا يولي لمراسلاته أدنى اهتمام " وكان يغفل رسائله ولا يجيب عليها"(3)، مما أجج نار الحقد في نفس سليمان وهو ولّي العهد بعد أخيه الوليد

وجاء دور عمر بن عبد العزيز والذي عزل من منصبه كعامل للمدينة المنورة سنة 93هـ[713م] وهو حينها عامل من عمال الحجاج، بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقد ذكر في عزله الكثير من الروايات والتي اختلفت باختلاف رواتها وميولا تهم وانتماءاتهم وتفسيراتهم.

فقد روي أن عمر بن عبد العزيز قد عزل بسبب:"أن عمر كتب إلى الوليد يخبره بظلم الحجاج وسفكه الدماء وما يفعل بأهل العراق وخوّفه عواقبه" (4)

وروى كارل بروكلمان أن سبب العزل تم عن طريق الحجاج – الذي كان مسؤولا على النصف الشرقي للدولة الإسلامية- والذي ألّب الخليفة وألح عليه في عزل عمر غير أنه ذكر سببا مخالفا لما ذكره صاحب النجوم الزاهرة وقال أن العزل كان:" بسبب من أنه فتح أبواب المدينة في وجه اللاجئين من العراق"(5).

وذكر غير واحد من المؤرخين أن سبب العزل إنما سببه الخلاف الذي كان ناشبا بين

1/ ينظر :الطبري،ج5ص230 وما بعدها . محمود شاكر:التاريخ الإسلامي،ج4 ص215 . أحمد شلبي :الدولة الأموية،ص80

2/ سليمان بن عبد الملك بن مروان أبو أيوب الخليفة الأموي ولد في دمشق عام54هـ/674م ولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة96هـ/714م وكان بالرملة فلم يتخلف عن مبايعته أحد وكان عاقلا فصيحا سير جيشا لحصار القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة وتوفي في دابق من أرض قنسرين بالشام عام99هـ/717م ودامت خلافته سنتان وثمانية اشهر إلا أياما. الزركلي: الأعلام ج3ص130.

3/ محمد ماهر حمادة : دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي و مصادره، ص58.

4/ النجوم الزاهرة: ج1 ، ص226.

5/ تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 180

الحجاج وعامله على المدينة في أمر الخارجين على الدولة، ولقد مرّ بنا ورأينا كيف أن الحجاج قد تفانى في خدمة الدولة الإسلامية، لأن ذلك كان مبدأ مقدسا عنده،ووحدة المسلمين أمر مسلّم عنده ولا يجوز بأيّ حال من الأحوال التنازل عن هذا المبدأ، ولعل هذا السبب هو الأرجح في العزل.

وهذا الموقف يبيّن مدى العلاقة التي كانت تربط الحجاج بالخليفة، فقد عزل الخليفة أحد أقاربه من أجل إرضاء سياسة عامله الحجاج التي كانت تخدم السياسة العامة للدولة في نظر الخليفة.

ولطبيعة العلاقة الجيّدة التي كانت بين الحجاج والخليفة، فقد استشار الوليد عامله في أمر تولية ابنه عبد العزيز الخلافة من بعده وعزله لأخيه سليمان، فأجابه الحجاج لذلك وشجعه، غير أن هذا التصرف قد جلب للحجاج الكثير من الحقد والبغض من سليمان ولحق بآل الحجاج من بعد وفاته الشيء الكثير على يد سليمان وعماله.

وقد ورد في بعض الآثار شيء مخالف لما قد تم ذكره – وهو العلاقة الطيبة والجيّدة والتي سبق ذكرها فيما بين الحجاج والخليفة – تشكك في ذلك منها قول الإمام الطبري :" أن الحجاج ثقل على الوليد قبيل موته، ولكن الوليد لم يستطع أن يعزله أو يمسه بسوء وبقي الحجاج حتى مات، ففرح الوليد بموته"(1)

ولقد جاءت هذه الرواية عند الإمام الطبري كحلقة استثنائية في تأريخه لحياة الحجاج لأن جميع من كتب عن العلاقة التي كانت تربط الخليفة بعامله الحجاج كتب عنها أنها علاقة طيّبة، وأن الصلة بينهما كانت عميقة و وطيدة.

فقد ذكر د/ أحمد شلبي تلخيصا للروايات التي ذكرت العلاقة الطيّبة بين الحجاج وخليفته، وأن الوليد قد تفجّع لموت الحجاج وعقّب قائلا:"وذلك الرأي هو ما نميل إليه فكل الدلائل تدل على عمق الصلة بين الوليد والحجاج حتى آخر اللحظات"(2)

وقد سبق وأن ذكر في هذا المبحث قول الوليد:" كان عبد الملك يقول:الحجاج جلدة

1/ تاريخ الأمم و الملوك: ج 5 ص 266.

2/ الدولة الأموية: ص 76.

ما بين عيني وأنفي وأنا أقول أنه جلدة وجهي كله"؛ فهذه الدلائل والقرائن كلها إنما تدل حقيقة على صحة العلاقة و متانتها وشدة وشائجها وروابطها بين الرجلين طيلة حكم الحجاج كعامل ومسؤول للمنطقة الشرقية للدولة الإسلامية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني:

﴿ الحجـــاج بن يوسف الثقفـــــي﴾

المبحث الثالث:

* سياسة الحجاج الإدارية *

1. مقدمة.
2. سياسة اللين.
3. سياسة الشدة.
4. نتائج سياسة الحجاج الإدارية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1. مقدمة.

جاء في أمثال العرب قولهم:" مصائب قوم عند قوم فوائد" ولعل مثل هذا المثل ينطبق على الفتنة التي وقعت للمسلمين زمن عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، وما كان فيها من انتهاك لحرمة مكة المكرمة وبخاصة الكعبة، والأضرار الجسيمة التي لحقت بها وكذا الخسائر الكبيرة التي وقعت في الأنفس والأموال والممتلكات .

ولم يكن لعبد الملك بدّ –كما تذكر ذلك بعض الروايات التاريخية- وهو يرى أن وحدة المسلمين قد انفرط عقدها أوكاد يكون، وهوى السلطان قد استشرى في النفوس وأصبحت الجماعة الإسلامية شيعا وأحزابا، وأوار الفتنة يزداد، إلا أن بعث بالحجاج للتفاوض أو القتال.غير أن الأقدار شاءت أن يكون السيف هو الحكم في هذه الفتنة واضطر الحجاج لاستخدام القوة لإنهاء حركة عبد الله بن الزبير؛ وقد كان لهذه الحركة الدور الكبير في بروز شخصية الحجاج على مسرح أحداث التاريخ الإسلامي عامة، وعلى مسرح أحداث السياسة الأموية بالخصوص.

فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، تم تعيين الحجاج واليا على مكة73هـ[693م] من قبل عبد الملك ممثلا للحكم الأموي، ومن لحظة التعيين هذه إلى آخر يوم قضاه الحجاج في سدة الحكم كان عليه اختيار أسلوبين مختلفين اقتضتهما الأوضاع السياسية وأملتهما عليه ظروف عصره وهما أسلوب اللين وأسلوب القوة والشدة.

غير أن الذي اشتهر عنه أسلوب القوة فقط، ولا يكاد مؤرخ يؤرخ له إلاّ ويكتب في وصفه أنه سفاك للدماء، ظالم، غاشم، جبار إلى آخر الأوصاف القبيحة؛ ولا يذكر له ولا موقفا واحدا من مواقف اللين وحسن السياسة والتدبير–إلاّ عرضا–.

ولعل صفة سياسة الشدة وأسلوب القوة قد التصقا بشخص الحجاج لبعض المواقف التي ابتدأ بها حياته المهنية في الدولة الأموية ومنها على الخصوص:

1/ استخدامه للقوة للقضاء على حركة ابن الزبير في بلد الله الحرام، وما انجر عن هذا الأسلوب من الآثار السلبية التي هزت النفوس وكذا الأضرار التي ألحقها في الممتلكات والعمران، مع العلم أن ابن الزبير قد رفض أمان عبد الملك في العديد من المرات.

2/ النهاية المأساوية والمروعة والتي تمت بها عملية القضاء على شخص ابن الزبير–على ما

جاء في رواية المؤرخين- من قطع رأسه وصلب جثته، مما أثار حفيظة عامة المسلمين وخاصتهم،وأجج في نفوسهم الحقد على الحكم الأموي عامة والحجاج بخاصة، وأدى ببعض المؤرخين إلى تسويد تاريخ هذه الفترة وصبّ جام غضبهم على الحجاج وسيرته.

2. سياسة اللين:

لم يتصور الحجاج يوما من الأيام أن يكون واليا على بلد الله الحرام ولا على دار الهجرة -مدينتهﷺ- وهو يعلم أن بهما الكثير من الصحابة والتابعين، وكذا الكثير من المتشيعين لآل البيت، والذين كانوا متواجدين بالمدينة المنورة والتي جعلوها مركزا وملاذا لهم وبخاصة بعد مأساة كربلاء (1)والتي حصدت الكثير من الأرواح والضحايا وكان أولهم الحسين بن عليّ رضي الله عنه.(2)

ثم إن الحجاج كان ينظر إلى منطقة الحجاز عامة ومكة والمدينة خاصة على أنهما مهبط الوحي وبيضة الإسلام، لهذا فهو يكن لهما ولأهلهما الكثير من التقدير والتمجيد زد على ذلك أن ثقيف وهي قبيلة الحجاج قد تأخر إسلامها وكالت للدعوة الإسلامية وللرسول-ﷺ- من الشر الشيء الكثير مما أوجب عليه استعمال السياسة التي يجلب بها ما سبقت به من شرف الانتساب للإسلام ورفع رايته.

ويضاف إلى ما سبق ذكره الأوضاع المتردية وغير المتزنة والتي لحقت بمكة وأهلها بعد حصار الحجاج لها لعدة شهور، وضربها بالمنجنيق وما ترتب عن ذلك من آثار سلبية في النفوس، ومن أضرار مادية جسيمة في البنايات والممتلكات والعمران وما خلفته من قتلى وجرحى وثكالى وأيتام؛ فخيّم على مكة وما جاورها ليل دامس أفقدها أجواءها الروحانية " وعمّت أهلها موجة من الحزن والأسى حتى ارتجت بالبكاء أسفا على مقتل عبد الله بن الزبير وأصحابه".(3)

فللأسباب السابقة، وحتى يخفف الحجاج عنهم ما لحق بهم، سار فيهم سيرة الأب العطوف مع الصغير والأخ الحنون مع الكبير، فليّن جانبه في معاملته مع الناس وكان أن

1/ كربلاء وهو الموضع الذي نزله الحسين بن علي قرب الكوفة بالعراق ومعه خمسون رجلاً، فسار إليه عمر بن سعد في أربعة آلاف، فقتله وقتل عامة أصحابه وذلك في يوم الجمعة يوم عاشوراء سنة61هـ.الذهبي:تاريخ الإسلام،ج5ص13 بتصرف

2/ الحسين بن عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي العدناني، أبو عبد الله ، السّبط الشهيد ابن فاطمة الزهراء، ولد سنة 4هـ بالمدينة وتوفي سنة61 هـ في كربلاء قرب الكوفة بالعراق كتب في سيرته ﷺ الكثير. للزركلي:الأعلام ،ج 2 ص243

3/ تهذيب تاريخ ابن عساكر: ج 4 ص 50.

شارك بنفسه طواعية مع المنظفين للمسجد الحرام وللمناطق المجاورة له من جـــراء الحجارة التي رميت بالمنجنيق.

وزاد الحجاج – وهو الوالي المنتصر –بأن اعتذر إليهم عساه أن يؤلف قلوبهم ويـنزع من نفوسهم الكراهية والبغضاء، ويستميلهم إلى جانبه وإلى صف الدولة الأموية. وجـاء عذره هذا في خطبة قال فيها:" يا أهل مكة، بلغني إكباركم واستفظاعكم قتل ابن الزبير إلا أن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها فخلع طاعة الله واعتصم بحرم الله، ولو كان شيء نافع العصاة لمنع آدم حرمة الجنـــة، لأن الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة، اذكروا الله يذكركم"(1).

وبهذا الأسلوب اللين حاول الحجاج جهده و لم يأل في التخفيف من الاضطـــراب الذي أصاب أهل مكة والتوتر الذي ساد جنباتها، وكلمات خطبته تدل على ذلك فـهي خالية من أسلوب التهديد والوعيد الذي عرف به الحجاج.

وجانب ثان استعمله الحجاج كوسيلة من وسائل التعبير عن ليونة جانبه وصدق نيته في التعامل بالحسنى وعدم اللجوء إلى أسلوب الشدة والقوة، وهو إكثاره من النفقـــة وإعطاؤه للأموال لكسب رضاهم، وفي هذا يقول إحسان صدقي العمد أن الحجـاج:" وصلهم بالأموال لكسب رضاهم وضمان استمرار طاعتهم وربما للتخفيف عنهم مـــن وطأة الحصار الطويل الذي تعرضوا له".(2)

وأسلوب اللين هذا،كان هو نفسه في سيرة الحجاج مع أهل المدينة المنورة، فقد حل بهـا في أوائل سنة74هـ[694م]وكان مجيئه إليها بعد أن تم عزل عاملها طارق بن عمرو(3)

ففور وصوله إليها بدأ بالإصلاحات وتنظيم شؤونها، واستشارة العقلاء من أهلـــها والذين توسم فيهم ميلا لبني أمية، وهو يعلم أن غالبية أهل المدينة لا يوافقون الحكم

.....

1/ تهذيب تاريخ ابن عساكر: ج 4 ص 50.

2/ الحجاج بن يوسف: ص 147.

3/ طارق بن عمرو: المكي، مولى عثمان بن عفان ، قائد من الولاة، جهزه عبد الملك بن مروان في ستة الاف لقتال من في المدينة من أنصار ابن الزبير فدخلها فولاه إياها سنة72 هـ ثم عزله بالحجاج بن يوسف.الزركلي:الأعلام،ج3 ص217-218.

الأموي ولا ينتصرون له، وقد يذمرون العداء له ويتنكرون لسلطانهم ؛ وقد عين عبد الملك الحجاج واليا على المدينة لتأكيد السياسة الأموية في جميع المناطق ذات النفوذ الأموي وكذا إظهار ولاء أهل تلك المناطق لحكمه وسلطانه.

غير أن مدة إقامته بالمدينة لم تدم طويلا، فقد ذكر البلاذري أن الحجاج قد رجع إلى مكة المكرمة بأمر من عبد الملك لبناء الكعبة،وردها على ما كانت عليه قبل ابن الزبير(1) وفي أثناء إقامته بمكة المكرمة تابع الحجاج سياسة اللين مع أهلها واتخذ من بعض صحابة رسول الله -ﷺ- مستشارين له ونخص بالذكر منهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

هذا الصحابي الجليل الذي قيل عما جرى بينه وبين الحجاج الشيء الكثير وكتبت في حقهما الكثير من الروايات المزورة والافتراءات المتعددة وصلت إلى حد تكفير الحجاج ووصفه بالمارق من الدين.

فقد ذكر بعض المؤرخين:" أن الحجاج عمل على التخلص من الصحابي المشهور عبد الله بن عمر لمعارضته له في تأخيره للصلاة"(2)؛ بأن دس له رجلا فطعنه بحربة مسمومة في ظهر قدمه ثم ما لبث عبد الله بن عمر أن مات بعدها، وفي هذا يقول الإمام السيوطي:" هدم الحجاج الكعبة وأعادها على ما هي عليه الآن، ودس على ابن عمر من طعنه بحربة مسمومة، فمرض منها ومات"(3)، وقد ذكرت مثل هذه الرواية في الكثير من المصادر والمراجع، ولقد أوردها إحسان صدقي العمد كلها ورد عنها وفندها.(4)

وقد ذكر الإمام السيوطي، أكثر من هذا، ولم يتوقف فقط عند عبد الله بن عمر بل إن الحجاج عنده سفاك للدماء، وأنه لا يرتاح له بال ولا يتزن له حال إلا بإراقة دم الصحابة والتابعين فهو يقول:" وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى" ويستطرد قائلا:" فلا رحمه الله ولا عفا عنه"(5).

1/ أنساب الأشراف، ج 5 ص 373.

2/ المصدر السابق: ج 5 ص 375.

3/ تاريخ الخلفاء، ص 200.

4/ الحجاج بن يوسف الثقفي، ص 151 وما بعدها.

5/ تاريخ الخلفاء: ص 205.

وهذه مبالغة كبيرة في حق الحجاج، لأن الحجاج كما مرّ بنا، له من الصلاحيات مـا له، إلاّ أنه يبقى مسؤولا أمام الخليفة عن جميع ما يصدر منه فإن أحسن أجزل له الخليفة الثناء وإن حاد عن الطريق عاتبه وردّه إلى جادة الصواب.

وأنّى للحجاج أن يعامل عبد الله بن عمر بالقوة أو الشدة أو حتى أن يكيد لـــه، إذا ما علمنا أن ابن عمر لم يتقاعس عن مد يده للجماعة، فحينما بايعت الأمة عبد الملـــك بالخلافة بعد مقتل ابن الزبير، لم يتردد وبايع، وقد انتهى الحجاج عن ضـــرب الكعبـــة بالمنجنيق في موسم الحج حتى يتسنى للمسلمين أداء شعائرهم وكان ذلك بوساطة عبـــد الله بن عمر"رضي الله عنه".

وكيف يتأتى للحجاج أن يحيد عن أمر الخليفة عبد الملك وهو الذي أمره أن يـــأتم بابن عمر في موسم الحج، وقد ذكر ذلك ابن كثير في قوله:"كتب عبد الملك للحجـــاج أن يأتم بابن عمر ويقتدي به في موسم الحج"(1) فإذا ما أخلصت النيـــات إذن لفـــائدة المصلحة العامة للأمة فالحجاج أول المرحبين والمؤيدين.

ويقول إحسان صدقي العمد، في هذا الشأن، بعدما ذكر الروايـــات وأبطلـــها وردّ الشبهات يقول:"وهذه كلها قرائن تجعل من مصلحة الحجاج الإبقاء على هذه الشخصية وتنفي عنه تهمة التخلص منها"(2)

وتبقى هذه ومضة براقة في حياة الحجاج قلّ من يذكرها له وينصفه فيها، فالرجل كـان ابن بيئته يتفاعل مع واقعه حسب المعطيات والمستجدات؛ وإذا ما علمنا أن الحجاج بقي مخلصا لمبادئه التي آمن بها، ومخلصا في أدائه لواجبه ومخلصا لأمته وحريصا على وحدتهـــا ومخلصا للسلطة التي تعامل معها طيلة فترة حكمه؛ وقد كانت منه فلتات وســـقطات إلاّ أنها لا تنفي عنه صفة الإيمان والإخلاص فقد:" كان رغم ما قيل فيه ويقـــال صـــاحب خلق واضح ودين".(3)

1/ البداية والنهاية: ج 8 ص 329.

2/ الحجاج بن يوسف، ص 152.

3/ نفس المرجع: ص153.

3. سياسة الشدة:

إذا كان الحجاج –كما ذكر سابقا– ابن بيئته ويتفاعل مع محيطه بما مليه عليه ميكانزماته، فإن التاريخ ومن كتب عن حياة الحجاج لم يراع له ذلك إلا القليل منهم وألقوا باللوم عليه ووصفوه بأقبح الأوصاف وألصقوا به ثم أسندوا أبشع الأفعال واتهموه بما ليس هو أهلا له.

وقد التصقت صفة الشدة والقسوة بالحجاج وسياسته التي انتهجها في حياته وسطرها لنفسه، فلا يكاد يذكر اسم الحجاج في كتب التاريخ أو الأدب إلا ولازمته صفة الشدة والقسوة، وسواء أذكر من باب المدح أو من باب الذم والهجاء، أو سواء ذكر في تعامله مع الأشخاص أو مع قبيلة من القبائل أو مع أهل مدينة من المدن أو حتى مع أهل إقليم.

غير أنه من باب البحث والإنصاف أن يتساءل الواحد منا، هل كان الحجاج مخيرا في استعمال هذا الأسلوب في حياته أم أنه كان مكرها؟ وهل كان هذا الأسلوب هو الأسلوب الأوحد في معاملة الحجاج خلال فترة حكمه؟ وهل كان الحجاج يتعامل بهذا الأسلوب مع جميع الأشخاص ومع جميع شرائح المجتمع وكذا مع جميع سكان الإقليم الذي كان تابعا له ؟ وهل كان الحجاج في تعامله بهذا الأسلوب حقيقة كما وصفه المؤرخون أم أنهم افتروا عليه وزادوا عليه ما لم يقم به لتسويد صفحة تاريخه كشخص وعامل من عمال بني أمية ومن ورائه تسويد صفحة تاريخ الحكم الأموي عامة؟

قد تتجلى بعض جوانب الحقيقة وتعرف بعض الأسرار ويماط اللثام عن خبايا بعض الأمور في الإجابة عن هذه التساؤلات.

يقول عمر أبو النصر:" وليس بين أيدينا عن أعمال الحجاج في مكة ثم في المدينة ما يستلفت النظر سوى ما صرف همه له من الشدة والقسوة على كل من كان يظن فيهم الكره لبني أمية والتنكر لسلطانهم، وقد قسا في ذلك قسوة أنكرها الناس عليه خصوصا في المدينة".(1)

هكذا يظهر الحجاج على مسرح الأحداث ويصوره المؤرخون، غير أن القليل من

1/ سيوف أمية في الحرب والسياسة، ص323.

المؤرخين من يذكر الوقائع على حقيقتها ويوضح أسبابها ولنا أن نتساءل: هل كانت هذه الوقائع حقيقة كما رواها أصحابها؟ وإذا لم تكن كذلك فلماذا قام الحجاج بما قام به على حد زعم من كتب عنه؟

فالحجاج لم يقدم على مثل هذه السياسة وخاصة في الحجاز إلا بعد أن ساسهم باللين غير أن:" سياسة اللين هذه قد جرأت أهل مكة عليه"(1)؛ فما كان له إلا أن يؤكد لأهلها حزمه وعزمه، بالإضافة إلى أن الحجاج لم يكن لينحى هذا المنحى لو لم يصدر من رعيته ما هز توازنه وأخل بالمصلحة العامة، بعد أن صدرت بعض المواقف من بعض الصحابة، كرفضهم للصلاة خلفه ومعارضتهم لبعض أقواله وأفعاله ، واتهامه باتهامات خطيرة تشكك في عقيدته، وخاصة اتهامه بتأخيره لموعد صلاة الجمعة وكل هذه:" أمور على جانب كبير من الخطورة خاصة في ذلك الوقت"(2)

ويتابع إحسان صدقي في توضيح أكثر لموقف الحجاج مع أهل مكة والمدينة والأسباب الحقيقية لمعارضتهم له فيقول:" وإن دلت هذه المعارضة على شيء فإنما تدل على استخفاف أهل المدينة بالحجاج"(3)

وقد ذكرت بعض الروايات أن الحجاج لما دخل المدينة استخف بأشرافها وتعنت بهم حتى وصل به طبعه الحاد في معاملته لبعض الصحابة بأن ختم على أعناقهم وأيديهم وأذلهم، يقول الإمام السيوطي رحمه الله:"وفي سنة 74هـ[694م] سار الحجاج إلى المدينة وأخذ يتعنت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول اللهﷺ وختم في أعناقهم وأيديهم يذلهم بذلك"(4)

ويذكر الإمام الطبري رواية قريبة من رواية الإمام السيوطي غير أنه ذكر فيها أن الحجاج قد قدم سببا ليبرر به أفعاله التي قام بها مع أهل المدينة، وهو اتهامهم بالخذلان وعدم نهوضهم لنصرة الخليفة عثمان، ولذا فقد:" ختم على أيدي عدد من الصحابة

.....

1/ إحسان صدقي: الحجاج بن يوسف الثقفي، ص147.

2/ المرجع السابق: ص 150.

3/ نفس المرجع والصفحة.

4/ تاريخ الخلفاء، ص200.

كما كان يفعل بأهل الذمة إذلالا لهم "(1)؛ بل إن الإمام السيوطي-رحمه الله- قد عد ولاية الحجاج في حد ذاتها على أهل مكة والمدينة سيئة من مساوئ عبد الملك بن مروان وسقطة من سقطاته في فترة حكمه(2).

غير أن هذه الروايات – كما جاء في بعض المراجع – مهما قيل فيها وحولها:"تدل على أن أهل الحجاز وبخاصة أهل المدينة والأرستقراطية الدينية فيها لم تكن تنظر إلى الحجاج نظرة تقدير واحترام بل كانت تضمر له العداء وتسعى للنيل منه"(3).

لم تدم أيام حكم الحجاج في الحجاز أكثر من عامين، استتب فيهما الأمن والاستقرار، ورضخت فيهما المعارضة وخضعت الأرستقراطية الدينية لتهديد الحجاج ووعيده ، وتأكدت في هذه الفترة سيادة السلطة الأموية على جميع المناطق التابعة للحجاز؛ ثم غادرها الحجاج متوجها إلى الإقليم الجديد في سنة 75هـ[695م] بأمر من عبد الملك بعد وفاة أخيه بشر بن مروان(4) أمير العراق.

ومن المؤكد،كما جاء في بعض الروايات ، أن أهل العراق كانوا ينتظرون أن يعين لهم عبد الملك بن مروان واليا شديدا وقويا وحازما، لما علم من مواصفات أهل هذا الإقليم، وأنهم لا ينقادوا إلا لمن ضبط شكيمتهم بالقوة وردهم إلى الطاعة بالسوط أو السيف .

وقد علم أهل العراق بما قام به الحجاج في الحجاز، وكيف كان مقامه فيها، وكيف كانت سيرته في أهلها، لذا فقد عملوا على التخلص منه، فقد فكروا بأن يتعرضوا له وهو في طريقه إليهم فيقتلوه قبل مبايعته؛ وقد اقترح ذلك الغضبان بن القبعثري الشيباني(5)، وقال لأهل العراق:"فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه، فإن ذلك لا يعد منكم خلعا، فإنه متى يعلوكم على متن منبركم وصدر سريركم وقاعة قصركم ثم

.....

1/ تاريخ الأمم والملوك، ج6 ص195.

2/ تاريخ الخلفاء: ص 205.

3/ إحسان صدقي: الحجاج بن يوسف الثقفي، ص153.

4/ بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي، أمير، كان سمحا جوادا، ولي العراق لأخيه عبد الملك سنة 74هـ وهو أول أمير مات بالبصرة سنة 75هـ الزركلي: الأعلام، ج2 ص55.

5/ الغضبان بن القبعثري الشيباني كان من علماء العرب دخل على الحجاج فجالسه وحدثه وهو الذي بعثه الحجاج ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن الأشعث بكرمان وبعث عليه عينا فلما انتهى الغضبان إلى عبد الرحمن قال له: ما وراءك قال: شر تغد به قبل أن يتعشى بك، فلما قدم الغضبان على الحجاج قال له:أما إنك صاحب الكلمة التي بلغتني عنك وأدخله السجن ومكث فيه حتى بلى الحجاج خضراء واسط وكان بينه وبين الغضبان حديث طويل حولها، حتى قال الحجاج لحراسه: ويحكم التركوه فقد غلبني بحجته. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج20 ص201-204 بتصرف.

قتلتموه عدّ خلعا فأطيعوني وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم"(1)؛ غير أن أهل الكوفة لم يسمعوا لمقالته وأرجأوا حكمهم على الحجاج حتى يروا سيرته فيهم.

فلما دخل عليهم الحجاج مسجد الكوفة وكان اليوم يوم جمعة خطبهم خطبته الشهيرة والتي ضمنا المسار الذي انتهجه وخطّه لهم؛ والتي كانت مليئة بالتهديد والوعيد والتي رويت في العديد من المصادر والمراجع بألفاظ متقاربة، غير أن الذي أوردها على أحسن وجه هو المبرد على حد قول ابن خلدون:"إن أحسن من أوردها المبرد في الكامل"(2).

دعا الحجاج بعدها العرفاء وأمرهم أن يلحقوا الناس بالمهلب وألاّ يغلقوا أبواب الجسر ليلا ونهارا بعد أن يأخذوا عطاءهم، وأمهلهم مدة ثلاثة أيام، فمن وجد بعدها فقد برئت الذمة منه وهو عاص.وفي هذا يقول الإمام الطبري:" لما قدم الحجاج الكوفة قال: من كان من بعث المهلب فليواف مكتبه ولا يجعل على نفسه سبيلا"(3).

وفي اليوم الثالث تجمع نفر من أهل الكوفة بالسوق وأخذوا يكبرون وجعلوا تكبيرهم وسيلة من وسائل الاحتجاج على سياسة الحجاج من كثرة تذمرهم منه ومن سياسته فبادرهم هو بخطبة نارية وقعت عليهم كالصاعقة وعزّز بها هو موقفه معهم وكانت هذه الخطبة أعنف من سابقتها جاء فيها:"يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق" إلى قوله" فأقسم بالله لأوشكن أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبا لما بعدها"(4) .

ثم ما لبث الحجاج أن طبق بنود خطبته الأولى مع أهل العراق، فقد انتقل من القول إلى الفعل وصمم على تنفيذ وعيده الذي توعّدهم به، وواتته الفرصة بعد أن قام إليه عمير بن ضابئ البرجمي (5)، وكان شيخا كبيرا عليلا، وطلب منه إعفاءه من الخروج

1/ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3 ص182.

2/ ابن خلدون: العبر ،ج3 ص41.

3/ تاريخ الطبري: ج4 ص 682.

4/ نفس المصدر: ج6 ص 549.

5/ عمير بن ضابئ: بن الحارث البر جمي، شاعر من سكان الكوفة ،مات أبوه في سجن عثمان بن عفان﵁ لقتله صبيا بدابته ولهجائه قوما من الأنصار، وعمير هذا كان ممن دخل على عثمان يوم مقتله ووطئه برجله.ضرب رقبته الحجاج سنة75هـ . الزركلي: الأعلام،ج5 ص89.

وكان في البعث وقدّم ابنه كبديل عنه، فقبل منه الحجاج في أول الأمر، غير أنه لما علم باسمه وبما كان له مع الخليفة عثمان بن عفان" ﷺ "قال له:" أولست القائل:

همت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

إني لأحسب في قتلك صلاح المصرين، قم إليه يا حرسي فاضرب عنقه" (1)؛ ثم نادى منادي الحجاج في الناس:" ألا إن عمير بن ضابئ أتى بعد ثالثة وقد سمع النداء فأمرنا بقتله ألا فإن ذمة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب"(2).

فقد كان لهذه الواقعة الشيء الكثير والأثر الكبير في النفوس وكان بذلك الحجاج هو:" أوّل من عاقب بالقتل على التخلف عن الوجه الذي يكتب إليه، وحينئذ لحق جميع الناس بالمهلب"(3)

وبهذا يكون الحجاج أول من طبق التجنيد الإجباري، بعدما لاحظ فتورا في عزيمة المقاتلين و الفاتحين وكذا تراجع الروح العسكرية لديهم ،يقول ابن خلدون:"إنّ الحجاج أوّل من عاقب على التخلف عن البعوث بالقتل، قال الشعبي: كان الرجل إذا أحلّ بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعليّ تنزع عمامته، ويقام بين الناس فلما ولي مصعب أضاف إليه حلق الرؤوس واللحى، فلما ولي بشر أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين في يده في حائط فيخرق المسماران يده وربما مات، فلما جاء الحجاج ترك ذلك كله وجعل عقوبة من تخلى بمكانه من الثغر أو البعث القتل"(4).

ويكون الحجاج بسياسته هذه قد خالف سابقيه، إذ تدرج كل واحد منهم في العقوبة إلاّ أن أحدا منهم ما تجرأ على القتل إلا هو وذلك ظنا منه أنه الأسلوب الأليق بأهل العراق لما رأى منهم، ولما كان يصبو إليه من تحقيق الأمن والاستقرار، وهو الذي قال لهم:"إلاّ أنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبِيَ فيءٌ، ولا قوتل عدو ولعطّلت الثغور"(5).

.....

1/ تاريخ الطبري: ج 6 ص 549-550.

2/ الطبري: المصدر السابق، ج 6 ص 550./ العبر: ج3 ص 41.

3/ دائرة المعارف: البستاني، ج 6 ص 699.

4/ العبر: ج3 ص 41-42.

5/ الطبري: ج 6 ص 548.

ولعل أسلوبه هذا في أهل الكوفة قد سهّل له المهمة في البصرة واختصر له الشـــيء الكثير من الوقت، لأنه أحدث رجّة كبيرة ترددت أصداؤها في العراق كلـــه، فـــأدخل الرهبة في القلوب وهزّ النفوس فانقادت له الأعناق.

ثم تشاء الأقدار أن يخطب الحجاج بعد وصوله المصر الجديد – البصرة – خطبـــة شبيهة بخطبته الأولى التي ألقاها في الكوفة، مليئة بالتهديد والوعيد، وأمهل الناس ثلاثـــا حتى يلحقوا بجيش المهلب لمقاتلة الخوارج، فمن وجد بعدها فقد جعل للحجاج علـــى نفسه سبيلا.

وقد أعقب خروج أهل البصرة للالتحاق بالمهلب لمقاتلة الخوارج خروج جماعة منهم على حكم وأمر الحجاج برئاسة عبد الله بن الجارود(1).

وقد تعدّدت أسباب هذا الخروج؛ فمنهم من أرجعها إلى سياسة الشدة التي استعملها الحجاج وإكراهه الناس على الخروج مع المهلب، ومنهم من أرجعها إلى سبب مـــادي مفاده أن الحجاج أنقص عطاء الجند المحارب وذلك بسبب الضائقة المالية التي كـــانت تعاني منها خزينة الدولة آنذاك، إلاّ أنه مهما كان السبب أو الدافع الحقيقي لهذه الثـــورة –والتي أسالت الكثير من الحبر في كتب التاريخ– إلاّ أن الحجاج قد تصدى لها وأبادهـــا وأنهى خطر ابن الجارود ومن معه من الوجود وكتب إلى المهلب:" أما بعد، إذا أتـــاكم كتابي هذا فناهضوا الخوارج؛ والسلام"(2).

وكان من نتائج هذه الثورة أن انهارت الثقة تماما بين الحكم الأموي ممثلا في شخص الحجاج وبين أهل العراق من جهة، وعلى العكس من ذلك فقد توطدت هذه الثقة بـين الحجاج والخليفة عبد الملك من جهة ثانية.

ومن نتائج هذه الثورة كذلك، ظهور ثورة ثانية عرفت في التاريخ الإسلامي بثـــورة الزنج، وهم الذين كانوا يعملون في جنوب العراق في الأراضي الفلاحية، فقد اســـتغلوا خروج ابن الجارود على الحجاج علّهم يحققون بعض ما كانوا يطمحون إليه للتخفيف

1/ عبد الله بن الجارود العبدي، خرج على الحجاج لما ردّ الحجاج الزيادة التي زادها عبد الله بن الزبير في أعطيات أهل البصرة وتابعه في خروجه خلق، فاقتتلوا فقتل ابن الجارود في طائفة معه.الذهبي:تاريخ الإسلام، ج5 ص223-224 بتصرف.

2/ تاريخ الطبري: ج6 ص551.

من الأعباء الكثيرة التي أرهقتهم وأتعبت كاهلهم، غير أن خروجهم لم يدم طويلا وثورتهم لم تعمر أكثر مما قدر لها، فقد ألّب الحجاج ضدهم عرب البصرة وتوعدهم فناهضوهم وهزموهم و لم تقم لهم قائمة حتى قيام الدولة العباسية(1).

ثم توالت الأحداث والثورات في عهد الحجاج، وخاصة في العقد الأوّل من حكمه للعراق، وكان أخطر هذه الثورات ثورة الخوارج، والتي حمل لواءها قطري بن الفجاءة(2)، وشبيب بن يزيد الشيباني(3)؛ فما كان للحجاج من سبيل إلاّ استعمال القوة والشدة واستنفار أهل البصرة والكوفة لمناهضتهم ومحاربتهم، ووعد قادة جيشه بالمؤازرة ومدّ يد العون لهم ما وجد لذلك سبيلا وهو القائل للمهلب:" فناهض عدوك ودع العلل، فوالله لأحشرن النّاس إليك حشرا"(4).

غير أن ثورة الخوارج هذه قد أهكت كاهل الدولة من الجانب المالي، كما أنها استغرقت وقتا طويلا، حتى أن عبد الملك قد راعه ذلك وأردف للحجاج مساعدا بقوات شامية، وكان من نتائج هذه الثورة أن شجعت روح التمرد في النفوس وهيأت لقيام حركات ثورية أخرى، وتسربت مثل هذه الأفكار الانقلابية والثورية حتى في نفوس من ينتمون إلى الحكم الأموي ويُحْسَبُونَ عليه، وما ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة (5)، وكذلك فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلا دليل واضح على ذلك.

والذي يمكن ملاحظته أن ثورة مطرف بن المغيرة هي بمثابة هزة سياسية أيقظت الضمير الإصلاحي في الأمة، وحركة إصلاحية جديدة للتجديد في دواليب الحكم

1/ إحسان صدقي: الحجاج بن يوسف الثقفي، ص 220 وما بعدها.

2/ قطري بن الفجاءة:اسمه جعونه بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي من رؤساء الأزارقة الخوارج وأبطالهم كان خطيبا فارسا شاعرا وكانت كنيته في الحرب أبا نعامة(ونعامة فرسه)وفي السلم أبا محمد،توفي سنة78هـ. الزركلي: الأعلام ج5 ص200-201.

3/ شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني(26-77هـ)،أبو الضحاك ،أحد كبار الثائرين على بني أمية كان داهية طماحا إلى السيادة نادى بالخلافة فبايعه نحو120ألف رجل.فلشبث بينه وبين الحجاج معارك ونجا منها شبيب فمر بجسر دجيل(في نواحي الأهواز) فنفر به فرسه فألقاه في الماء فغرق وإليه نسبة الفرقة الشبيبية من فرق اللواصب. الزركلي:الأعلام،ج3 ص156-157

4/إحسان صدقي:المرجع السابق، ص233.

5/ مطرف بن المغيرة بن شعبة، ثائر من أتقياء الولاة والأمراء ،ولاه الحجاج على المدائن ،خرج على الحجاج مع شبيب بن يزيد الخارجي فأرسل إليهم الحجاج من قاتلهم في بعض جهات أصبهان فقتل سنة 77هـ قبل أن يستفحل شأنه. الزركلي: الأعلام،ج7 ص 251.

قال عنها فان فلوتن:"وهنا يمكن اعتبار ثورة مطرف بن المغيرة بمثابة حركة إصلاحية داخلية فردية في المجتمع الإسلامي كانت رغم فشلها إرهاصا للحركة الإصلاحية الثانية التي قام بها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز"(1).

أما ثورة عبد الرحمن فقد دامت قرابة ثلاث سنوات(81-84هـ)[701-704م] اهتزت لها أركان الدولة كاملة بما فيها عرش الخليفة، وتوترت فيها العلاقة ما بين الخليفة والحجاج حتى أن الخليفة قد أبدى استعدادا للتضحية بالحجاج إذا ما قبل الثوار بذلك(2).

إلا أن القدر قد عجّل بابن الأشعث، وانطوت بذلك صفحة الثورات وانتهت في عهد الحجاج إلى غير رجعة، وقد تعرض الكثير من المؤرخين إلى هذه الفتنة وكتبوا عنها كل حسب ما يراه ملائما ويخدم فكره وفكرته، ظنا منه أنه ألمّ بها من جميع جوانبها وقد تعدّدت التفسيرات في دوافعها ونتائجها، وتباعدت الأفهام في ذلك إلا أن الذي جمعها وأوردها وأسهب في شرحها وتبيانها-على ما اطلعت عليه- هو صاحب كتاب الحجاج بن يوسف الثقفي (3) الذي أفرد لها بابا خاصا في كتابه.

4. نتائج سياسة الحجاج الإدارية:

عدّ بعض المؤرخين والأدباء فترة حكم الحجاج سيئة من مساوئ الحكم الأموي وعدّها آخرون بشارة من البشائر وجرعة ثانية أحيت الحكم الأموي وأعادته للوجود لما ترتب عنها من نتائج؛ واختلفت في ذلك آراؤهم، غير أنه من المنصف أن نذكر الحقائق التاريخية والنتائج المترتبة عنها كما هي وندع الحكم المسبق، الذي ينجم عادة إما بالميل والانتصار لهذه النتائج أو بالمعاداة والتشويه والتنكر لها، ونذكر من نتائج السياسة الإدارية للحجاج مايلي:

1. القضاء التام على الحركات الانفصالية وجميع الثورات التي قامت وهدّدت الحكم الأموي وبخاصة حركة الخوارج.

.....

1/السيادة العربية: ترجمة د/حسن إبراهيم حسن الطبعة الثانية القاهرة،مكتبة النهضة المصرية،1993م، ص58 بتصرف.

2/ ينظر المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذه الرسالة، ص100 وما بعدها.

3/ إحسان صدقي، من ص275 إلى ص 302.

2. بقاء بناء الكعبة الشريفة إلى يومنا هذا على ما كانت عليه في عهده -ﷺ- وإزالة ما زاده ابن الزبير ، بعد أن رمّمها الحجاج وأعاد بناءها.

1. استقرار الحكم في العراق وبه تمّ استقرار الحكم الأموي.

2. المبالغة في تصوير الأحداث التاريخية ووصف فترة بني أمية عامة بما لا يليق بها وبخاصة فترة الحجاج.

3. التصاق صفة الشدة وكل ما هو قبيح في الحقبة التي حكم فيها الحجاج سواء بشخصه أو بالحكم الأموي عامة.

4. توصل الحجاج بما أوتي من ملكات وهو العربي القح إلى أن العرب لا ينقادوا لأمر السلطان إلا إذا كان أحد الأمرين متوفرا: إمّا أن يكون الإسلام هو المحرك لهم والفاعل في واقعهم من منطلق العقيدة وقد كان ذلك مجسّدا في السلف الصالح من الصحابة وإمّا أن يساسوا بالقوّة والقهر حتى تستقيم قناتهم وتخضع رقابهم وقد جرّب هو ذاته هذا الأسلوب معهم.

5. الإخلاص اللامتناهي للولاة والعمال الذين عملوا مع الحجاج وتحت إمرته لما رأوا منه هو ذاته إخلاصه لمبادئه ولأمته والسلطة التي عمل معها.

6. الإفراط في التغاضي للكثير من المؤرخين والأدباء عن الأعمال والمنجزات التي قام بها الحجاج وحقّقها للأمة.

7. من كثرة مشاورته للسلطة المركزية في تدبير شؤون الإقليم التابع له ما حدا بالخليفة ومركز الخلافة أن يجعل ذلك سنّة على متابعة سير أعمال الولاّة والعمال وتوجيههم وترشيد سياستهم وبخاصة الحجاج ، الذي نال الحظوة عند الخليفة.

8. اتساع رقعة حدود الدولة الإسلامية من خلال سياسة الفتوحات التي أشرف عليها الحجاج بنفسه وبذل لها كل وقته وخصّص لها الكثير من الأموال ، واختار لها الأكفاء من القواد، حتى بلغت ما يسمى بالصين حاليا.

9. الاهتمام البالغ بالعمران ولا أدل على ذلك إعادة بنائه للكعبة المشرفة وبناؤه مدينة واسط.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني:

﴿ الحجـــاج بن يوسف الثقفـــــي ﴾

المبحث الرابع:

* سياسة الحجاج الاقتصادية *

1. مقدمة.

2. مآخذ السياسة المالية في عهد الحجاج.

5/ إصلاحات الحجاج في الجانب الاقتصادي:

- سك العملة.
- البناء والتعمير.
- استصلاح الأراضي.
- جباية الخراج وتجديد نظام المالية العمري.

1. مقدمة.

تزخر كتب التاريخ والأدب قديمها وحديثها بطرائف هي أقرب للخيال منها للواقع ويستحيل بأيّ وجه من وجوه الحقيقة قبولها في حق شخص الحجاج، كما تزخر بلطائف -وإن كانت قليلة- يستحيل نكرانها وأثرها بائن للعيان.

ويبقى الحديث عن شخص الحجاج يتراوح ما بين الطرائف واللطائف في كل جوانب حياته سواء في سياسته وإدارته ومعاملاته ولِنقُلْ طيلة مدة حياته.

وللحديث عن السياسة المالية في عهد الحجاج وجب أن نبدأ بشيء أقرّه بعض الذين كتبوا عن الحجاج بموضوعية علمية حتى وإن كانت نسبية، وهو أن الحجاج عند الحكم عليه وعلى كل ما قام به في الخلافة الإسلامية، نجد له من المثالب كما نجد له من المحاسن وكما أن الحجاج في زمن الرّاحة والدّعة غيره ذاك الحجاج في زمن الحرب والقتال؛ يقول الدكتور أحمد شلبي بعد أن ذكر ما للحجاج وما عليه يقول:"بقي هناك شيء ذو بال يوضع في الميزان عند الحكم على الحجاج، ذلك هو ما قام به من إصلاحات عمرانية والعجيب أن الذي يدرس الحجاج لا يجده عقلية عسكرية فقط، بل يجده كذلك ذا عقلية بناءة في زمن السلم، وقد قام بإصلاحات مدنية جليلة النفع"(1).

2. مآخذ السياسة المالية في عهد الحجاج:

جاء في كتاب لعبد الملك بعث به للحجاج: "أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس"(2) وانطلاقا منه، فإن الحجاج في نظر من كتب عنه في جانب السياسة المالية-سواء كان من الشيعة أو المستشرقين أو من تابعهم في ذلك- قد عدّه مبذرا ومسرفا في النفقات ومضيعا للمال و لم يكن بالراشد، وخاصة مع المقربين منه ومعاونيه. وقد ذكروا العديد من الأمثلة في ذلك، فهذا صاحب شرطته عكرمة بن ربعي بن عمير(3) يجري الحجاج على منصبه مرتب مائة ألف درهم سنويا. (4)

.....

1/ الدولة الأموية، ص69.

2/ نفس المرجع، ص63-64.

3/ عكرمة بن ربعي بن عمير التيمي البصري المعروف بالفياض قدم على عبد الملك هاربا من الحجاج فنزل على يزيد بن أبي اللّمس الغساني بدمشق فاستأمن له عبد الملك فأمنه وقيل أن خيل الحجاج لحقته في بعض سكك المربد فعطف عليهم فقتل منهم نيفا وعشرين رجلا ثم قتلوه.ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج17 ص131.

4/ نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، ص318.

وهذا يزيد بن أبي مسلم(1) أخ الحجاج في الرضاعة، يتقاضى في كل شهر ثلاث مائة درهم مقابل تقلده لمنصب ديوان الرسائل"(2).

وبالمقابل من ذلك فإن الحجاج قد أساء إلى أهل العراق مثلا:"وراح يحاول تخفيض مخصصاتهم من بيت المال"(3)؛ وما قيام ثورة ابن الجارود عليه إلا بسبب ذلك.

كما أن الضرائب في عهده قد زادت على ما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة وبداية الدولة الأموية، ولم يبق الأمر كذلك بل:" لم يراع الخلفاء الأمويون[أنفسهم] القواعد التي قررها أسلافهم بل جازوا حدودها"(4)، ونرى أن هذه أحكام مطلقة تطلق على السياسة الأموية وكأنها قواعد ثابتة لا يجوز فيها الاستثناء على الرغم من أنه لكل قاعدة استثناء.

وقد زاد الحجاج في فرض الجزية بأن:"زادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير"(5). وينقل الدكتور حسن إبراهيم حسن قولا لفون كريمر يجاريه فيه محاولا أن يثبت فيه أن الحجاج:"يرغم حديثي العهد بالإسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار"(6). بالإضافة إلى ذلك فإن الخراج على عهد الحجاج قد انكسر، ولم يبق يحمل منه الشيء الكثير وقد أدى هذا كله إلى نتائج سيئة على شرائح كبيرة من المجتمع.

واتهم الحجاج- لسوء سياسته المالية على زعم من زعم ذلك- الدهاقين وجباة الأموال وحملهم مسؤولية هذا الانكسار والانخفاض في مداخيل الميزانية وألح عليهم في ذلك فكان جوابهم :"أن عماله أخذوا العاجل ولم يعمروا للعام المقبل"(7).

وقد كان الحجاج بالمقابل الإسراف الذي لوحظ عنه مع مقربيه ومعاونيه، مقترا وبخيلا مع الرعية، بحيث اجترأ من كثرة حرصه على المال وعلى الجباية أنه أراد أن يأخذ فضل أموال السواد، وكتب في ذلك لعبد الملك إلا أن الخليفة منعه وكتب إليه:"لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك"(8). وهذه قمة الجشع والطمع من

1/ يزيد بن أبي مسلم أبو العلاء الثقفي مولاهم استكتبه الحجاج بن يوسف وكانت فيه كفاية و نهضة وقدم على سليمان بن عبد الملك ثم استعمله يزيد بن عبد الملك على إفريقية عام101هـ وتوفي عام 102هـ. ابن منظور :مختصر تاريخ دمشق ج28 ص15 18.

2/ نجده خماش: الإدارة في العصر الأموي، ص314.

3/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج1 ص386.

4/ المرجع السابق ج1 ص386.

5/ نفس المرجع والجزء والصفحة.

6/ ينظر: المرجع السابق نفس الجزء والصفحة، مختصر ابن منظور: [illegible]

7/ مختصر ابن منظور :المرجع السابق نفس الصفحة.

8/ نفس المرجع والصفحة.

الحجاج في جباية الأموال على اختلاف أوجه جبايتها.

ولم يتورع الحجاج يوما ولم يتمعر وجهه وهو يأخذ الجزية ممن أسلم مخالفا في ذلك حكم الله وما قضى به الإسلام؛ فالإسلام فرض على أهل الصلح من أهل الذمة والموالي ممن لم يسلم الجزية وتزول فور إسلامهم. والحجاج معاند مكابر يرفض تعاليم الدين وصراحة الدليل القرآني مع أن:"صراحة الآية القرآنية في أمر الجزية لا مجال فيها لأي تأويل"(1). يقول الله تعالى:"قاتلوا الذين لايومنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"(2)؛ وبهذا يكون الحجاج:"قد قسا في أمر الموالي خاصة وأهل العراق عامة"(3).

كما أن الحجاج ولشدة حرصه على المداخيل – وكأن الحجاج يعمل لصالحه الخاص ويجبي الأموال ليصرفها في حاجياته الشخصية- أن أعاد الفلاحين بعد نزوحهم من أراضيهم إلى المدن بالقوة ورغما عنهم، ولم يتوقف عند هذا الحد بل:"أعاد الحجاج الخراج على كل أرض أسلم أصحابها"(4).

هذا وقد تكون للحجاج بعض المآخذ التي أخذت عليه في تسييره للاقتصاد في العهد الأموي غير أنها لم تذكر في هذا المبحث سواء كان ذلك بسبب عدم تدوينها من طرف المؤرخين الأوائل أو أنهم عفوا عنه فيها أو لأنهم لم يجدوا لها سندا يستأنسون به لتأكيدها. وقد يكون السبب عدم وصول الباحثين وخاصة منهم المعاصرين إلى أماكن تلك المآخذ أو قصرت أفهامهم في استخراجها واستنباطها من كتب المؤرخين الأولين.

غير أن الذين يستعملون الخراج مكان الجزية أو الجزية مكان الخراج، فإنهم يوقعون القارئ في لبس وحيرة من أمره، ويوحون له بأن هذا الإجراء الذي قام به الحجاج ومن ورائه عبد الملك:" كان إجراء مخالفا للإسلام وكان على الباحثين أن يدققوا في استعمال الألفاظ"(5).

1/ محمود المقداد : الموالي ونظام الولاء ، ص236.

2/ سورة التوبة الآية 29.

3/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج1 ص386.

4/ علي الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص201.

5/ محمود المقداد: المرجع السابق ،ص237.

وبالموازاة مع كل هذه المآخذ التي أخذت على الحجاج فإن الرجل كانت له آثار باقية –سواء ما كان منها مدونا في كتب الأدب والتاريخ والآثار أو ما كان منها معروضا في المتاحف– تشهد على الإصلاحات والتعديلات والاجتهادات الاقتصادية التي أبدع فيها الحجاج والتي انفرد في بعضها أو شاركه غيره في البعض الآخر أو قلد هو غيره فيها من جانب ثالث.

3. إصلاحات الحجاج في الجانب الاقتصادي:

- **سك العملة:**

يعتمد الاقتصاد في أية دولة من الدول على أسس ثابتة يتغير بموجبها ويتحدد بوجودها أو بعدمها، وأن مؤشر نموها أو انتكاستها يقوم عليه، وأهم هذه الأسس العملة والتي تعتمدها الدولة وتقرها وتلزم الرعية بها.

والخلافة الأموية في عهد الحجاج، بعدما قضت على الفتن والثورات الداخلية وأمنت حدودها مع الدول المجاورة لها ونعمت بالاستقرار، أوجدت النقد الإسلامي الخاص بها والذي أصبح ضرورة تقتضيها مرحلة الدولة للتخلص والتحرر من كل تبعية اقتصادية ونفوذ أجنبي.

وقد أسس الخليفة عبد الملك هذه العملية على أساس علمي مدروس وتخطيط محكم، وجند لها ما تحتاجه من مواد أولية وهياكل أو حتى اليد العاملة، وحدد لها عيارا ثابتا وجمع في ذلك العلماء واستشارهم في النسبة الشرعية لضرب العملة، وقد كان لهذه الفعلة الطيبة والالتفاتة النورانية من عبد الملك الأثر الطيب والنفع الجزيل للاقتصاد الإسلامي للدولة آنذاك وللرعية؛ واكتست السكة المتداولة صبغة عربية إسلامية خالصة بعدما كانت تارة رومية وأخرى فارسية.

وإذا كان عبد الملك وهو الرجل الأول في الخلافة قد وضع هذا وسهر عليه وأصدر في حقه العديد من الرسائل والأوامر الرئاسية، فإن الحجاج وهو الرجل الثاني في الخلافة في الإقليم الشرقي الذي يشرف عليه قد سهر على تطبيق أوامر الخليفة و لم يألل جهدا في تنفيذها بل لقد زاد في تطبيقاته لهذه المراسيم في واقع الناس.

ويعود الفضل كل الفضل للحجاج في المنطقة الشرقية للخلافة الإسلامية التي سكّ فيها العملة ووحّدها، بأن اتخذ دار ضرب جمع فيها الطبّاعين وقد كان في ذلك مقلّدا للفرس، ثم ما لبث أن زادت أفضاله بعد سك العملة أن جعل لها وزناً ومقدارا:" فهو أوّل من عمل الأوزان، فبعد أن كان النّاس يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره، وضع له سمير اليهودي الأوزان"(1)، وللحجاج مع سمير اليهودي قصة طريفة في ضرب السكّة.

فبعدما ضرب الحجاج السكّة، أصدر أوامره للأمراء والولاة للتعامل بها، وأمر بإبطال التعامل بغيرها من النقود سواء الرومية منها أو الفارسية، وأمر بجمع هذه الأخيرة وردّها إلى دار الضرب حتى تعاد صياغتها من جديد على الطريقة العربية الإسلامية، غير أنّه تفاجأ بعملة جديدة على غير الطراز الذي حدّدته الخلافة لصاحبها اليهودي، فأخذه عمال الحجاج وجاءوا به لتنفيذ حكم الإعدام فيه في حضرة الحجاج، غير أنّه قال للحجاج:"عيار دراهمي أجود من دراهمك، فلم تقتلني"(2)؛ فلم يتركه الحجاج و لم يخلّ سبيله حتى وضع له الموازين، وحتى ذلك الوقت لم يكن الناس يعرفون بعدُ الموازين، فوضع له:"وزن ألف ووزن خمسمائة، ووزن ثلاثمائة إلى وزن ربع قيراط وجعلها حديداً"(3).

وقد شدّد الحجاج في المحاسبة ومراقبة العملة المتداولة في الخلافة وكتب إلى عماله أن:" يكتبوا إليه في كل شهر بما يجتمع قِبَلَهم من المال"(4)، ولم يكن يقبل غيرها في الزكاة أو الخراج، وكان من نتائج ذلك أن:" استفاد النظام المالي للدولة الأموية من هذا الاستقرار النقدي، حيث كفلت النقود الجديدة العدالة لكل من الرعية والخراج الخاص بالدولة وأجمع المؤرخون على أنّ الوزن الذي سُكّت عليه تلك النقود كان هو الوزن الشرعي الذي سلد عهد الرسول الكريم ﷺ"(5).

وقد جاء وصف الدراهم التي ضربها الحجاج في العديد من كتب التاريخ، حيث جاء فيها أنّ الحجاج قد نقش على أحد وجهي الدرهم "قل هو الله أحد" وعلى الوجه الآخر"لا إله إلاّ الله"، وطوّق الدرهم على وجهيه بطوقين، كتب في أحد الطوقين"ضرب هذا الدرهم

.....

1/ لجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، ص241.

2/ بسام العسلي: عبد الملك بن مروان، ص80.

3/ د/ لجدة خماش: المرجع السابق، ص241.

4/ نفس المرجع، ص240.

5/ د/إبراهيم أحمد العدوي: نهر التاريخ الإسلامي، ص291.

بمدينة كذا"، وفي الطوق الآخر:"محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون"(1).

هذا ولم تسلم فعلة الحجاج هذه من النقد والتهكّم والانتقاص، فقد قيل أن بعض الرعية لم يكن يتعامل بهذه النقود مقاطعا لها كمحمد بن سيرين(2) تاجر البز(3). كما أنهم أطلقوا عليها اسم الدراهم الأُحَديَّة ووصفوها بالمنقوصة والمكروهة؛ غير أن هذه العملة بقيت حتى بعد وفاة الحجاج هي المفضّلة عند الخلفاء والرعية على السواء من شدة جودتها وتوافقها مع الشرع حتى أن خلفاء بني العباس، رغم حقد بعضهم على الدولة الأموية، إلا أن البعض الآخر قد وجد بأن عمل الحجاج في ضرب السكة العربية الإسلامية ومن ورائه عبد الملك يُعدُّ عملاً حضاريا جليلاً وأنهما قد حَفِظا للدولة الإسلامية، على اختلاف خلفائها وأزمانها مركزها اللائق بين الأمم، فهذا أبو جعفر المنصور:" لم يكن يقبل في الخراج غيرها"(4).

➢ **البناء والتعمير:**

مر بنا في صفحات سابقة قول الدكتور أحمد شلبي الذي جاء فيه:"والعجيب أن الذي يدرس الحجاج لا يجده عقلية عسكرية فقط، بل يجده كذلك ذا عقلية بناءة في زمن السلم وقد قام بإصلاحات مدنية جليلة النفع"(5). وانطلاقا من هذا، فإن للحجاج مع البناء والتعمير محطات ووقفات كانت له بمثابة المعالم في الطريق لا تخفى على مبصر، ولا ينكرها إلا جاحد مكابر، بذل فيها الحجاج الكثير من الوقت والمال.

وأوّل هذه المحطات بناؤه الكعبة الشريفة، فبعدما تصدع بناؤها بفعل سقوط أحجار المنجنيق عليها أثناء حصاره لعبد الله بن الزبيرﷺ، أعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش، فقد أخرج منها الحِجْر، وبنى الحائط الذي يلي الحجر، وسدّ الباب الغربي الذي في

1/ ينظر: النجوم الزاهرة: تحقيق د/ إبراهيم علي طرخان، ج1 ص176. شوقي أبو خليل:الحضارة العربية الإسلامية، ص386. علي الخربوطلي:الحضارة العربية الإسلامية،ص219. أحمد عبد الرزاق أحمد :الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى،ص159. نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، ص243.

2/ محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة تابعي مولده ووفاته بالبصرة (33-110هـ) نشأ بزازا.الزركلي: لأعلام ، ج6 ص154.

3/ محمد عمارة:الإسلام وفلسفة الحكم، ص521.

4/ النجوم الزاهرة، ج1 ص177.

5/ الدولة الأموية، ص69.

دبر الكعبة، وزاد من ارتفاع حيطانها، ثم كساها حلة تليق بها من الديباج الخالص، وكان أن انفق في ذلك الشيء الكثير من الأموال(1).

ويعد الحجاج هو أوّل وال من ولاة الخلافة الأموية الذي كسى الكعبة بالديباج، بعد خالد بن جعفر بن كلاب في الجاهلية وعبد الله بن الزبيرﷺ أثناء حكمه لمكة.

وثاني هذه المحطات بناؤه مدينة واسط، وهي ثالث أهم المدن التي اختطّها المسلمون في تلك المنطقة، وقد اختلف المؤرخون في سنة البناء هل كان ذلك سنة83هـ[703م] أو سنة84هـ[704م]؟ غير أنهم مجمعون أن الحجاج قد أنهى بناءها سنة86هـ[706م].

وكما اختلفوا في سنة بداية بنائها، فإنهم اختلفوا في الأسباب الحقيقية التي دعت الحجاج إلى بنائها؛ فمنهم من ذكر أن الأسباب عسكرية قصد من ورائها عدم مخالطة جند الشام لأهل العراق(2)، وقيل أن السبب هو تركيز السيطرة على مدينتي الفتن البصرة والكوفة(3). ومن المؤرخين من أرجع السبب في بناء مدينة واسط إلى سبب معنوي وخواطر نفسية اختلجت في صدر الحجاج، وهو أنه:"لما فرغ من حروبه استوطن الكوفة فآنس منهم الملال والبغض له، فقال لرجل ممن يثق بعقله:امض وابتغ لي موضعا في كرش من الأرض أبني فيه مدينة وليكن على نهر جار"(4).

ومهما كان السبب الحقيقي في بناء مدينة واسط، فإن الفكرة في حد ذاتها تعدُّ لفتة طيّبة وتجسيدًا لتعاليم الدين في إعمار الأرض والاستخلاف فيها كما أن الحجاج قد استفاد منها وأفاد لأنه بناها على أسس علمية مستشيرا في ذلك الأطباء من الناحية الصحية فقد كان ماؤها طيبا وجوّها معتدلاً وأرضها كثيرة الخيرات، وسهّلت عليه عملية المراقبة والإشراف لمدينتي الكوفة والبصرة من الناحية التكتيكية والعسكرية.

وقد أنشأ الحجاج بالمدينة الجديدة العديد من المرافق الضرورية لتسهيل ظروف الحياة

1/ ينظر: القزويني:آثار البلاد وأخبار العباد، ص113 وص117 وما بعدهما وص478. البلاذري: فتوح البلدان، ج 5 ص63 وص407 وما بعدها. تاريخ خليفة: ص169. الماوردي: الأحكام السلطانية، ص205 وما بعدها.

2/ علي الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص288. ولعلّ علي الخربوطلي قد ذكر هذا السبب لتأثره بفلهوزن الذي ذكر نفس السبب، وكذا كارل بروكلمان الذي ذكر ذلك في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية، ص176 وما بعدها.

3/ موريس لمبار:الإسلام في مجده الأول، ترجمة وتحقيق: د/ إسماعيل العربي، الجزائرالمؤسسة الوطنية للكتاب 1984م، ص190

4/ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5 ص400 وما بعدها.

والإسراع في استيطانها، فقد أنشأ بها جسراً من السفن يربط بين ضفتي المدينة، وبنى بها المسجد الجامع، وقصر الإمارة وبجانبه القبة الخضراء وأحاط المدينة كلها بسور، فبلغ ثمن تكلفة المدينة الجديدة لإعمارها أكثر من أربعين مليون درهم(1). وسمح للذين سكنوا المدينة الجديدة ببناء منازلهم لتكثير سواد المسلمين بها بعد أن يدقّق في اختيارهم.

ولا تكاد تذكر في كتب التاريخ حسنة من حسنات بني أمية أو ولاّتهم إلاّ وكال لها الحاقدون الشيء الكثير، فيذكر بعضهم أن الرعية قد سخطت على الحجاج وعلى ما قام به وكالوا له من السباب والشتم ما هو أهل له؛ فقد وصفوه بأنه من أخبث الأخبين ومن أفسق الفاسقين وأن الأرض التي أقلّته تمقته وأن السماء التي أظلته تلعنه(2). ويذكر آخرون(3)، في حق الحجاج وبنائه لمدينة واسط أشياء لا تخطر ببال ولا يصدِّقها عقل ولا يسندها شرع، وهذا كله لإفساد صورة الحكم الأموي عامة وتشويهه وكذا طمس المعالم الحضارية والإنجازات التي قام بها الخلفاء والولاة وبخاصة الحجاج.

كما كانت للحجاج وقفات أخرى في البناء والتعمير غير أنها لا ترقى إلى مستوى المحطتين السابقتين(بناء الكعبة الشريفة ومدينة واسط) منها ما ذكره الإمام الذهبي أن الحجاج:" كان له بدمشق آدر منها دار الزاوية"(4) وقصره الفخم الذي شاده بمدينة البصرة سماه باسمه(5).

وقد عُدَّ الحجاج- وهو ينجز هذه الأعمال الحضارية للأمة- مسرفاً، وحتى لا يظهر إسرافه وتبذيره للأموال ولا يحاسب على أوجه النفقات هذه، فقد زَوَّر الحجاج فيما دوّنه من نفقات فعوض أن يثبت مصاريف البناء في بند البناء -على أساس أن المبالغ ضخمة وكبيرة- فقد قيّد ذلك في بند آخر يتلاءم والأرقام المقيّدة بأن جعله في مصاريف الحروب والفتوحات لأن هذا البند الأخير يستهلك الشيء الكثير من ميزانية الدولة(6).

1/ ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5 ص400 وما بعدها. د/علي الخربوطلي:الحضارة العربية الإسلامية، ص289.

2/ د/ محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم، ص515 وما بعدها، نقلا عن: غرر الفرائد ودرر القلائد: لعلي بن الحسين الموسوي الشيعي ص155،160-161 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.القاهرة 1954م.

3/ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص478.

4/ تاريخ الإسلام، ج6 ص316.

5/ د/علي الخربوطلي: المرجع السابق ص283.

6/ ياقوت الحموي: المصدر السابق ج5 ص400 وما بعدها.

- استصلاح الأراضي:

سبق وأن ذُكِر في صفحات سابقة أن الإسلام قد اهتم اهتماماً كبيراً بالجانب الاقتصادي، وجعل له قوانين وضوابط، وكما ركّز على التجارة في العديد من المواضع في القرآن الكريم ذكر الزراعة وأشاد بها وبالأرض والغرس وبكل ما يساعد على تنميتها وازدهارها.

وسبق وأن ذُكِر بأن الحجاج كان مولعاً بالقرآن وقراءته ومدارسته حتى أنه كان يختم القرآن كله في اليوم الواحد؛ وروي عن عمر بن عبد العزيزﷺ قوله:"ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه للقرآن وإعطائه أهله"(1).

ومن شدة تأثر الحجاج بالقرآن وبالتوجيهات الإلهية فيه وبخاصة تلك التي جاء فيها ذكر الأرض والزراعة والأمثلة التي ضربت في القرآن حول الجنّات الغناء والبساتين الفيحاء، ما حدى به أن يوجه اهتمامه لهذا الجانب.

وكما هو معلوم فإن أرض العراق أرض زراعية بالدرجة الأولى، ممّا جعلها محط أنظار الخلفاء والولاة، من عهد عمر بن الخطابﷺ إلى عهد الحجاج، فتعهّدوها بالإصلاح والعناية اللائقة بها وقدّموا لها كل ما يساعدها على النمو والتطور وبما يكفل حاجيات الأمة الإسلامية من القوت المستهلك.

وللحجاج أفضال على أرض العراق الزراعية، فقد استصلح منها مساحات واسعة وخاصة منها الأراضي المنخفضة التي كانت غير مستغلة ومليئة بالقصب في عهد الخليفتين عبد الملك وابنه الوليد، وذلك حرصا منه على عدم إبقائها بوراً أو مواتاً.

كما أن الحجاج قام بعد مسح أرض العراق بإصلاح قنوات جلب المياه للري، وحفر لها أنهرا منها نهر الصين ونهر النيل والزابي، كما سدّ البثوق التي أحدثتها المياه في جوانب الأنهار وخاصة منطقة البطائح، وبنى المسنيات ووضع الحواجز لتوجيه المياه المتدفقة حتى لا تغرق الأرض وجعل للمياه صمامات يتحكم الفلاحون من خلالها فيها وتسمى البريدات وخاصة تلك التي كانت في نهري دجلة والفرات، وقد كانت نفقة هذه الإصلاحات كلها من بيت

1/ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج6 ص325.

مال المسلمين(1)؛ باستثناء منطقة البطائح والتي أنفق عليها مسلمة بن عبد الملك ثلاثة ملايين درهم مقابل أن يقطعه الوليد الأراضي المنخفضة لاستصلاحها واستغلالها لصالحه(2).

ومن حسنات الحجاج على الأرض واستصلاحها أن أَعْمَرَها وجلب لها المزارعين والأَكَرَة وكثَّر فيها سواد المسلمين، فقد جلب لها جماعة من السند والهند مع أهليهم وأولادهم وجواميسهم وأقطعهم مناطق من الأراضي المستصلحة وإقليم المستنقعات:"فأقاموا بها ما يشبه المزارع النموذجية الحديثة، مما شجع على تقدم الزراعة وإحياء أرض الموات"(3).

و لم تتوقف سياسة الحجاج الإصلاحية عند هذا، بل لقد تعدتها إلى تقديم القروض للفلاحين والسلف للمزارعين لإقامة مزارعهم النموذجية:"وقد بلغ ما قدمه الحجاج مليوني درهم من بيت المال"(4)؛ بل لقد توسعت مدارك الحجاج الإصلاحية وهو يدرك أن الأمة التي تأكل وتستهلك أكثر مما تنتج فهي مرشحة للزوال، وأرشدته تلك المدارك إلى أن أسقط الضريبة عن البقول والخضراوات واسعة الاستهلاك حتى يشجع الفلاحين في الإكثار من إنتاجها. وأصدر أوامر للفلاحين جميعا يمنعهم فيها بعدم ذبح البقر والجواميس خوفا من انقراضها وزيادة للثروة الحيوانية، لأن هذا النوع من الحيوانات من العوامل المساعدة لازدهار الزراعة ونموّها في تلك المناطق:"ولأن في ذلك مصلحة للمزارعين وللمسلمين عامة"(5).

ويبقى أن نذكر أن الحجاج من جراء سياسة اللين التي سار بها في الرعية، وكذا سياسة الإنفاق اللامتناهية على الإصلاح الاقتصادي، ما شجّع التجارة على النمو الكبير بعد أن أمنت الطريق واستصلحت الطرقات وأقيمت الجسور، هذا النمو الذي هدّد الزراعة حيث ترك بعض الفلاحين أراضيهم سعيا وراء الكسب السريع والمربح من القرى إلى المدن المجاورة، ولاحظ الحجاج أن اضطرابا في الميزان الاقتصادي قد وقع وسببه الهجرة الريفية غير المنظمة إلى المدن، فأرجع هؤلاء الفلاحين إلى أراضيهم مجبرين، فعدَّ الحجاج بذلك ظالما

1/ ينظر: نجدة خماش:الإدارة في العصر الأموي، ص200 ،245 –248 بتصرف. شحادة الناطور:تجديد الدولة الأموية، ص200.

2/ نجدة خماش: المرجع السابق، ص200.

3/ شحادة الناطور: المرجع السابق ص222 بتصرف.

4/ لنفس المرجع، ص223.

5/ نجدة خماش: المرجع السابق ص246.

وغاشما، غير أن السياسة العامة للدولة في ذاك الزمان كانت تقتضي ذلك، وأيما مسؤول كان مكان الحجاج لفعل مثله أو أكثر.

» **جباية الخراج وتجديد نظام المالية العمري:**

تجمع هذا العنصر بالعنصر الذي سبق علاقة وطيدة ورابطة متينة، ذلك لأن جباية الخراج وتجديد نظام المالية الذي كان على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد ارتبط بأرض السواد من العراق والتي جعلها الخليفة الراشد أرض خراج تعود إلى بيت مال المسلمين وقد اجتهد الخليفة في ذلك واستشار الصحابة، فأشاروا عليه بما ذهب إليه.

وقد بنى عمر رضي الله عنه نظام المالية في بند الجزية على أساس قرآني واضح بيِّن لأن صراحة الدليل القرآني لا تحتاج إلى تأويل كما ذكرناه، أما بند الخراج فبناه على أساس اجتهادي وأعمل فيه رأيه ومشورة الصحابة بما يتماشى والظروف الطارئة للأمة، وللأمة الحق في الاجتهاد بعده بما يحقق لها مصالحها.

وقد قام الحجاج أحسن قيام في أداءه لمهمة جمع الخراج وجبيه، وكذا في حسن تدبيره له وصرفه في أوجهه الصحيحة. ومن حسن تدبيره وصرفه أنه أعاد تنظيم الجند بالعراق وتنظيم عطائهم وذلك حسب الكفاءة التي يبدونها وولائهم للخلافة واشترط على من يكون عريفا في جنده أن يجيد:"قراءة القرآن، ومعرفته للغة العربية والشعر والحساب والفرائض ومغازي رسول الله ﷺ"(1).

وقد تذبذبت حالة جبي الخراج واختلف الرسم البياني لمنحنى هذا الجبي من سنة لأخرى وقد جاء في بعض الروايات أن مبالغ الجباية كانت:"ما بين 18مليون درهم في حدّها الأدنى و128 مليون درهم في أقصاها، مع أنها لا تذكر تاريخ الجباية"(2). وقد لاحظ الحجاج ذلك كما سبقت الإشارة إليه، وقد عالج جانبا من جوانب هذه المشكلة برد الفلاحين النازحين إلى المدن إلى قراهم.

زد على ذلك أن هذا التذبذب راجع إلى أسباب أخرى ومنها كثرة النفقات على الحروب والتي استنزفت الكثير من أموال بيت مال المسلمين بالإضافة إلى تحويل أرض الخراج إلى

1/ د/شحادة الناطور: تجديد الدولة الأموية،ص356.

2/ المرجع السابق نفس الصفحة.

أرض عشرية في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث حيث تم إتلاف وإحراق وثائق ديوان الخراج.

ومن خلال الأسباب والمسببات التي ذكرت يتبّن أن عوامل كثيرة كانت وراء هذا النقص والتذبذب وليست سياسة حجي العاجل التي اتهم بها الحجاج أو خروج الحجاج عن تشريعات الإسلام بما فيها اجتهاد عمر رضي الله عنه في الخراج، بل يعود للحجاج الفضل في تجديده وبعثه من جديد بما يتماشى والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت في زمانه.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه اجتهد بما رآه صالحا لزمانه ويخدم مصلحة الأمة وعالج مشاكل وقته حسب الظروف التي كانت سائدة، و لم يجعل ذلك تشريعاً ثابتاً قطعي الثبوت والدلالة بل تركه سُنَّة جارية وللمسلمين أن يجتهدوا بعده بمثل ما اجتهد هو فيه، دون أن يكون ذلك انتقاصاً للتشريع الإسلامي أو الخروج عنه وعن تعاليمه وضوابطه.

فإجراءات الحجاج التي ذهب إليها واتخذها إنما كان يقصد من ورائها:"إصلاح الأوضاع المالية للدولة وتنشيط الاقتصاد في زمانه، فاجتهد في إيجاد الحل الموافق والملائم آنذاك فكان أن أجرى تعديله-إن صح استخدام هذه الكلمة هنا- على نظام عمر بن الخطاب المالي"(1)

فالحجاج لم يخرق قانون المالية العمري بل اجتهد فيه وصحّح مفهوم تطبيقه بما يتماشى والواقع ، وإنما وقع الالتباس وسوء الفهم عند الذين كتبوا عن الحجاج في هذا الموضوع لما اختلط عليهم الأمر في استعمال لفظي الجزية والخراج بمعنى واحد.

وإذا ما كان الأمر كذلك فإن فرية الجزية التي فرضت زمن الدولة الأموية من قبل الحجاج تسقط تلقائيا ولا تجد لها ما يدعمها أو يسندها إلا أقلام المغرضين من عرب أو مستشرقين.

1/ د/ محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء، ص234.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث:

﴿ دراسة موازنة بين زياد والحجاج ﴾

الموازنة الأولى:

* في الأصل والمنشأ والوفاة*

1. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة.
2. أوجه الاختلاف:

- مميزات زياد عن الحجاج.
- مميزات الحجاج عن زياد.

لعل القدر لم يجمع زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي في بطن واحدة لأم أو في بطن من بطون قبيلة واحدة أو في زمن واحد يتعايشان معا ويعايشان الحياة والواقع. فإن لم يجمعهما القدر على ما تقدم ذكره فقد قربهما من بعضهما في قرن واحد وفي دولة واحدة. فالأول قد عايش بداية الدولة الأموية وتأسيسها والثاني قد عايش إعادة بعثها وتجديدها.

ورغم المدة الزمنية الفاصلة بين الرجلين إلا أن الأقدار قد جمعت بينهما في العديد من الخصائص ومنحت لأحدهما بسطة في مميزات ومنعتها عن الآخر لتكون العبرة ويكون التدبر، ولله في خلقه شؤون.

1. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة:

فأما القواسم المشتركة وأوجه الشبه فهي:

- ولد زياد والحجاج في قرن واحد.
- كلاهما ولد في قبيلة ثقيف.
- كلاهما ثقفي النسب إذا حمل نسب زياد على نسب الفراش الذي ولد عليه.
- كلاهما تحاملت الأقلام المغرضة عليه ونعتته بأقبح الأوصاف.
- تشابه موتهما بتشعب الآراء والروايات .
- تشابههما في سبب الموت إذا حمل موت زياد بقتله أعبد الناس في زمانه أبو المغيرة الحميري والحجاج بقتله سعيد بن جبير.
- تميزهما بالفصاحة وطلاقة اللسان وما الخطب التي حفظتها كتب التاريخ والأدب إلا دليل على ذلك.
- كلاهما توفي في شهر رمضان المبارك.
- كلاهما تفجع عليه خليفة زمانه لما سمع بموته.

2.أوجه الاختلاف:

أ/ مميزات زياد عن الحجاج:

إمتاز زياد عن الحجاج بما يلي:

- الاختلاف البين في النسب وتعدد أنسابه من جهة أبيه على ما جاء في الروايات.

- شبه إجماع من كل الذين كتبوا عنه وعدم اختلافهم في سنة مولده.
- معرة زياد بنسبه لأمه على أساس أنها أَمَة.
- زياد قرشي النسب إذا حمل على نسب أبي سفيان.
- لم يتعرض زياد للانتقاص والتهكم في الناحية الخِلقية مثل الحجاج.
- نشأة زياد الأولى كانت بالبصرة.
- كثرة مخالطته لمجالس الصحابة.
- تولى أمور المسلمين وهو في سن مبكرة من عمره.
- طالت مدة خدمته في الدولة الإسلامية مزامنة لأربعة خلفاء من الصحابة.
- مميزه بالدهاء والفطانة ورجاحة العقل.
- تميزه في حل المعضلات وإطفاء نار الفتنة بأقل الخسائر وفي أقصر وقت ممكن.
- اعتماده على مبدأ الشورى في حل المشكلات على الصعيدين مع عقلاء الأمة ومركز الخلافة.
- تفجع الرعية لموته وبخاصة المناطق الشرقية في الدولة التابعة لحكمه.

ب/ مميزات الحجاج عن زياد:

لقد امتاز الحجاج عن زياد بالمميزات التالية:

- الحجاج ثقفي المولد والنسب.
- الاختلاف البين في سنة مولده بين المؤرخين.
- نشأ الحجاج في ثقيف بالطائف.
- تعرض الحجاج للانتقاد والانتقاص في شخصه من الناحية الخلقية على أساس أنه ولد مشوها.
- لم ينتقص الحجاج في نسبه من جهة أمه لأنه ابن امرأة عربية حرة.
- كانت مدة خدمته في الدولة مزامنة لفترة خليفتين كان الأول منهما المؤسس الثاني للدولة الأموية.
- تميزه بحل المشكلات ولكن قد تنجر عن ذلك خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات.
- تفجع الخليفة لموته لأنه فقد عاملا مخلصا أمينا.
- فرح الرعية لموته على ما جاء في الروايات التاريخية.

الفصل الثالث:

﴿ دراسة موازنة بين زياد والحجاج ﴾

الموازنة الثانية:

* في علاقتهما مع السلطة المركزية *

2. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة.

3: أوجه الاختلاف:

- مميزات زياد عن الحجاج.
- مميزات الحجاج عن زياد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مما تقدّم من شرح في المبحثين السابقين يتبيّن أن زيادا والحجاج وهما يتعاملان مع السلطة ومركز القرار، وكذا مع عمال الخلافة، كانت لهما نقاط تقاطع كثيرة وقواسم مشتركة عديدة رغم اختلاف فترة حكمهما والمدّة الزمنية الفاصلة بينهما، وقد كانت لهما كذلك خصائص وصفات اتصف بها كل واحد منهما وتميّز بها عن الآخر.

1. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة:

فأما النقاط المشتركة بينهما والتي كانت عديدة ومتعدّدة فنلخص منها ما يلي على النحو التالي :

1. اتصال كل منهما في سن مبكرة بمركز القرار في الخلافة، فالأوّل زمن الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه، والثاني زمن عبد الملك المؤسس الثاني للدولة الأموية.
2. اتصاف كل من الشخصيتين بصفة الإخلاص التام واللامحدود للحكم القائم وللخليفة.
3. طول المدّة التي قضاها كل من الشخصيتين في سدّة الحكم والاتصال المباشر بالسلطة القائمة في مركز القرار.
4. كثرة الفتن والثورات والامتحانات والابتلاءات التي تعرضا لها طيلة فترة حكمهما.
5. كثرة تقلبهما في تولية المناصب حتى بلغا مرتبة الوزير والتي استحدثت فيما بعد حتى وإن لم يلقبا بها؛ مع العلم أن زيادا قد بدأ كعامل بسيط في المحاسبة والحجاج كشرطي من شرطة وزير عبد الملك.
6. تقديمهما للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة والشخصية الضيّقة
7. الثقة التامة التي تمتع كل منهما بها من شخص الخليفة، وعدم اهتزاز هذه الثقة مدة فترة حكمهما رغم تعاقب الخلفاء والأنظمة.
8. تمتعهما بالعلاقة الطيّبة والمتينة والتي جمعت بينهما وبين عمالهما على الأمصار.
9. كانا كثيرا التأثر والولع بالخليفة الحاكم ونمط الحكم المتبع وتقليدهما لذلك في كل صغيرة وكبيرة.

2. أوجه الاختلاف:

➢ مميّزات زياد عن الحجاج:

أما ما امتاز به زياد عن الحجاج في هذا المجال فهو كالتالي:

01. زياد أوّل من جمعت له بلاد العراق (البصرة والكوفة) و لم تجمع لغيره من قبل.

02. أن زيادا كانت تربطه آصرة أخوة الرحم مع الخليفة، فهو من البيت الحاكم إذا ما حمل على نسب أبي سفيان رضي الله عنه.

➢ مميّزات الحجاج عن زياد:

أما ما تفرّد به الحجاج عن زياد من مميزات فهي كالآتي:

1. تفرّد الحجاج عن زياد بضرب السكة وتنقيتها من الشوائب والحرص على صفائها بأن وضع لها دارا تضرب فيها وجعل لها موازين ومحاسبين و لم يكن ذلك في عهد سابقه.

2. عرّب الحجاج الدواوين زمن حكمه على العراق وما تبعها و لم يكن ذلك في زمن زياد.

3. أحدث الحجاج نظام التجنيد الإجباري مدعما به نظام الجندية في الإسلام، و لم يكن ذلك في عهد زياد.

هذا وقد تكون هناك بعض الصفات الجامعة بين الرجلين، أو قد تكون صفة من الصفات قد تفرّد بها أحدهما عن الآخر، لم تذكر في هذه الموازنة أو في هذا المبحث وقد يكون ذلك ناجما إما لقصر في الفهم أو لعدم توصلي إليها لجهودي المتواضع والذي لم آل في بذله.

الفصل الثالث

﴿ دراسة موازنة بين زياد والحجاج ﴾

الموازنة الثالثة:

* في سياستهما الإدارية *

1. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة.
2. أوجه الاختلاف:

- مميزات زياد
- مميزات الحجاج

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تبيّن من خلال المادة العلمية التي توفّرت في هذا الصدد، ولإجراء الموازنة بين الشخصين في سياستهما الإدارية وكيفية تعاملهما ومبادئهما ومناهجهما في الحياة، أنّ للرجلين سبق في السياسة وفي استنان قوانينها وأن لهما باع كبير في التمرس بها.

ومما تقدم يتبيّن أنهما قد اشتركا في الكثير من نقاط السياسة والتسيير-على ما هو آت ذكره- وقد يكون ذلك إما لكثرة الممارسة واكتساب الخبرة في الميدان السياسي أو أن ذلك قد يكون سببه الأوضاع العامة للمجتمع والدولة، والتي سهلت عليهما بعض الأمور من جانب وجعلتها صعبة في جوانب أخرى.

كما أنّ كل واحد منهما قد تفرّد على صاحبه بخصائص ومميّزات في تسييره وسياسته لم يكن يؤتاها إلاّ هو.

1. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة:

1. استعمالهما أسلوب التهديد والوعيد في خطبهما مبينين أسس ودعائم سياستهما.
2. تحامل كتب التاريخ والرواة وكل من دوّن للفترة الأموية-باستثناء القلة منهم- على الدولة الأموية وعلى خلفائها وولاّتهم وبخاصة زياد والحجاج.
3. اقتران القول بالعمل والفعل، فكانا لا يقولان إلاّ وأتبعا قولهما بالتنفيذ.
4. استغلالهما لوسائل ومؤسسات الدعاية والإعلام المتوفرة والمتاحة في زمانهما وعلى رأسها الخطابة ومؤسسة المسجد.
5. الاهتمام الكبير بمراقبة عمالهما وسير أعمالهم.
6. أنهما اقتلاعا جذور الفتنة واستأصلاها مما أدى إلى استتباب الأمن والطمأنينة في المجتمع.
7. تحسن المستوى المعيشي بزيادة نسبة الدخل لبيت مال المسلمين رغم الزيادة النسبية للسكان بسبب الفتوحات.
8. الاهتمام البالغ للدولة الأموية المجسدة في شخصي زياد والحجاج بالعمران، فالأول بنى مدينة الرزق والثاني بنى مدينة واسط وأعاد بناء الكعبة المشرفة.

5. الإفراط في استعمالهما السلطة والنفوذ، في بعض الأحيان، مما أدى بهما إلى التعدي على حقوق الآخرين وما حادثة معاملتهما السيئة مع صحابة رسول الله-ﷺ - إن صحت الروايات لدليل على ذلك.

2. أوجه الاختلاف:

➢ مميزات زياد:

امتاز زياد عن الحجاج بما يلي:

1. تعيين زياد في منصبه كان بسببين: أولها القربى والثاني الكفاءة والتأهيل.
2. لم يكن زياد ليوقع القصاص إلا بعد أن تثبت التهمة ثبوتا قطعيا.
3. استنانه لقواعد أمنية جديدة لم تكن عند أسلافه مثاله تحريم دلج الليل.
4. استقرار العلاقة بين زياد ومركز الخلافة واستمرارها دون أن تشوبها شائبة.

➢ مميزات الحجاج:

أما ما امتاز به الحجاج عن زياد فهو كالآتي:

1. تعيين الحجاج في منصبه كان بسبب الكفاءة والتأهيل فقط.
2. كان الحجاج يأخذ بالظن في إيقاع القصاص في بعض الحالات رويت عنه.
3. استنانه لقوانين أمنية جديدة مخالفا بها من سبقوه وأشهرها القتل للمتخلف عن البعث.
4. إصداره للوائح وتعليمات مدنية وأخرى عسكرية سبق بها عصره أهمها التجنيد الإجباري ومنع الهجرة الريفية (أو ما يسمى بالنزوح الريفي).
5. أن رقعة الإسلام قد اتسعت بتوسع حركة الفتوحات حتى بلغت حدود الصين.
6. تذبذب العلاقة بين الحجاج ومركز الخلافة خاصة في فترة ثورة ابن الأشعث.
7. كان للحجاج السبق والشرف في بناء الكعبة وإعادتها على ما كانت عليه في عهد النبي -ﷺ -.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

﴿ دراسة موازنة بين زياد والحجاج ﴾

الموازنة الرابعة:

* في سياستهما الاقتصادية *

1. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة.
2. أوجه الاختلاف:

- مميزات زياد.
- مميزات الحجاج.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جاء الإسلام –وهو الدين الشامل لكل جوانب الحياة الإنسانية– ليغسل النفس البشرية من أدران جاهليتها وليرفعها إلى مستواها السامق في مصافها الملائكي، فعلى قدر ما تأخذ النفس من هذا الدين بكل إخلاص وصدق بقدر ما تعتلي عن حمئيتها وتزكو وتتفتق قدراتها وأسرارها التي أودعها الله ﷻ فيها مصداقا لقوله تعالى:"وفي أنفسكم أفلا تبصرون"(1).

وزياد والحجاج من معتنقي هذا الدين، جاءوا بعد خير القرون وهو زمن النبوة واحتكوا بالكثير من صحابة رسول الله ﷺ فتفتقت قدراتهم بحسب ما أخذ كل واحد منهما من الدين، وبحسب ما أعطى كل واحد منهما لهذا الدين من وقت وصدق وإخلاص، فتفاوتت اجتهاداتهم بحسب الفتوحات الربانية التي ألهمهم الله بها.

وقد سبق وأن تمّ الحديث عن العديد من الجوانب التي تخص كلاً من زياد والحجاج في مباحث سابقة، وبقي أن نخصِّص الحديث هنا عن الجانب الاقتصادي.

وقد أخذ كل واحد منهما بحظ وافر في التسيير في هذا الجانب، إذا ما علمنا كما سبق ذكره أنهما قد كانا بمثابة الوزيرين وإن لم يلقبا بذلك، وقد عايشا سير خط حركة الدولة في جميع مراحلها أثناء فترة حكمهما، وأن أمرهما ونهيهما نافذين في الأقاليم التي كانت تابعة لهما ولا يرد ذلك إلا الخليفة.

وبحسب التفاوت في القدرات وكذا بحسب الأوضاع والظروف التي طبعت المنطقة التي حكمها زياد في فترة ولايته وكذا الحجاج في مدة ولايته، أن كان للرجلين عوامل مشتركة جمعت بينهما وأخرى تميّز بها كل واحد منهما عن الآخر.

1. أوجه التشابه أو القواسم المشتركة:

1. حسن تدبيرهما وتسييرهما للأموال.

1/ سورة الذاريات الآية 21.

2. استعانة زياد والحجاج بالموالي في تسيير المال لأنهم كانوا خبراء في الحساب.

3. الثقة المطلقة بين الخلفاء وولاّتهما في تسييرهما للأموال التي يشرفان عليها.

4. استعمال زياد والحجاج مال بيت مال المسلمين للصالح العام وما يحقق راحة المسلمين ويضمن وحدة صفهم وتثبيت دعائم الحكم القائم.

5. استعمال زياد والحجاج للمال استعمالا عقلانيا في الأعمال الحضارية التي قاما بها من بناء وشق السدود وتأمين الطرقات واستصلاح الأراضي الزراعية.

6. عدم نجاة سياستهما المالية من النقد والانتقاص من أقلام وألسنة المغرضين كما هو الشأن في جميع جوانب حياتهما الأخرى.

7. اهتمام الرجلين بالفتوحات وتوفيرهما ما تستحقه هذه الفتوحات من أموال ورجال حتى بلغ المسلمون مدينة كابل في عهد زياد وحدود الصين في عهد الحجاج.

2. أوجه الاختلاف:

➢ مميزات زياد:

تميّز زياد عن الحجاج ببعض المواصفات في الجانب الاقتصادي نجملها كالآتي:

1. كثرة تمرسه بوظيفة الحساب منذ الفترة العمرية إلى خلافة معاوية.

2. عدم تأثر زياد بالدنيا وإغراءاتها المادية رغم المنصب الذي كان يتولاه والأموال التي كان يضبطها ويديرها.

3. سبق زياد في تجديده لنظام ديوان الجند العمري وتطويره.

4. سبق زياد في تجديده لنظام ديوان الذراري وتطويره ومتطلبات المرحلة التي كانت في زمانه.

5. سبق زياد في تجديده وإحيائه لسنة من سنن رسول الله ﷺ اندرست تمثلت في تنظيمه للسوق ونزول الناس بها.

6. إدخال زياد الإصلاحات الكثيرة في وزارة البناء والتعمير بما وفّر لها من أموال ورجال.

7. النقلة النوعية في إصلاحات التعمير والبناء التي قام بها زياد.

8. استعمال زياد للمال في قضاءه على عناصر الشغب في المجتمع الإسلامي وتوطيد أركانه.

9. التوزيع العادل للأموال بين الناس ورضاهم بسياسته المالية.

- مميزات الحجاج:

كما أن لزياد مميزات تفرّد بها عن الحجاج، فإن هذا الأخير قد تميّز هو كذلك بمميزات قد تفرد بها عن صاحبه سواء ما كان منها إيجابيا أو سلبيا نجملها كالتالي:

1. سك الحجاج للعملة وإبطاله للتعامل بالنقود الرومية والفارسية وجعله للعملة أوزانا ومقادير ودار ضرب.
2. شدة محاسبته ومراقبته للعملة.
3. كان للحجاج السبق والفضل في بناءه للكعبة الشريفة على قواعد قريش.
4. كان للحجاج السبق والفضل في كسوته للكعبة بالديباج في الخلافة الأموية.
5. كان للحجاج السبق والفضل في بناءه لمدينة واسط.
6. كان للحجاج السبق والفضل في تحديثه وتطويره لنظام التحكم في المياه.
7. كان للحجاج السبق والفضل في إحدائه لنظام القروض.
8. كان للحجاج السبق والفضل في تجديده للنظام المالي العمري.
9. كثرة إنفاقه للمال لتعمير الأرض الموات وأرض المستنقعات.
10. ازدهرت التجارة ونمت نموا كبيرا بما وفرته سياسة الحجاج من أمن في الطرقات التي كانت تسلكها قوافل التجار.
11. أوخذ على سياسة الحجاج المالية (على زعم من زعم ذلك) ما يلي:
    - إسرافه وتبذيره للأموال.
    - زيادته للضرائب .
    - إنكسار الخراج في زمانه.
    - التقتير الملاحظ في بذل المال مع الرعية.
    - أخذه وإبقاؤه للجزية على من أسلم.
    - تزويره لبنود النفقات على ما جاء في بعض الروايات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ الخاتمـــــــــــــــة ﴾

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿الخاتمة﴾

كما هو بديهي أن لكل بداية نهاية ولكل موضوع خاتمة، فقد ارتأيت أن تكون خاتمة هذا البحث والتي أدعو الله أن تكون خاتمة مسك أجمع فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا الموضوع الذي لم آل فيه جهدا أجملها في النقاط التالية:

- أن العصر الأموي عصر مظلوم وأن الذين كتبوا تاريخ هذه الفترة – باستثناء القلة منهم – كتبوه بأقلام حاقدة ونفوس مريضة، أو لأهداف مغرضة القصد منها تشويه صورة الإسلام والمسلمين لأن هذه الفترة هي التي استقرت فيها الدولة الإسلامية واتضحت معالمها، والتشكيك فيها يعني بالضرورة التشكيك في مبادئ الإسلام وكذا التشكيك في التراث الإسلامي والموروث الحضاري الذي تفخر به الأمة.
- أن الدولة الأموية رغم ما حدث فيها من انحرافات سواء على مستوى مركز القرار (الخلفاء أو أعوانهم من الولاة) أو على المستوى الشعبي وما قيل فيها من انتقادات وما كان فيها من سقطات إلا أنها حفظت للأمة مقوماتها وكانت إسلامية الروح عربية اللسان.
- أن زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي كانا بمثابة الوزيرين في الدولة الأموية حتى ولو لم يلقبا بذلك.
- أن زيادا والحجاج قد أخلصا أيما إخلاص للدولة الأموية وتفانا في خدمتها بما يحقق المصلحة العامة للأمة ويحفظ وحدتها وصفها، وكان لا يرى الواحد منهما وجوده إلا من خلال الحكم القائم والقانون السائد.
- أن الذين كتبوا عن زياد والحجاج –باستثناء القلة القليلة- قد بينوا المساوئ والعيوب والهنات وتتبعوا فقط سقطاتهما، ولم يذكروا لهما مواقفهما المشرفة وأعمالهما الحضارية وكذا إصلاحاتهما على جميع المستويات والتي ذكر ولو الجزء القليل منها في هذا البحث وكذا أفضالهما على هذه الأمة.
- أنه كلما ذكرت الخلافة الأموية أو تلك الفترة في كتب الأدب والتاريخ إلا وتجد اسم زياد والحجاج يرد فيها ويذكر من كثرة ما قدموه من أعمال وما تركوه من آثار.

- أن الرجلين قد جمعت بينهما الكثير من القواسم المشتركة سواء من حيث النسب [إذا حمل نسب زياد على نسب عبيد] والتكوين في الحياة والتمرس بها والظروف السياسية والاجتماعية التي طبعت فترة حكمهما ومميزاتهما في التسيير وقدرتهما في التحكم في أوضاع مجتمعهما المتقلبة وإحلال أوامرهما ونهيهما في واقعهما وتأثر كل واحد منهما بالخليفة الذي عاصره وحتى شاءت الأقدار أن تكون هذه القواسم المشتركة حتى في صفة وحال وفاتهما [على زعم الروايات].
- أن للرجلين أفضال على الإنسانية عامة والأمة الإسلامية خاصة بأن كانا سببا في اتساع رقعة الدولة الإسلامية وما رافق هذا الاتساع من دخول الكثير من الأمم والأجناس في الإسلام وما نتج عن هذه الفتوحات من إحياء للنفوس وإنقاذ للبشرية من الضلال وكذا ما حققته من جانبها المادي بزيادة دخل بيت المال وكذا المنشآت العمرانية التي بنيت والأراضي الزراعية التي أحييت.
- أنه يستوجب على أبناء الأمة الإسلامية عامة والمتخصصين منهم خاصة في التاريخ أن يعيدوا صياغة وكتابة تاريخ أمتهم بما يتلاءم وعظمتها وموروثها الحضاري، وبما يفعّل دورها الحضاري ويبعثها من جديد في مصاف الأمم الحيّة، وأن يخلّصوا وينقحوا موروثهم الحضاري هذا بما علق به من شوائب ومن أفكار المغرضين والحاقدين.
- قد يقال أنت تكتب بقلم المحب وليس بقلم الناقد في بحثك هذا عن زياد والحجاج فأقول قد أكون كذلك ولكن من باب الإنصاف أن نقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، وتكفينا أقلام المغرضين والمشككين وما كتبته كذبا وزورا حول تاريخنا، والله ﷻ يقول في كتابه العزيز:" وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى".(1) والعدل يحكم القريب والبعيد والصديق والعدو؛ وأشهد الله –على ما أعلم- أني لم أعد الحق فيما كتبت رغم حبي لديني وتاريخي ووطني .

1/ سورة الأنعام الآية 152.

وخير ما أختم به بحثي هذا قول فضيلة الشيخ الغزالي-رحمة الله عليه- نقلا عن كتابه قذائف الحق يقول:" **أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه ويريدون استغلال المصائب التي نزلت بأمته كي يبنوا أنفسهم على أنقاضها، يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين، وقد قررنا نحن أن نبقى وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها لترثها الأجيال اللاحقة**"(1).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1/ محمد الغزالي: قذائف الحق، باتنة دار الشهاب 1406هـ/1986م، ص ص 5-6

ملاحق البحث:

- خطبة زياد في أهل البصرة.
- خريطة العالم الإسلامي في عهد زياد.
- خريطة العالم الإسلامي في عهد الحجاج.

جامعة أم القرى عبد القادر للعلوم الإسلامية

خطبة زياد في أهل البصرة.

ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ الجزء الثالث ص 222 في التأريخ لسنة 45هـ/ 665م ولاية زياد بن أبيه البصرة فقال:

قدم البصرة آخر شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين والفسق [في البصرة]ظاهر فاش فخطبهم خطبته البتراء، لم يحمد الله فيها، وقيل بل حمد الله فيها فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه ونسأله مزيدا من نعمه، اللهم كما زدتنا نعما فألهمنا شكرا على نعمك علينا أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والفجر الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيرها ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام فيثب فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأن لم تسمعوا نبي الله ولم تقرأوا كتاب الله ولم تعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه.

هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار، قربتم القرابة وباعدتم الذين يعتذرون بغير العذر وتعطفون على المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يخشى معادا.

ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا في مكانس الريب، حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا إني رأيت آخر هذا المر لا يصلح إلا بما صلح به أوله لين في غير ضعف وشدة في غير جبرية وعنف، وإني لأقسم بالله لآخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم.

إن كذبة المنبر مشهودة، فإذا تعلقتم علي بكذبة قلت: حلت لكم معصيتي. من يبيت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوة الجاهلية فإني لا أحد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه.

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوما غرّقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتا نقبت على قلبه، ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي وأذاي، لا يظهر من أحدكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

وقد كانت بيني وبين أقوام إحنٌ فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ومن كان مسيئا فليترع عن إساءته، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم.

فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس، أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم، واعلموا أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانة، ولا مجمرا لكم بعثا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم لكان شرا لكم، أسأل الله أن يعين كلا على كل، فإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فنفذوه على إذلاله و[أيم الله] إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي.

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير إنك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، فقال: كذبت ذاك نبي الله داود، فقال الأحنف: قد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء، وإنا لن نثنى حتى نبتلي، فقال زياد: صدقت.

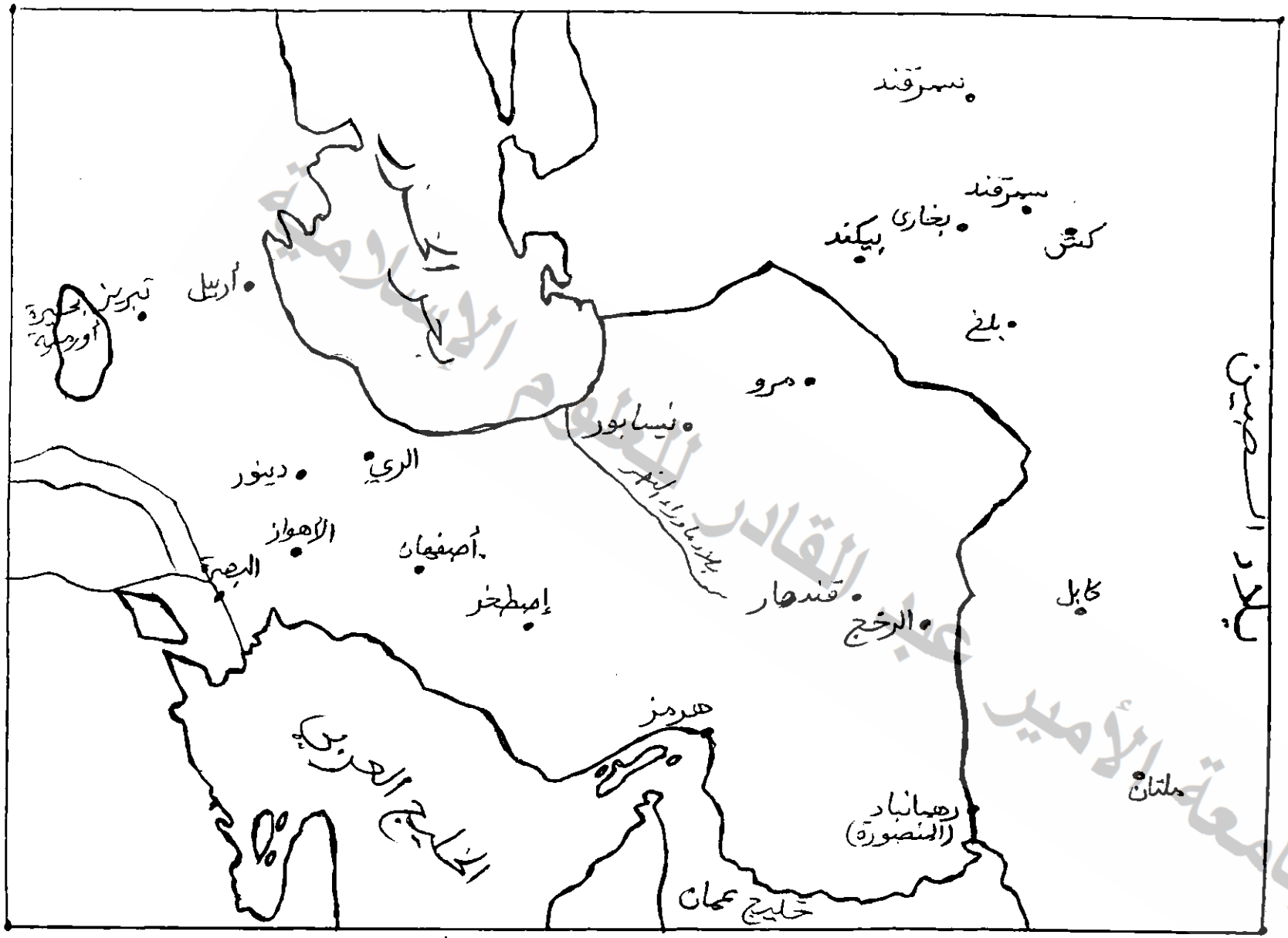

خريطة العالم الإسلامي شرقا عند وفاة زياد بن أبيه سنة 53 هـ/673م
نقلا عن: د/حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص 116.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

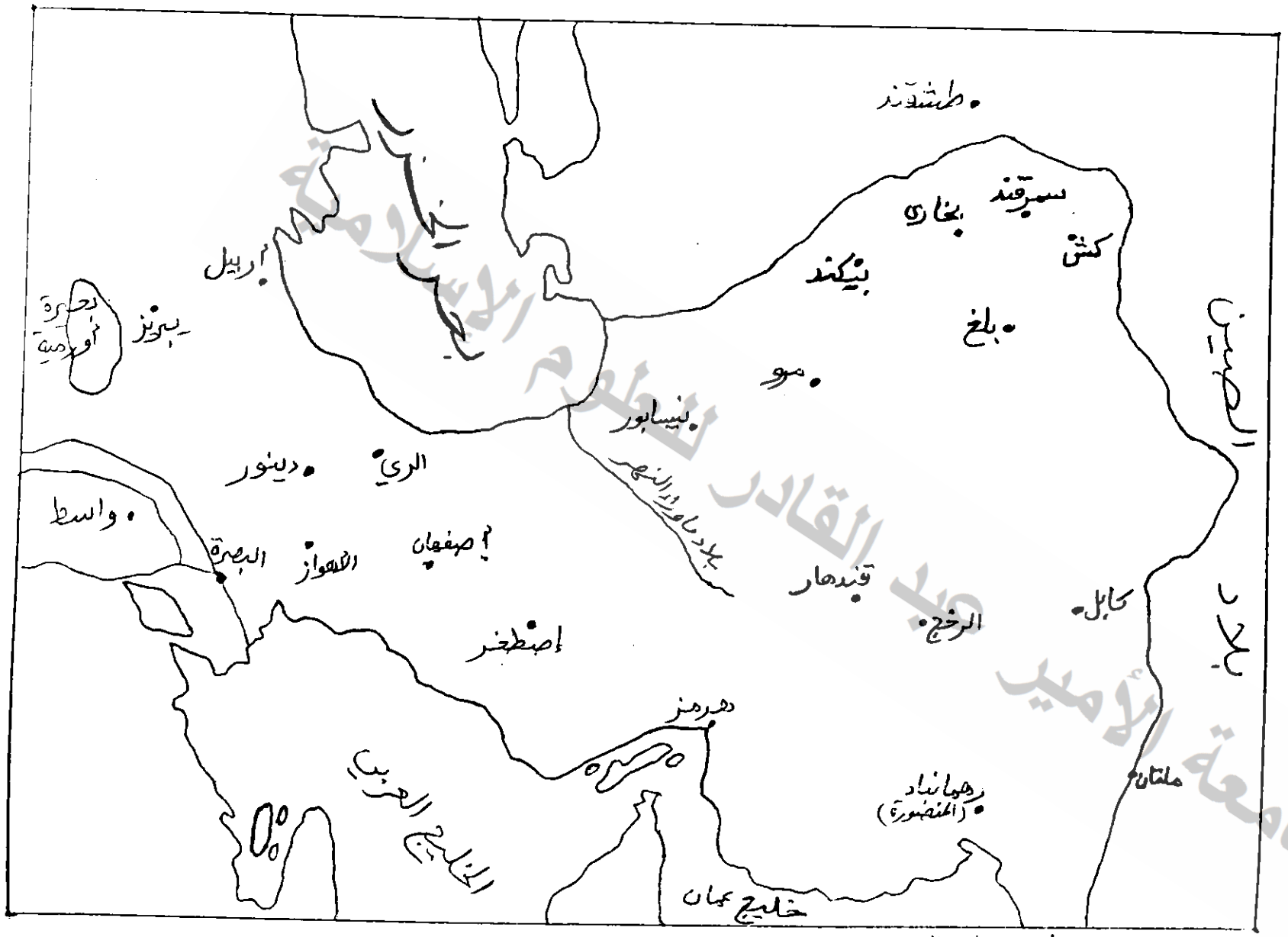

خريطة العالم الإسلامي شرقا عند وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 95 هـ/715 م

نقلا عن : د/ حسين مؤنس ، تاريخ أطلس الإسلام ، ص 146

فَهْرَسٌ عَامٌ:

✓ فهرسُ المصادر والمراجع.

✓ فهرسُ الأعلام.

✓ فهرسُ البلدان والأماكن.

✓ فهرسُ القبائل.

✓ فهرسُ المذاهب والأديان.

✓ فهرسُ الآيات.

✓ فهرسُ الموضوعات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع:

المصادر العربية:

01-ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم(ت 630هـ): الكامل في التاريخ، ط 5، بيروت، دار الكتاب العربي، 1405هـ/1985م.

02- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكي(ت874 هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق د/ إبراهيم علي طرخان، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر[د.ت.ط]

03- ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي(ت 852هـ):

الإصابة في تمييز الصحابة: تحقيق د/ طه محمد الزيني، الطبعة الأولى، القاهرة،دار إحياء الكتب العربية 1393هـ/1973م.

تهذيب التهذيب: الطبعة الأولى، حيدر أباد الهند،دائرة المعارف النظامية، 1325هـ.

لسان الميزان: الطبعة الثانية، بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1390هـ/1971م.

04- ابن خلدون عبد الرحمن(ت 808هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت دار الكتاب اللبناني.

المقدمة: بيروت دار الكتاب اللبناني 1982م.

05- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن بكر(ت 681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت دار صادر[د.ت.ط]

06- ابن خياط أبو عمرو خليفة(ت 240هـ): تاريخ خليفة، تحقيق د/ مصطفى نجيب فواز وآخر، الطبعة الأولى،بيروت دار الكتب العلمية، 1415هـ/1995م.

07- ابن سلام أبو عبيد القاسم(ت 224هـ): كتاب الأموال، تحقيق د/ محمد عمارة الطبعة الأولى، بيروت دار الشروق،1409هـ/1989م.

08- ابن سعد محمد كاتب الواقدي(ت 230هـ): الطبقات الكبرى، تحقيق د/ محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، بيروت دار الكتب العلمية، 1410هـ/1990م.

09- ابن الطقطقا محمد بن علي بن طباطبا(ت 709هـ): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية،بيروت دار بيروت للطباعة والنشر، 1400هـ/1980م.

10- ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد(ت 463هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق د/ طه محمد الزيني، الطبعة الأولى، القاهرة دار إحياء الكتب العربية ، 1393هـ/1973م.[طبع على هامش كتاب: الإصابة في تمييز الصحابة].

11- ابن عبد ربه أبو عمرو أحمد(ت 327هـ): العقد الفريد، تحقيق/ أحمد أمين وآخر، الطبعة الثالثة، بيروت دار الكتاب العربي، 1384هـ/1965م.

12- ابن العربي أبو بكر القاضي: العواصم من القواصم، تحقيق/ محب الدين الخطيب، ط2، جدة الدار السعودية للنشر،1387هـ.

13- ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله(ت 571هـ): تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق/ عبد القادر بدران، الطبعة الثالثة، بيروت دار إحياء التراث العربي، 1407هـ/1987م.

14- ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت 276هـ): كتاب المعارف، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ/ 1987م.

15- ابن كثير الحافظ أبو الفداء(ت747هـ): البداية والنهاية، بيروت دار الفكر [د.ت.ط]

16- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الأنصاري(ت 711هـ): مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق د/ نسيب الشاوي، الطبعة الأولى، دمشق دار الفكر ، 1405هـ/ 1985م.

17- ابن النديم أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق(ت 380هـ): الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر.

18- ابن هشام أبو محمد بن أيوب الحميري(ت 213هـ): سيرة ابن هشام[السيرة النبوية]، تحقيق/ محمد عفيف الزغبي، الطبعة السادسة، بيروت دار النفائس، 1405هـ/ 1985م.

19- البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(ت 256هـ):

التاريخ الكبير، تحقيق د/ محمد عبد المعيد خان، بيروت دار الكتب العلمية.[د.ت.ط]

صحيح البخاري: بيروت، دار الفكر،1981م.

20- البلاذري أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر(ت 279هـ): فتوح البلدان، تحقيق / عبد الله أنيس الطباع وآخر، القاهرة دار النشر للجامعيين، 1377هـ/1957م.

21- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب(ت 256هـ): الحيوان، شرح وتحقيق د/ يحي الشامي، الطبعة الثالثة،بيروت دار ومكتبة الهلال، 1990م.

22- الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان(ت 748هـ):

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الثانية، 1414هـ/1993م.[دون مكان الطبع]

سير أعلام النبلاء: تحقيق/ مأمون الصّاغجي، الطبعة الثالثة، بيروت مؤسسة الرسالة 1405هـ/1985م.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال: تحقيق/ محمد علي البجاوي، بيروت دار المعرفة [دون تاريخ الطبع].

العبر في خبر من غبر:تحقيق/ محمد زغلول، ط1، بيروت دار الكتب العلمية1405هـ/1985م

23- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت 911هـ): تاريخ الخلفاء، بيروت دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع [دون تاريخ الطبع].

24- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير(ت 310هـ): تاريخ الأمم والملوك، الطبعة الثالثة بيروت دار الكتب العلمية 1411هـ/1991م.

25- القزويني زكرياء بن محمد بن محمود(ت 682هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت دار بيروت للطباعة والنشر 1399هـ/ 1979م.

26- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب(ت 450هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة الطبعة الثانية، 1966م.

27- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين(ت 346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزائر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية رغاية ،1989م.

28- ياقوت الحموي أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله(ت 626هـ): معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي،ط1.بيروت، دار الكتب العلمية 1410هـ/1990م

➢ المراجع العربية:

01- أحمد أفندي حسين الزيات: تاريخ الأدب العربي، الطبعة الرابعة، عابدين مصر 1914م

02-أحمد أمين: فجر الإسلام، ط10،بيروت دار الكتاب العربي[د.ت.ط]

03- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، الجزء الثاني الخاص بالدولة الأموية، الطبعة السابعة، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، 1984م.

04- أحمد عبد الرزاق أحمد: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة دار الفكر العربي، 1990.

05-بسام العسلي:

عبد الملك بن مروان، الطبعة الأولى، بيروت دار النفائس 1406هـ / 1986م.

قتيبة بن مسلم الباهلي، الطبعة السادسة،بيروت دار النفائس 1985م.

06- بطرس البستاني: دائرة المعارف،طهران مؤسسة مطبوعاتي إسماعليان 1299هـ/1882م

07- جرجي زيدان:

تاريخ التمدن الإسلامي،بيروت، دار مكتبة الحياة1967م.

الحجاج بن يوسف، رواية، منشورات مكتبة الحياة مصر.[دون تاريخ الطبع]

08- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة الثالثة عشر، بيروت دار الجيل 1411هـ/1991م.

09- حسن أحمد أمين: المائة الأعظم في تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى، القاهرة مكتبة مدبولي 1411هـ/1991م.

10- حسن عطوان: الأمويون والخلافة، الطبعة الأولى،بيروت دار الجيل 1986م.

11- خير الدين الزركلي: الأعلام، الطبعة الخامسة، بيروت دار العلم للملايين 1980م.

12- شحادة الناطور: تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الطبعة الأولى، دار الكندي للنشر والتوزيع الأردن 1416هـ/1996م.

13- شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، بيروت دار العلم للملايين1981م

14- شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، الطبعة الأولى،دمشق دار الفكر ، 1415هـ/ 1994م.

15- عبد الرزاق محمد أسود: موسوعة العراق السياسية، الطبعة الأولى، بيروت الدار العربية للموسوعات،1986م.

16- العدوي إبراهيم أحمد: مر التاريخ الإسلامي منابعه العليا وفروعه العظمى، القاهرة دار الفكر العربي ، مصر[د.ت.ط].

17-العمد إحسان صدقي: الحجاج بن يوسف الثقفي حياته وآراؤه السياسية، الطبعة الثانية، بيروت دار الثقافة، 1981م.

18- علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة مكتبة الخانجي ،1975م.

19-علي إبراهيم حسن:التاريخ الإسلامي العام،القاهرة مكتبة النهضة الإسلامية[د.ت.ط]

20-عمر أبو النصر:سيوف أمية في الحرب والإدارة، بيروت منشورات المكتبة الأهلية 1963م

21- عمر فروخ:

تاريخ الأدب العربي، ط5، بيروت دار العلم للملايين،1983م.

تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ط7،بيروت دار العلم للملايين 1986م.

22- محمد أمين صالح: العرب والإسلام من البعثة النبوية حتى نهاية الدولة الأموية،القاهرة مكتبة نهضة الشرق 1984م.

23- محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية [الدولة الأموية]، بيروت دار المعرفة لبنان[دون تاريخ النشر].

24- محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، الطبعة الحادية عشرة، دمشق دار الفكر 1412هـ/1991م.

25- محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم، الطبعة الأولى، بيروت دار الشروق 1409هـ/ 1989م.

26- محمد ماهر حمادة:

دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره، الطبعة الأولى، بيروت مؤسسة الرسالة 1408هـ/1988م.

الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الراشدي والأموي، الطبعة الرابعة، بيروت دار النفائس 1405هـ/ 1985م.

27- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الطبعة التاسعة، بيروت المكتب الإسلامي 1411هـ/ 1991م.

28- محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء من العصر الجاهلي إلى أواخر العصر الأموي، الطبعة الأولى، دمشق دار الفكر 1407هـ/1988م.

29- نجدة حماش: الإدارة في العصر الأموي، الطبعة الأولى، دمشق دار الفكر 1400هـ/ 1980م.

30- الهيثم الأيوبي: الموسوعة العسكرية، الطبعة الثالثة،بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م.

31- يوسف العش: الدولة الأموية، ط2، دمشق دار الفكر، 1985م.

➢ قائمة المراجع المترجمة :

01- بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة/ نبيه أمين فارس وآخر، الطبعة العاشرة، بيروت دار العلم للملايين 1984م.

02- فلوتن فان: السياسة العربية، ترجمة/ حسن إبراهيم حسن، الطبعة الثانية،القاهرة مكتبة النهضة المصرية، 1993م.

03- لمبار موريس: الإسلام في مجده الأول،ترجمة وتحقيق/ إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984م.

04- يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية، ترجمة يوسف العش، دمشق دار الفكر [د.ت.ط]

➢ قائمة المراجع الأجنبية :

01/ DHINA AMAR. GRANDES FIGURES DE L ISLAM .alger.entreprise national du livre.1986

02/ ZOTENBERG HERMAN. Les Ommayades, PARIS. Editions 1983.

فهرس الأعلام:

﴿ أ ﴾

1- ابن الأثير عز الدين: 49. 54. 55.
2- ابن حجر أحمد بن علي: 26. 72.
3- ابن سعد: 24.
4- ابن عبد البر: 24. 26. 72.
5- ابن عساكر علي بن الحسن: 24.
6- ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم: 84.
7- ابن كثير: 23. 84. 115.
8- ابن منظور محمد بن مكرم: 60. 61. 73.
9- ابن النديم: 25.
10- أبو الأسود الدؤلي: 30.
11- أبو برزة الأسلمي: 61.
12- أبو بكر الصديق: 15. 27.
13- أبو الحسن المدائني: 26.
14- أبو جعفر المنصور: 131.
15- أبو سفيان بن حرب: 25. 28. 42. 44 . 54. 140.
16- أبو عثمان النهدي: 72.
17- أبو المغيرة الحميري: 32. 33. 139.
18- أبو موسى الأشعري: 28. 36. 37. 38. 39.
19- أبو اليقظان: 85.
20- إبراهيم علي الطرخان: 36.
21- إحسان صدقي العمد: 113. 114. 115. 117.
22- أحمد شلبي: 04. 06. 67. 103. 108. 126. 131.
23- أحمد بن صالح: 27.
24- ادم[illegible]: 113.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

25- الأصمعي: 60.
26- أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر: 102.

27- أنس بن مالك: 99.
28- أوفى بن حصن: 57.

﴿ب﴾

29- البخاري: 24.
30- بسام العسلي: 101.
31- البستاني: 85.
32- بسر بن أبي أرطأة: 42.
33- بشر بن مروان: 118. 120.
34- البلاذري: 114.

﴿ج﴾

35- الجاحظ: 85.
36- جارية بن قدامة: 30. 40. 41.
37- الجراح بن عبد الله الحكمي: 68.
38- جرجي زيدان: 67.

﴿ح﴾

39-حجر بن عدي: 46. 58.
40- الحرث بن كلدة: 23. 24.
41- حسن إبراهيم حسن: 127.
42- الحسن البصري: 32.
43- الحسن بن علي بن أبي طالب: 43. 47. 61
44-الحسين بن علي بن أبي طالب: 16. 17. 98. 112.
45-الحكم بن عمرو الغفاري:76. 77.

﴿خ﴾

46- خالد بن جعفر بن كلاب: 132.
47- الخطيم(يزيد بن مالك الباهلي): 59.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ذ﴾

48- الذهبي: 92. 133.

﴿ر﴾

49- روح بن زنباع: 84. 85. 86. 96.

﴿ز﴾

50- زندورد: 23.
51- زياد بن خراش العجلي: 59.
52- زينب بنت يوسف(أخت الحجاج): 37.

﴿س﴾

53- سعد بن أبي وقاص: 28. 75.
54- سعيد بن جبير: 90. 105. 139.
55- سعيد بن سرح: 61.
56- سعيد بن العاص: 101.
57- سليمان بن عبد الملك: 106. 107. 108.
58- سليمان بن نعيم: 39.
59-سمية(أم زياد): 23. 24.
60- سمير اليهودي: 130.
61- سهل بن حنيف: 30.
62- سهم بن غالب: 57. 59.

﴿ش﴾

63- شبل بن معبد البجلي: 38.
64- شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي: 88. 121.
65- شحادة الناطور: 74.
66- الشعبي: 41. 43. 55. 120.
67- شكري فيصل: 67.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ض﴾

68- ضبة بن محصن: 36. 38.

﴿ط﴾

69- طارق بن عمرو: 113.

﴿ع﴾

70- عائشة أم المؤمنين: 58.

71-عبد الرحمن بن أبي بكرة: 45.

72- عبد الرحمن بن الحكم: 47. 53. 54.

73-عبد الرحمن بن خلدون: 24. 29. 38. 97. 119. 120.

74- عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث: 88. 100. 105. 121. 122. 137. 146.

75- عبد الرزاق محمد أسود: 98.

76- عبد العزيز بن الوليد: 108.

77- عبد الله بن الجارود: 99. 120. 127.

78- عبد الله بن الحضرمي: 30. 40.

79- عبد الله بن الزبير:39. 84. 86. 87. 97. 103. 105. 111. 112. 113. 114. 115. 123. 131. 133.

80- عبد الله بن سبأ: 14.

81- عبد الله بن عامر: 29.

82- عبد الله بن عباس: 25. 30. 40. 41.

83- عبد الله بن عمر بن الخطاب: 32. 114. 115. 123. 124.

84- عبد الملك بن مروان: 13. 39. 40. 74. 85. 86. 87. 88. 89. 94. 95. 97. 98. 99. 100. 102. 103. 104. 106. 108. 114. 115. 118. 120. 121. 126. 127. 128. 129. 131. 134. 142.

85- عبيد بن أسيد الرومي: 23. 24. 72.

86- عبيد بن زياد: 74.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

87- عتبة بن غزوان: 27. 35.

88- عثمان بن عفان:14. 15. 20. 29. 35. 39. 101. 117. 119.

89- عكرمة بن ربعي بن عمير: 126.

90- علي بن أبي طالب:16. 25. 28. 29. 30. 31. 32. 35. 39. 40. 41. 42. 43. 54. 72. 120.

91- علي الخربوطلي: 104.

92- عمران بن عصام بن العنزي: 105.

93- عمر بن الخطاب: 15. 25. 27. 28. 29. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 62. 72. 73. 88. 120. 134. 136. 137.

94- عمر بن عبد العزيز:17. 68. 92. 107. 122. 134.

95- عمرو أبو النصر: 84. 116.

96- عمرو بن الحمق: 54.

97- عمرو بن حريث: 58.

98- عمرو بن العاص: 25.

99- عمير بن ضابئ البرجمي: 119. 120.

100- عوف الثقفي(جد الحجاج): 35.

﴿غ﴾

101- غالب بن فضالة الليثي: 46.

102- غولد تسيهر: 70.

﴿ف﴾

103- الفارعة بنت همام(أم الحجاج): 35.

104- فان فلوتن:67. 70. 122.

105- فلهوزن: 67.

106- فون كريمر: 127.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

107- قتيبة بن مسلم الباهلي: 102.

108- القزويني: 84. 85. 104.

109- قطري بن الفجاءة: 121.

110- قريب الأيادي: 59.

﴿ك﴾

111-كارل بروكلمان: 107.

112- كسرى أنو شروان: 31. 41.

﴿م﴾

113- المبرد: 119.

114- محمد بن جرير الطبري:27. 41. 44. 49. 54. 55. 67. 84. 108. 117. 119.

115- محمد بن الحنفية:97.

116- محمد بن سيرين: 131.

117- محمد بن يوسف(أخ الحجاج): 37. 38.

118- محمد الخضري بك: 52.

119- محمد الغزالي:05. 154.

120-محمد ماهر حمادة:94.

121- محمود شاكر: 68.

122- محمود المقداد:70.

123- المختار بن أبي عبيد:26.

124- مروان بن الحكم:26. 36. 39.

125- مسروق: 123.

126- مسكين الدارمي: 33.

127- مسلمة بن عبد الملك: 135.

128 - مسيلمة الكذاب:15.

129- مصعب بن الزبير :87. 120.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

130- مصقلة بن هبيرة: 44.

131- مطرف بن المغيرة بن شعبة: 121-122.

132- معاذ الطائي: 59.

133- معاوية بن أبي سفيان:13. 17. 25. 30. 31. 32. 33. 35. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 49. 58. 72. 74.

134- المغيرة بن شعبة:31. 37. 38. 44. 45. 46. 49. 56.

135-المهلب بن أبي صفرة:87. 119. 120. 121.

﴿ن﴾

136- نافع بن الحرث: 23.

137- نافع بن خالد الطاحي: 54.

138- نافع بن كلدة: 38.

139- نجدة حماش: 68.

140- نفيع بن الحرث: 23. 37. 43.

﴿ي﴾

141- يزيد بن أبي مسلم: 126.

142- يزيد بن معاوية:46. 47.

143-يزيد بن المهلب: 106.

144-يوسف بن الحكم(أب الحجاج): 36. 38. 39. 84.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس البلدان والأماكن:

﴿ أ ﴾

01- الأبلة(بلد أو نهر): 27.

02- إصطخر: 31. 41.

03- أفغانستان: 76.

04- الأهواز: 58.

﴿ ب ﴾

05- البحرين: 31. 58.

06- بدر: 26.

07- البصـــرة: 27. 28. 29. 30. 31. 32. 35. 36. 37. 39. 44. 45. 46. 49. 51. 53. 56. 57. 59. 60. 72. 74. 75. 77. 121. 122. 132. 133.

﴿ ت ﴾

08-تبالة: 85. 86.

﴿ ج ﴾

09- جبل أبي قبيس: 87.

10- جلولاء: 28. 36.

﴿ ح ﴾

11- الحجاز: 23. 87. 112. 117. 118.

﴿ خ ﴾

12- خراسان: 46. 68. 75. 76. 77. 102. 106.

﴿ د ﴾

13- دجلة(نهر): 134.

14- دمشق: 133.

15- الديبل(ميناء): 106.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ ر ﴾

16- الربدة: 84.

17- الرزق(مدينة): 60. 145.

﴿ ز ﴾

18- الزابي(نهر): 134.

﴿ س ﴾

19- سجستان:31.

20- سقيفة بني ساعدة: 14.

21- السند: 106. 135.

﴿ ش ﴾

22- الشام: 58. 87. 132.

23- شبه الجزيرة العربية: 14. 18.

﴿ ص ﴾

24- الصين(بلد أو نهر): 12. 89. 124. 134. 146.

﴿ ط ﴾

25- الطائف: 23. 24. 27. 79. 81. 83.

26- طاحية: 59.

﴿ ع ﴾

27- العـــراق: 16. 32. 47. 52. 55. 56. 60. 61. 62. 75. 87. 88. 89. 94. 95. 98.
101. 107. 118. 119. 120. 121. 123. 127. 128. 132. 134. 136.

28- عمان: 31.

﴿ ف ﴾

29- فارس: 30. 31. 40. 41. 43. 44. 45. 55. 72.

30- الفرات(نهر): 134.

31- الفرس: 130.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ ك ﴾

32- كابل: 76. 146.

33- كربلاء: 112.

34- كرش: 132.

35- كرمان: 40. 41.

36- كسكر: 23.

37- الكعبة: 17. 86. 87.

38- الكوفة: 30. 31. 32. 40. 45. 46. 49. 54. 56. 57. 58. 60. 72. 74. 75. 88.

98. 104. 119. 120. 121. 132.

﴿ م ﴾

39- المدينة المنورة: 13. 14. 28. 36. 39. 65. 69. 86. 97. 107. 108. 112. 113. 114.

116. 117. 118.

40- مسكن (أرض بالعراق): 58.

41- مصر: 80.

42- معقل(نهر): 76.

43- مكة المكرمة: 31. 39. 86. 87. 97. 111. 112. 113. 114. 116. 117. 118.

﴿ ن ﴾

44- النيل(نهر): 134.

﴿ هـ ﴾

45- الهند: 31. 46. 135.

﴿ و ﴾

46- واسط: 49. 89. 105. 123. 132. 133. 146.

﴿ ي ﴾

47- اليمامة: 88.

48- اليمن: 25. 28. 37. 84. 88.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس القبائل:

﴿ أ ﴾

01- الأوس: 20.

02- إياد: 58.

﴿ ب ﴾

03- باهلة: 58.

04- بنو تميم: 30. 40.

﴿ ث ﴾

05- ثقيف: 27. 42. 79. 80. 81. 82. 102. 112. 139.

﴿ خ ﴾

06- الخزرج: 20.

﴿ ط ﴾

07- طيئ: 58.

﴿ ق ﴾

08- قريش: 12. 82. 97. 103. 105. 131. 146.

﴿ م ﴾

09- مضر: 13.

﴿ ي ﴾

10- يمنية: 13.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المذاهب والأديان:

﴿ ح ﴾

01- الحرورية:59.

﴿ خ ﴾

02- الخوارج: 16. 19. 20. 56. 58. 59. 120. 121. 122.

﴿ س ﴾

03- السنة: 16.

﴿ ش ﴾

04- الشيعة: 16. 19. 20. 126.

﴿ ن ﴾

05- النصارى: 19. 20.

﴿ ي ﴾

06- اليهود: 19. 20.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس السور والآيات:

01- البقرة(143):"وكذلك جعلناكم.....ويكون الرسول عليكم شهيدا"

ص 96.

02- المائدة(53): "يا أيها الذين .....لا يهدي القوم الظالمين"

المائدة(57-58-59): "إنما وليكم الله.....إن كنتم مومنين"

ص 69.

03- الأنعام(152): "وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى"

ص 153.

04- التوبة(29): "قاتلوا الذين لا يومنون بالله.....عن يد وهم صاغرون"

ص128.

05- النور(13): "لولا جاءو عليه بأربعة شهداء.....هم الكاذبون"

ص 38.

06- الأحزاب(05): "أدعوهم لأبائهم.....ومواليكم"

ص 24.

07- الحجرات(10): "إنما المومنون إخوة"

الحجرات(13): "يا أيها الناس.....إن الله عليم خبير"

ص 14.

08- الذاريات(21): "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"

ص 148.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات:

المقدمة:..... 04
التمهيد العام:.....12
أ-الملامح السياسية:1-العصبية القبلية.....13
2-قيام دولة الرسول ﷺ 14
3-قيام دولة الخلافة الراشدة.....15
4-عام الجماعة وقيام الدولة الأموية..... 17
ب- الملامح الاجتماعية والاقتصادية.....17
ج-الملامح الدينية.....20

الفصل الأول: زياد بن أبيه

المبحث الأول:الأصل والمنشأ وعوامل ظهوره ووفاته.....22
1- نسبه ومولده: أ- نسبه:..... 23
ب-مولده:..... 26
2-نشأته وعوامل ظهوره 27
3-وفاته..... 32
المبحث الثاني:علاقة زياد بالسلطة المركزية..... 34
1-مقدمة..... 35
2-علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عمر..... 36
3-علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة عثمان..... 39
4-علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة علي.....39
5-علاقته بالسلطة المركزية زمن الخليفة معاوية..... 43
المبحث الثالث:سياسة زياد الإدارية..... 48
1-مقدمة..... 49
2-سياسة اللين..... 52
3-سياسة الشدة..... 56

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4-نتائج سياسة الشدة والصرامة: أ-النتائج الإيجابية.....59
ب-النتائج السلبية.....61
5-العوامل المساعدة لزياد في تطبيق سياسته.....62
المبحث الرابع:سياسة زياد الاقتصادية.....64
1-مدخل عام.....65
2-مهمة أخذ الجزية.....66
3-سوء معاملة الموالي.....68
4-سياسة زياد المالية أ- الخط الراشد للسياسة المالية 72
ب-نظرية زياد في التسيير المالي.....73
ج-الإصلاحات الاقتصادية في عهد زياد..... 73
د-أوجه نفقات المال العام.....75
د1-العمران..... 75
د2-استصلاح الأراضي..... 76
د3-الفتوحات..... 76
هـ-نقد سياسة زياد المالية..... 76

الفصل الثاني:الحجاج بن يوسف الثقفي.

المبحث الأول:الأصل والمنشأ وطموحاته الكبيرة في الدولة..... 78
1-مقدمة..... 79
2-نسب الحجاج ومولده..... 79
3-نشأة الحجاج.....81
4-الحجاج وطموحاته في الدولة الأموية..... 83
5-الحجاج سوط عبد الملك..... 84
6-الحجاج سيف عبد الملك..... 86
7-الحجاج في الحجاز.....87
8-الحجاج في العراق..... 88
9-وفاة الحجاج..... 90

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني:علاقة الحجاج بالسلطة المركزية.....93
1-حقائق ومسلمات في حياة الحجاج السياسية..... 94
2-ولاء الحجاج للخلافة ومدى تنفيذه للأوامر.....95
3-علاقة الحجاج بالسلطة المركزية:أ-العلاقة الطيبة والمتينة.....96
ب-تأزم واهتزاز العلاقة.....100
4-مكانة الحجاج في السلطة المركزية:.....103
أ-مكانة الحجاج عند عبد الملك ...103
ب-مكانة الحجاج عند الوليد.....104
المبحث الثالث:سياسة الحجاج الإدارية.....110
1-مقدمة..... 111
2-سياسة اللين..... 112
3-سياسة الشدة..... 116
4-نتائج سياسة الحجاج الإدارية..... 123
المبحث الرابع:سياسة الحجاج الاقتصادية..... 125
1-مقدمة.....126
2-مآخذ السياسة المالية في عهد الحجاج.....126
3-إصلاحات الحجاج في الجانب الاقتصادي.....129
أ-سك العملة.....129
ب- البناء والتعمير.....131
ج- استصلاح الأراضي.....134
د-جباية الخراج وتحديد نظام المالية العمري....136

الفصل الثالث: دراسة موازنة بين زياد والحجاج

الموازنة الأولى: في الأصل والمنشأ والوفاة.....138
1-أوجه التشابه أو القواسم المشتركة.....139
2-أوجه الاختلاف: أ-مميزات زياد عن الحجاج.....139
ب-مميزات الحجاج عن زياد.....140

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموازنة الثانية: في علاقتهما مع السلطة المركزية..... 141
1-أوجه التشابه أو القواسم المشتركة..... 142
2-أوجه الاختلاف: أ-مميزات زياد عن الحجاج..... 143
ب-مميزات الحجاج عن زياد..... 143
الموازنة الثالثة: في سياستهما الإدارية..... 144
1-أوجه التشابه أو القواسم المشتركة..... 145
2-أوجه الاختلاف: أ-مميزات زياد..... 146
ب-مميزات الحجاج..... 146
الموازنة الرابعة: في سياستهما الاقتصادية..... 147
1-أوجه التشابه أو القواسم المشتركة..... 148
2-أوجه الاختلاف: أ-مميزات زياد..... 149
ب-مميزات الحجاج..... 150
الخاتمة:..... 151
الملاحق:..... 155
فهرس عام:..... 160
فهرس المصادر والمراجع:..... 161
فهرس الأعلام:..... 167
فهرس البلدان..... 174
فهرس القبائل:..... 177
فهرس المذاهب والأديان:..... 178
فهرس الآيات:..... 179
فهرس الموضوعات..... 180

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية